التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سور

الشورى الزخرف
الدخان الجاثية
الأحقاف محمد
الفتح الحجرات
ق

الإمام الأكبر
الدكتور محمد سيد طنطاوى
شيخ الأزهر

المجلد الثالث عشر

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾

تفسير

سورة الشّورى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة

١ ـ سورة «الشورى» هي السورة الثانية والأربعون في ترتيب المصحف ، وكان نزولها بعد نزول سورة «فصلت». وعدد آياتها ثلاث وخمسون آية.

وتسمى ـ أيضا ـ سورة ﴿حم عسق﴾ ، لافتتاحها بذلك.

والرأى الصحيح أن سورة الشورى من السور المكية الخالصة. وقيل هي مكية إلا أربع آيات منها تبدأ من قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾.

ولكن هذا القيل لا يعتمد على دليل صحيح ، بل الصحيح أن السورة كلها مكية.

٢ ـ وتبدأ سورة الشورى ببيان أن الله ـ تعالى ـ قد أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى غيره من الأنبياء ، وببيان مظاهر قدرته ـ عزّ وجلّ ـ ، وأنه ـ تعالى ـ قادر على أن يجعل الناس أمة واحدة.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

٣ ـ وبعد أن أنكر ـ سبحانه ـ على المشركين إشراكهم ، وساق الأدلة على بطلان هذا الشرك ، وأمر بالرجوع إلى حكم الله ـ تعالى ـ فيما اختلفوا فيه.

بعد كل ذلك بين ـ سبحانه ـ أن الشريعة التي جاء بها الأنبياء واحدة في جوهرها ، وأن تفرق الناس في عقائدهم ، مرجعه إلى بغيهم وأهوائهم.

قال ـ تعالى ـ : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾.

٤ ـ ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر نعم الله ـ تعالى ـ على عباده ،

عن طريق ما أودع فيهم من عقول : وما أنزله لهم من شرائع ، وما حباهم به من أرزاق ...

ووبخت الكافرين على كفرهم مع كل هذه النعم التي أنعم بها عليهم ، وبينت ما سيكونون عليه يوم القيامة من حسرة وندامة ، وما سيكون عليه المؤمنون الصادقون من فرح وحبور.

قال . تعالى . : ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ. ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

٥ . ثم واصلت السورة حديثها عن مظاهر قدرة الله . تعالى . وعن ألوان نعمه على خلقه ، فتحدثت عن فضله . تعالى . في قبوله لتوبة التائبين ، وعفوه عن سيئاتهم ، وإجابته لدعائهم وإنزاله الغيث عليهم من بعد قنوطهم ويأسهم ، وخلقه السموات والأرض وما فيهما من أجل مصلحة الناس ومنفعتهم ، ورعايته لهم وهم في سفنهم داخل البحر.

قال . تعالى . : ﴿وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ. إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ. أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾.

٦ . ثم بين . سبحانه . صفات المؤمنين الصادقين ، وأثنى عليهم ثناء عاطرا ، يحمل العقلاء على الاقتداء بهم ، وعلى التحلي بصفاتهم.

قال . سبحانه . : ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ ، وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ. وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ ، وَأَقامُوا الصَّلاةَ ، وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ، وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها ، فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

٧ . وكعادة القرآن في المقارنة بين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار ، أتبع القرآن هذه الصفات الكريمة للمؤمنين ، ببيان الأحوال السيئة التي سيكون عليها الظالمون يوم القيامة ، ودعتهم إلى الدخول في الدين الحق من قبل فوات الأوان.

قال . تعالى . : ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ، ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾.

٨ . ثم ختم . سبحانه . السورة الكريمة ببيان جانب من مظاهر فضله على رسوله ﷺ فقال :

﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ ، وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ. أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

٩ ـ ومن هذا العرض الإجمالى لآيات سورة الشورى. نراها زاخرة بالحديث عن الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، وعلى صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ..

كما نراها زاخرة ـ أيضا ـ بالحديث عن نعم الله على عباده ، وعن حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين وعن مشاهد يوم القيامة وما فيه من أهوال. وعن شبهات المشركين والرد عليها بما يدحضها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

د. محمد سيد طنطاوى

١١ / ١٠ / ١٩٨٥

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) عسق (٢) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦)

سورة «الشورى» من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجي ، وقد سبق أن ذكرنا أن أقرب الأقوال إلى الصواب في المقصود بهذه الحروف ، أنها وردت في افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن.

فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من أنه منزل من عند الله ، فهاتوا مثله أو عشر سور من مثله ، أو سورة من مثله .. فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ :

وقد ذكر بعض المفسرين عند تفسيره لهذه السورة آثارا واهية ، رأينا أن نذكر بعضها للتنبيه على سقوطها.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد روى الإمام ابن جرير هاهنا أثرا غريبا عجيبا منكرا ، فقال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له ـ وعنده حذيفة بن اليمان ـ أخبرني عن تفسير قول الله ـ تعالى ـ : ﴿حم عسق﴾. فأطرق ابن عباس ثم أعرض عنه.

فقال حذيفة للرجل : أنا أنبئك بها ، قد عرفت لم كرهها؟ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له : «عبد الإله» أو عبد الله ، ينزل على نهر من أنهار الشرق ، تبنى عليه مدينتان ، يشق النهر بينهما شقا. فإذا أذن الله في زوال ملكهم .. بعث الله على إحداهما نارا ليلا .. ثم يخسف الله ـ تعالى ـ بالأخرى فذلك قوله ﴿حم. عسق﴾.

يعنى : عزيمة من الله وفتنة وقضاء حمّ ﴿حم﴾ ، وعين ، يعنى عدلا منه ، وسين : يعنى سيكون. وق ، يعنى : واقع بهاتين المدينتين .. [1].

والكاف في قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذلِكَ﴾ بمعنى مثل ، واسم الإشارة يعود إلى ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من عقائد وأحكام وآداب.

أى : مثل ما في هذه السورة الكريمة من دعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، أوحى الله به إليك وإلى الرسل من قبلك ، لتبلغوه للناس كي يعتبروا ويتعظوا.

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كلام مستأنف ، وارد لتحقيق أن مضمون السورة ، موافق لما في تضاعيف الكتب المنزلة ، على سائر الرسل المتقدمين في الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق.

والكاف مفعول ﴿يُوحِي﴾ أى : يوحى مثل ما في هذه السورة من المعاني.

وجيء بقوله : ﴿يُوحِي﴾ بدل أوحى للدلالة على استمراره في الماضي ، وأن إيحاء مثله ، عادته ـ تعالى ـ :

و ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ صفتان له ـ عزّ وجلّ ـ [2].

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً﴾ [3].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ صفات أخرى لذاته فقال : ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

أى : لقد أوحى الله ـ تعالى ـ إليك ـ أيها الرسول الكريم ـ بهذا القرآن كما أوحى إلى الرسل من قبلك بما شاء من وحى ، وهو ـ سبحانه ـ العزيز الذي لا يغلبه غالب ، الحكيم في

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٧٧.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١١.

(٣) سورة النساء آية ١٦٣.

كل أقواله وأفعاله ، والذي له جميع ما في السموات وما في الأرض خلقا وملكا وتصرفا .. وهو ـ سبحانه ـ ﴿الْعَلِيُ﴾ أى : المتعالي عن الأشباه والأنداد والأمثال والأضداد.

﴿الْعَظِيمُ﴾ أى : في ذاته وفي صفاته ، وفي أفعاله.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مظاهر علو شأنه وكمال عظمته وجلاله فقال : ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَ﴾.

والفعل ﴿تَكادُ﴾ مضارع «كاد» الذي هو من أفعال المقاربة. وقوله ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ أى : يتشققن. والضمير في قوله ـ تعالى ـ : ﴿مِنْ فَوْقِهِنَ﴾ يعود إلى السموات ، باعتبار أن كل سماء تنفطر فوق التي تليها.

وهذا التفطر سببه الخشية من الله ـ تعالى ـ ، والخوف من جلاله وعظمته فيكون المعنى : تكاد السموات يتشققن فيسقطن مع عظمهن ﴿مِنْ فَوْقِهِنَ﴾ أى : من أعلاهن ، خشية ورهبة من عظمته ـ عزوجل ـ ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ ويصح أن يكون هذا التفطر سببه ، شدة الفرية التي افتراها المشركون على الله ـ تعالى ـ حيث زعموا أن لله ولدا ، كما قال سبحانه ـ : ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا. تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً. وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال : ﴿مِنْ فَوْقِهِنَ﴾؟ قلت : لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة : فوق السموات ، وهي : العرش ، والكرسي ، وصفوف الملائكة ، المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا الله ـ تعالى ـ من آثار ملكوته العظمى ، فلذا قال : ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَ﴾ أى : يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية. أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السموات. فكان القياس أن يقال : من تحتهن ، من الجهة التي جاءت منها الكلمة ، ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق. كأنه قيل : يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن ، ع الجهة التي تحتهن [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مؤكد لما قبله من بيان علو شأنه ـ عزوجل ـ ، وسمو عظمته وجلاله.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٠٩.

أى : والملائكة ينزهون ربهم - تعالى - عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله ، خوفا منه - سبحانه - ، ورهبة لذاته.

وقوله : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿يُسَبِّحُونَ﴾. والمراد بمن في الأرض : المؤمنون بصفة خاصة ، لأنهم هم الذين يستحقون ذلك ، كما قال - تعالى - في آية أخرى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أى : أن الملائكة ينزهون الله - تعالى - عما لا يليق به. ويطلبون للمؤمنين من أهل الأرض عفو الله - تعالى - ورحمته وغفرانه.

وقوله : ﴿أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تذييل قصد به الثناء على الله - تعالى - بما هو أهله.

أى : ألا إن الله - تعالى - وحده ، هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده ، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا يحاسبه على ما يفعل محاسب.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المشركين فقال : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

أى : والذين اتخذوا من دون الله - تعالى - شفعاء وشركاء ليقربوهم إليه زلفى ، الله - تعالى - وحده رقيب عليهم ، وسيجازيهم بما يستحقون من عقاب يوم القيامة ، وما أنت - أيها الرسول الكريم - عليهم بحفيظ أو رقيب على أعمالهم ، وإنما أنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب.

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إنزال هذا القرآن على الرسول ﷺ كما بين أنواعا من الأدلة عن كمال قدرته ، ووجوب إفراده بالعبادة والخضوع ، ووجوب التحاكم إلى شريعته عند الاختلاف والتنازع. فقال - تعالى - :

﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٨)

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَما اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٢)

والكاف في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا ..﴾ في محل نصب على المصدرية ، واسم الإشارة يعود إلى مصدر ﴿أَوْحَيْنا﴾.

أى : ومثل ذلك الإيحاء البديع الواضح ، أوحينا إليك ـ أيها الرسول الكريم ـ قرآنا عربيا ، لا لبس فيه ولا غموض.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾ تعليل لهذا الإيحاء. والمراد بأم القرى : أهلها.

وسميت مكة بأم القرى ، لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأنا وغيرها كالتبع لها ، كما يتبع الفرع الأصل ، أى : أوحينا إليك هذا القرآن لتنذر به أهل أم القرى ، ولتنذر به ـ أيضا ـ من حولها من أهل القرى الأخرى.

وخص أهل أم القرى ومن حولها بالذكر في الإنذار ، لأنهم أقرب الناس إليه صلى‌الله‌عليه‌وسلم كما قال ـ تعالى ـ في آية أخرى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

وليس معنى هذا التخصيص أن رسالته صلى‌الله‌عليه‌وسلم كانت إليهم وحدهم ، لأن هناك آيات أخرى كثيرة قد صرحت بأن رسالته صلى‌الله‌عليه‌وسلم كانت إلى الناس كافة ، ومن هذه الآيات : وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ وقوله ـ عزوجل ـ : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ

﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾.

فهذه الآيات وغيرها تنطق وتشهد بأن رسالته ﷺ كانت للناس جميعا ، بل للإنس وللجن ، كما يشير إلى ذلك قوله . تعالى . : ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.

وجملة ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ معطوفة على ما قبلها. والمراد بيوم الجمع : يوم القيامة ، لأنه اليوم الذي يجتمع فيه الأولون والآخرون بين يدي الله . تعالى . للحساب والجزاء ، والثواب والعقاب.

أى : أوحينا إليك هذا القرآن لتنذر به أهل مكة ومن حولها ، وتنذر الناس جميعا وتخوفهم من أهوال يوم القيامة ، الذي يجتمع فيه الخلائق للحساب.

وقوله : ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ كلام معترض لتقرير ما قبله وتأكيده ، أو صلة ليوم الجمع.

وقوله : ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ بيان للنتيجة التي ترتبت على هذا الإنذار.

أى : بعد هذا الإنذار الذي أنذرته للناس . أيها الرسول الكريم . هناك فريق آمن بك وصدقك فكان مصيره إلى الجنة ، وهناك فريق أعرض عنك وكذبك ، فكان مصيره إلى النار.

وقوله . تعالى . ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بيان لكمال قدرته . عزّوجلّ ..

أى : ولو شاء الله . تعالى . أن يجعل الناس أمة واحدة على الدين الحق لجعلهم كذلك ، لأن قدرته لا يعجزها شيء ، ولكنه . سبحانه . لم يشأ ذلك ليتميز الخبيث من الطيب ، والمهتدى من الضال.

أما المهتدون فهم أهل رحمته ورضوانه ، وأما الضالون فهم أهل عذابه وغضبه فقوله . تعالى . ﴿وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بيان لمن عرفوا الدين الحق واتبعوه وقوله . سبحانه . : ﴿وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ بيان لمن استحبوا العمى على الهدى.

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أى : أنه . تعالى . يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها ، ويدخل في عذابه من يشاء أن يدخله فيه ، ولا ريب في أن مشيئته . تعالى . لكل من الإدخالين ، تابعة لاستحقاق كل فريق لعمله.

وقال : ﴿وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ ولم يقل ويدخل من يشاء في عذابه ، للإيذان بأن الإدخال في العذاب ، بسبب سوء اختيار الداخلين فيه [1].

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١٤.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها ، وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى﴾ (٢).

ثم أنكر ـ سبحانه ـ على أولئك الجاهلين اتخاذهم آلهة من دونه فقال : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ، فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ ، وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فأم بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكارى ، لإنكار وقوع الشرك منهم ونفيه بأبلغ وجه.

أى : أن ما فعله هؤلاء المشركون من اتخاذهم آلهة من دونه ـ تعالى ـ شيء منكر بلغ النهاية في قبحه وفساده.

قال صاحب الكشاف : «معنى الهمزة في ﴿أَمِ﴾ الإنكار وقوله : ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أى : هو الذي يجب أن يتولى وحده ، ويعتقد أنه المولى والسيد ، فالفاء في قوله ﴿فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جواب شرط مقدر ، كأنه قيل بعد إنكار كل ولى سواه. أى : إن أرادوا وليا بحق ، فالله هو الولي بالحق ، لا ولى سواه (٣).

﴿وَهُوَ يُحْيِ﴾ الموتى أى : وهو ـ سبحانه ـ الذي في قدرته إعادة الحياة إلى الموتى بعد موتهم.

﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى : وهو ـ تعالى ـ وحده الذي لا يعجز قدرته شيء ، وما دام الأمر كذلك ، فكيف اتخذ أولئك الجاهلون أولياء من دونه.

ثم وجه ـ سبحانه ـ أمره إلى نبيه ﷺ ، بأن يرشد المؤمنين إلى وجوب تحاكمهم إلى شريعته ـ تعالى ـ إذا ما دب خلاف بينهم ، أو بينهم وبين أعدائهم ، فقال : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾.

أى : عليكم أيها المؤمنون ـ إذا ما اختلفتم في أمر من الأمور ، أن تحتكموا فيه الى شريعة الله ـ عزوجل ـ ، وأن تقبلوا عن إذعان وطاعة حكمه ـ تعالى ..

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ..﴾ (٤).

---

(١) سورة السجدة الآية ١٣.

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٥.

(٣) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢١١.

(٤) سورة النساء الآية ٥٩.

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - : ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ يعود إلى الله - تعالى - الذي يجب أن يكون التحاكم إليه وحده عند الاختلاف.

أى : ذلك الحاكم العادل الذي لا حاكم بحق سواه ﴿رَبِّي﴾ وخالقي ورازقي .. ﴿عَلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت في جميع شئونى ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى : وإليه وحده أرجع في كل أمورى.

﴿فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى هو خالقهما وموجدهما على غير مثال سابق ، من فطر الشيء إذا ابتدعه واخترعه دون أن يسبق إلى ذلك.

﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً﴾ أى : جعل لكم - سبحانه - بقدرته من جنس أنفسكم أزواجا ، أى : نساء تجمع بينكم وبينهن المودة والرحمة ، كما قال - تعالى - : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

وقوله - سبحانه - : ﴿وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً﴾ معطوف على ما قبله. أى : كما خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، خلق - أيضا - للأنعام من جنسها إناثا ، ليحصل التوالد والتناسل والتعمير لهذا الكون.

وقوله - تعالى - ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ بيان للحكمة من هذا الجعل والخلق للأزواج.

والذرء : التكاثر والبث. يقال : ذرأ فلان الشيء ، إذا بثه وكثره.

والضمير المنصوب في قوله ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يعود إلى المخاطبين وإلى الأنعام ، على سبيل التغليب للعقلاء على غيرهم.

والضمير في قوله ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى التزاوج بين الذكور والإناث المفهوم من قوله - تعالى - : ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً﴾.

أى : يكثركم وينميكم بسبب هذا التزاوج الذي يحصل بين ذكوركم وإناثكم حيث يتناسل - أحيانا - بين الذكر الواحد والأنثى الواحدة ، عدد كبير من الأولاد.

وقال - سبحانه - ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ ولم يقل يذرؤكم به أى : بسببه ، للأشعار بأن هذا التزاوج قد صار مثل المنبع والأصل للبث والتكثير.

قال - تعالى - : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها ، وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً﴾.

قال بعض العلماء : فإن قيل : ما وجه إفراد الضمير المجرور في قوله ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾

مع

أنه على ما ذكرتم ، يعود إلى الذكور والإناث من الآدميين والأنعام؟.

فالجواب : أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن ، رجوع الضمير بصيغة الإفراد إلى المثنى أو الجمع باعتبار ما ذكر.

ومنه قوله . تعالى . : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ ، مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أى : يأتيكم بما ذكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم (١).

ثم نزه . سبحانه . ذاته عن الشبيه أو النظير .. فقال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

أى : ليس مثله شيء . تعالى . : لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فالكاف مزيدة في خبر ﴿لَيْسَ﴾ و ﴿شَيْءٌ﴾ اسمها. أى : ليس شيء مثله.

أو أن الكاف أصلية. فيكون المعنى : ليس مثله . تعالى . أحد لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال.

وذلك كقول العرب : مثلك لا يبخل ، يعنون : أنت لا تبخل على سبيل الكناية ، قصدا إلى المبالغة في نفى البخل عن المخاطب بنفيه عن مثله ، فيثبت انتفاؤه عنه بدليله.

والمقصود من الجملة الكريمة على كل تفسير : تنزيهه . تعالى . عن مشابهة خلقه في الذات أو الصفات أو الأفعال.

قال صاحب الكشاف : قالوا : مثلك لا يبخل ، فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده ، وعمن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه.

ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الذمم ، كان أبلغ من قولك : أنت لا تخفر .. (٢).

وقوله . تعالى . : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أى : وهو . سبحانه . السميع لكل أقوال خلقه ، البصير بما يسرونه وما يعلنونه من أفعال.

﴿لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : له وحده مفاتيح خزائنهما ، وله وحده . أيضا . ملك هذه الخزائن ، لأن ملك مفاتيحها يستلزم ملكها.

والمقاليد : جمع مقلاد أو إقليد وهو المفتاح.

---

(١) تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ١٧٥.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢١٢.

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى : هو . سبحانه . الذي يوسع الرزق لمن شاء أن يوسعه له ، ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه.

﴿إِنَّهُ﴾ . تعالى . : ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد أقامت أوضح الأدلة وأقواها ، على وحدانية الله . تعالى . وكمال قدرته.

ثم أكد . سبحانه . الحقيقة التي افتتحت بها السورة الكريمة ، وهي وحدة الأديان في جوهرها وأصولها ، وبين الأسباب التي أدت إلى اختلاف الناس في عقائدهم ، وأرشد النبي ﷺ إلى أفضل الأساليب في الدعوة إلى الحق ، فقال . تعالى . :

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦)

قال الفخر الرازي : أعلم أنه ـ تعالى ـ لما عظم وحيه إلى نبيه محمد ﷺ بقوله : ﴿كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك فقال : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً ..﴾.

أى : شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحا ومحمدا وإبراهيم وموسى وعيسى .. وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر ، لأنهم أكابر الأنبياء ، وأصحاب الشرائع العظيمة ، والأتباع الكثيرة [1].

والمراد بما شرعه ـ سبحانه ـ على ألسنة هؤلاء الرسل : أصول الأديان التي لا يختلف فيها دين عن دين ، أو شريعة عن شريعة ، كإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ والإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر ، والتحلي بمكارم الأخلاق كالصدق والعفاف.

أما ما يتعلق بفروع الشرائع ، كتحليل بعض الطيبات لقوم على سبيل التيسير لهم ، وتحريمها على قوم على سبيل العقوبة لهم فهذا لا يدخل في الأصول الثابتة في جميع الأديان ، وإنما يختلف باختلاف الظروف والأحوال.

ويؤيد ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾ [2].

وقوله ـ سبحانه ـ حكاية عن عيسى ـ عليه‌السلام ـ ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [3].

والمعنى : سن الله ـ تعالى ـ لكم ـ يا أمة محمد ﷺ من العقائد ومكارم الأخلاق ، ما سنه لنوح ـ عليه‌السلام ـ الذي هو أول أولى العزم من الرسل ، وأول أصحاب الشرائع الجامعة.

وشرع الله ـ تعالى ـ لكم ـ أيضا ما أوحاه إلى نبيه محمد ﷺ من آداب وأحكام وأوامر ونواه.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٢٨٢.

(٢) سورة المائدة الآية ٤٨.

(٣) سورة آل عمران الآية ٥٠.

وشرع لكم كذلك ما وصى به ـ سبحانه ـ أنبياءه : إبراهيم وموسى وعيسى ، من وصايا تتعلق بوجوب طاعة الله ـ تعالى ـ ، وإخلاص العبادة له ، والبعد عن كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ تفصيل وتوضيح لما شرعه ـ سبحانه ـ لهؤلاء الكرام ، ولما أوصاهم به.

والمراد بإقامة الدين : التزام أوامره ونواهيه ، وطاعة الرسل في كل ما جاءوا به من عند ربهم طاعة تامة.

قال صاحب الكشاف : والمراد : إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله ـ تعالى ـ وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه ، وبيوم الجزاء ، وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما ، ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة. قال الله تعالى ـ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾.

ومحل ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾ إما النصب على أنه بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه ، وإما الرفع على الاستئناف ، كأنه قيل : وما ذلك المشروع؟ فقيل : هو إقامة الدين. [1].

أى : أوصاكم كما أوصى من قبلكم بالمحافظة على ما اشتمل عليه دين الإسلام من عقائد وأحكام وآداب .. وأصول أجمعت عليها جميع الشرائع الإلهية ، كما أوصاكم بعدم الاختلاف في أحكامه التي لا تقبل الاختلاف أو التفرق.

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف المشركين من الدين الحق فقال : ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

أى : شق وعظم على المشركين دعوتكم إياهم إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ ، وإلى ترك ما ألفوه من شرك ، ومن تقاليد فاسدة ورثوها عن آبائهم.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ بيان لكمال قدرته ـ تعالى ـ ونفاذ مشيئته. والاجتباء : الاصطفاء والاختيار. أى : الله ـ تعالى ـ بإرادته وحكمته يصطفى ويختار لرسالته من يشاء من عباده ، ويهدى إلى الحق من ينيب إليه ، ويرجع إلى طاعته ـ عزوجل ـ ويقبل على عبادته.

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التي أدت إلى اختلاف المختلفين في أمر الدين ، وإلى تفرقهم شيعا وأحزابا فقال. ﴿وَما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢١٥.

والاستثناء مفرغ من أعم الأوقات والأحوال والضمير في قوله ﴿تَفَرَّقُوا﴾ يعود على كل الذين اختلفوا على أنبيائهم ، وأعرضوا عن دعوتهم.

وقوله ﴿بَغْياً﴾ مفعول لأجله ، مبين السبب الحقيقي للتفرق والاختلاف.

أى : وما تفرق المتفرقون في أمر الدين. وأعرضوا عما جاءتهم به رسلهم ، في كل زمان ومكان ، إلا من بعد أن علموا الحق ، ووصل إليهم عن طريق أنبيائهم ، ولم يحملهم على هذا التفرق والاختلاف إلا البغي الذي استولى على نفوسهم ، والحسد لرسل الله ـ تعالى ـ على ما آتاهم الله من فضله.

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ زيادة في ذمهم ، فإن الاختلاف بعد العلم ، أدعى إلى الذم والتحقير ، لأنه يدل على أن هذا الاختلاف لم يكن عن جهل ، وإنما كان عن علم وإصرار على الباطل.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ زيادة أخرى تحمل كل عاقل على احتقارهم ونبذهم ، لأن هذه الجملة الكريمة تدل على أن اختلافهم لم يكن من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما كان الدافع إليه ، البغي والحسد والعناد.

أى : أن اختلافهم على أنبيائهم كان الدافع إليه الظلم وتجاوز الحد ، والحرص على شهوات الدنيا ولذائذها ، والخوف على ضياع شيء منها من بين أيديهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مظاهر فضله ورحمته بهذه الأمة فقال : ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

والمراد بهذه الكلمة : ما وعد الله ـ تعالى ـ : نبيه ﷺ من أنه لن يهلك أمته بعذاب يستأصل شأفتهم ، كما أهلك قوم نوح وغيرهم ، ومن أنه ـ تعالى ـ سيؤخر عذابهم إلى الوقت الذي يختاره ويشاؤه ـ سبحانه ..

أى : ولو لا كلمة سبقت من ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ ، بعدم إهلاكهم بعقوبة تستأصل شأفتهم ، وبتأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى في علمه ـ تعالى ـ لقضى بينهم بقطع دابرهم بسبب هذا الاختلاف الذي أدى بهم إلى الإعراض عن دعوتك ، وإلى عكوفهم على كفرهم.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ﴾ وهم أهل الكتاب المعاصرين لك من اليهود والنصارى ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى : من بعد الذين سبقوهم في الاختلاف على أنبيائهم.

﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أى : لفي شك من هذا القرآن. ومن كل ما جئتهم به من عند

ربك ، هذا الشك أوقعهم في الريبة وقلق النفس واضطرابها وتذبذبها ، ولذلك لم يؤمنوا بما جئتهم به من عند ربك.

ثم حض . سبحانه . نبيه ﷺ على المضي في دعوته فقال : ﴿فَلِذلِكَ فَادْعُ﴾.

واسم الإشارة يعود إلى ما سبق الحديث عنه من ذم التفرق ، ومن الأمر بإقامة الدين ، أى : فلأجل ما أمرناك به من دعوة الناس إلى إقامة الدين وإلى النهى عن الاختلاف والتفرق ، من أجل ذلك فادع الناس إلى الحق الذي بعثناك به ، وإلى جمعهم على كلمة التوحيد ، التي تجعلهم يعيشون حياتهم آمنين مطمئنين.

﴿وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ﴾ أى : واستقم على الصراط الذي كلفناك بالسير على نهجه ، والزم المنهج القويم الذي أمرناك بالتزامه.

﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ﴾ أى : ولا تتبع شيئا من أهواء هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا.

﴿وَقُلْ﴾ لهم بكل ثبات وقوة ﴿آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ﴾ أى : آمنت بكل ما أنزله . تعالى . من كتب سماوية. فالمراد بالكتاب : جنسه.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أى : وأمرنى ربي أن أعدل بينكم في الحكم عند رفع قضاياكم إليّ ، فإن العدل شريعة الله تعالى.

﴿اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ﴾ أى : الله . تعالى . وحده هو الخالق لنا ولكم ، وهو المنعم علينا وعليكم بالنعم التي لا تحصى.

﴿لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ﴾ أى : لنا أعمالنا التي سيحاسبنا الله عليها يوم القيامة ، ولكم أنتم أعمالكم التي ستحاسبون عليها ، فنحن لا نسأل عن أعمالكم وأنتم لا تسألون عن أعمالنا.

﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ﴾ أى : لا احتجاج ولا خصومة بيننا وبينكم ، لأن الحق قد ظهر ، فلم يبق للجدال أو الخصام حاجة بيننا وبينكم.

﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى. الله . تعالى . يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة ، وإليه وحده ، مصيرنا ومصيركم ، وسيجازى كل فريق منا ومنكم بما يستحقه من جزاء.

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على عشر جمل ، هذه الجمل الكريمة قد جاءت بأسمى ألوان الدعوة إلى الله . تعالى . بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثم بين . سبحانه . سوء عاقبة الذين يجادلون بالباطل فقال : ﴿وَالَّذِينَ يُحاجُّونَ فِي اللهِ

﴿مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ ، حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

وقوله : ﴿داحِضَةٌ﴾ من الدحض بمعنى الزلل والزوال. وأصله : الطين الذي لا تستقر عليه الأقدام. يقال : دحضت رجل فلان ، إذا زلت وزلقت.

أى : والذين يخاصمون في الله. أى : في دينه وشريعته ، ﴿مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أى : من بعد أن استجاب العقلاء من الناس لهذا الدين الحق ، واتبعوا رسوله.

﴿حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى : حجة هؤلاء المجادلين بالباطل ، زائلة وزاهقة ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لا يقادر قدره من ربهم ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ يوم القيامة.

ثم بين ـ سبحانه ـ حال الكافرين والمؤمنين بالنسبة ليوم القيامة ، كما بين جانبا من فضله على عباده ، ومن رحمته بهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨) اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠)

والمراد بالكتاب في قوله ـ تعالى ـ : ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ﴾ جنسه أى : جميع الكتب السماوية التي أنزلها على أنبيائه.

والمراد بالميزان : العدل والقسط الذي تضمنته شريعته ـ عزّ وجلّ ـ ، وأمر الناس بإقامته بينهم في أمور معاشهم.

وتسمية العدل بالميزان من باب تسمية الشيء باسم آلته ، لأن الميزان آلة الإنصاف والقسط بين الناس في معاملاتهم.

قال ـ تعالى ـ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (١).

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿الرَّحْمنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ. الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ. وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ. وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ﴾.

أى : الله ـ تعالى ـ هو وحده الذي أنزل جميع الكتب السماوية لهداية الناس ومنفعتهم ، وقد أنزلها ـ سبحانه ـ ملتبسة بالحق الذي لا يحوم حوله باطل ، وأنزل كذلك شريعته العادلة ليتحاكم إليها الناس في قضاياهم ومعاملاتهم.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ إرشاد إلى أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ.

أى : إن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ وحده ، وأى شيء يجعلك عالما بوقتها إذا كان مرد علمها إلى الله وحده ، ومع ذلك لعل وقت قيامها قريب.

وقال : ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يقل قريبة ، لأن تأنيث الساعة غير حقيقى ، أو لأن لفظ فعيل يستوي فيه المذكر والمؤنث ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ ، وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ (٢).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها ..﴾ بيان لموقف الكافرين والمؤمنين من الساعة.

أى : يستعجل الكافرون قيام الساعة ، استعجال استهزاء واستخفاف لجهلهم وانطماس بصائرهم ، أما الذين آمنوا بالله واليوم الآخر. فهم خائفون مشفقون من قيامها ، لما فيها من أهوال وحساب وثواب وعقاب ، ولأنهم لا يدرون ما الذي سيفعله الله ـ تعالى ـ بهم.

فقوله ـ تعالى ـ ﴿مُشْفِقُونَ﴾ من الإشفاق ، وهو عناية مشوبة بخوف ، لأن المشفق

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٥.

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٦٣.

يحب المشفق عليه ، ويخاف ما يلحقه. فإذا عدى بحرف «من» فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدى بحرف «في» فمعنى العناية فيه أظهر.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ تأكيد لإيمان المؤمنين بها ، ومدح لهم على هذا الإيمان.

أى : أن المؤمنين وجلون من الساعة لما فيها من حساب .. ومع ذلك فهم لصدق يقينهم يعتقدون أنها آتية لا ريب فيها ، ويستعدون لاستقبالها بالإيمان العميق ، وبالعمل الصالح الذي يرضى الله ـ تعالى ..

ثم وبخ ـ سبحانه ـ الذين يشكون في البعث والنشور فقال : ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾.

وقوله : ﴿يُمارُونَ﴾ من المماراة بمعنى المجادلة والمخاصمة. يقال : مارى فلان في الشيء يمارى مراء ومماراة ، إذا خاصم وجادل.

أى : ألا إن الذين يخاصمون في قيام الساعة خصام شك وريبة ، لفي ضلال بعيد عن الحق ، وفي ذهول شديد عن الصواب ، لأن قدرة الله ـ تعالى ـ لا يعجزها شيء ، ولأن حكمته قد اقتضت أن يجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه رءوف رحيم بعباده فقال : ﴿اللهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ﴾ أى : حفى بهم ، عطوف عليهم ، يفيض عليهم جميعا من صنوف بره ما لا تحصيه العقول ، ومن مظاهر ذلك أنه لا يعاجلهم بالعقوبة ، مع مجاهرتهم بمعصيته ، وأنه يرزقهم جميعا مع أن أكثرهم لا يشكرونه على نعمه.

وقوله ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ﴾ أى : يبسط رزقه ويوسعه لمن يشاء من خلقه ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أى : وهو العظيم القوة الغالب على كل من سواه.

ثم حكى ـ تعالى ـ سنته التي لا تتخلف فقال : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾.

والحرث في الأصل : مصدر بمعنى إلقاء البذور في الأرض ، لتنبت ما ينفع الناس من زرع.

والمراد به ثمرات الأعمال ونتائجها ، تشبيها لها بثمرات البذور.

والمعنى : من كان يريد من الناس بأعماله ثواب الآخرة ، ورضا الله ـ تعالى ـ ضاعف الله ـ عزّ وجلّ ـ له الأجر والثواب والعطاء.

﴿وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا﴾ أى : ومن كان يريد بعمله شهوات الدنيا نؤته منها ،

ما قدرناه له من حطامها وزخارفها.

﴿وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أى : وليس له في الآخرة نصيب من خيراتها الباقية ، ونعيمها الدائم.

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله ـ تعالى ـ : ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً. وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً. كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ ، وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [1].

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى توبيخ المشركين على إصرارهم على كفرهم ، وقارنت بين مصيرهم السيئ ، وبين المصير الطيب الذي وعد الله به المؤمنين .. فقال ـ تعالى ـ :

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٤)

---

(١) سورة الإسراء الآيات من ٢٨ ، ٣١.

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ﴾ أي : ألهم ، والميم صلة الهمزة للتقريع.

وهذا متصل بقوله : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ وقوله ـ تعالى ـ : ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ﴾. كانوا لا يؤمنون به ، فهل لهم آلهة شرعوا لهم الشرك الذي لم يأذن به الله؟ وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشرك ، فمن أين يدينون به [1].

فالآية الكريمة تنكر عليهم شركهم بأبلغ أسلوب ، وتؤنبهم على جهالتهم حيث أشركوا بالله ـ تعالى ـ : دون أن يكون عندهم دليل أو ما يشبه الدليل على صحة ما وقعوا فيه من باطل.

والمراد بكلمة الفصل في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ما تفضل به ـ سبحانه ـ من تأخير العذاب الماحق عنهم.

أي : ولو لا حكمنا بتأخير العذاب عنهم ـ فضلا منا وكرما ـ لقضى الأمر بين هؤلاء الكافرين وبين المؤمنين ، بأن أهلكنا الكافرين واستأصلنا شأفتهم في الدنيا ، ولكن شاء ربك أن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ، بسبب إصرارهم على ظلمهم وموتهم على الكفر والشرك.

ثم صور ـ سبحانه ـ أحوالهم السيئة يوم القيامة تصويرا مؤثرا فقال : ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ﴾.

أي : ترى ـ أيها العاقل ـ هؤلاء الظالمين يوم القيامة ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي خائفين خوفا شديدا ، بسبب ما اكتسبوه في الدنيا من سيئات على رأسها الكفر ، وهذا الذعر الشديد لن ينفعهم ، فإن العذاب واقع بهم لا محالة ، سواء أخافوا أم لم يخافوا.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ..﴾ بيان للثواب العظيم الذي أعده الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين.

والروضات : جمع روضة ، وهو أشرف بقاع الجنة وأطيبها وأعلاها.

أي : هذا هو مصير الظالمين يوم القيامة ، أما الذين آمنوا وعملوا في دنياهم الأعمال

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ١٩.

الصالحات ، فهم يوم القيامة يكونون في أشرف بقاع الجنات وأطيبها وأسماها منزلة ، حالة كونهم لهم ما يشاءون من خيرات عند ربهم.

﴿ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى : الذي أعطيناه للمؤمنين من خيرات ، هو الفضل الكبير الذي لا يعادله فضل ، ولا يماثله كرم.

واسم الإشارة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾.

أى : ذلك الفضل الكبير ، هو البشارة العظمى ؛ والعطاء الجزيل ، الذي يمنحه الله ـ تعالى ـ يوم القيامة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

قال الآلوسى قوله : ﴿ذلِكَ﴾ أى : الفضل الكبير ، أو الثواب المفهوم من السياق ، هو ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ أى : يبشر به فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول ، كما هو عادتهم في التدريج في الحذف ولا مانع من حذفهما دفعة. وجوز كون ﴿ذلِكَ﴾ إشارة إلى التبشير المفهوم من «يبشر» .. أى : ذلك التبشير يبشره الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات [1].

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه صلى‌الله‌عليه‌وسلم أن يؤكد لأولئك المشركين من قومه ، أنه لا يسألهم أجرا على دعوته ، وإنما يسألهم المودة والمعاملة الحسنة لقرابته منهم فقال : ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾.

والضمير المجرور في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود إلى التبليغ والتبشير والإنذار الذي يفعله الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم معهم و ﴿الْقُرْبى﴾ مصدر كالقرابة والخطاب لكفار قريش.

وللعلماء في تفسير هذه الآية أقوال : أولها : أن المراد بالقربى : الصلة والقرابة التي تربط بين الرسول وبين كفار قريش.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الكافرين إنى لا أسألكم على التبليغ أجرا ، لكن أسألكم أن تؤدوا لقرابتي فيكم ، فتكفوا عن أذاكم ، وتمنعوا عن أذى غيركم ، وتستجيبوا لدعوتى ، فإن صلة القرابة والرحم التي بيني وبينكم توجب عليكم ذلك.

فالقربى هنا : بمعنى القرابة وصلة الرحم. و ﴿فِي﴾ للسببية بمعنى لام التعليل كما جاء في الحديث الشريف : «دخلت امرأة النار في هرة».

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ٣٠.

ولا شك أن منع أذاهم عنه ﷺ بسبب قرابته فيهم ليس أجرا.

وثانيها : أن المراد بالقربى هنا : أقاربه وعشيرته وعترته فيكون المعنى لا أسألكم أجرا على دعوتي لكم إلى الخير والحق ، ولكن أسألكم أن تحفظوني في قرابتي وأهل بيتي ، بأن تحسنوا إليهم ولا تؤذوهم بأى نوع من الأذى.

ولا شك ـ أيضا ـ أن إحسانهم إلى أقاربه ، ليس أجرا منهم له على ذلك لأن الإحسان إلى الناس ، شيء قررته جميع الشرائع وتقتضيه مكارم الأخلاق.

وثالثها : أن المراد بالقربى هنا : التقرب إلى الله ـ تعالى ـ بالإيمان والعمل الصالح.

أى : لا أسألكم على التبليغ أجرا ، ولكن أسألكم أن تتقربوا إلى الله ـ تعالى ـ بما يرضيه بأن تتركوا الكفر والفسوق والعصيان ، وتدخلوا في الإيمان والطاعة لله ـ تعالى ..

وهذا الذي طلبه منهم ، ليس أجرا على التبليغ ، لأن التقرب إلى الله بالطاعات فرض عليهم. وقد رجح العلماء القول الأول ، واستدلوا على هذا الترجيح بأحاديث منها : ما رواه البخاري عن ابن عباس أنه سئل عن معنى قوله ـ تعالى ـ ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ ، فقال سعيد بن جبير : «قربى آل محمد» فقال ابن عباس : عجلت. إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة. فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

وقال ابن كثير بعد أن ساق هذا الحديث وغيره ، وبهذا الرأى قال مجاهد وعكرمة ، وقتادة ، والسدى ، وأبو مالك ، وعبد الرحمن بن زيد ، وغيرهم [1].

وقال الإمام ابن جرير ـ بعد أن ساق هذه الأقوال ـ وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، وأشبهها بظاهر التنزيل ، قول من قال معناه : لا أسألكم عليه أجرا يا معشر قريش ، إلا أن تودوني في قرابتي منكم ، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم.

وإنما قلت هذا التأويل أولى بتأويل الآية ، لدخول ﴿فِي﴾ في قوله : ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾.

ولو كان معنى ذلك على ما قاله من قال إلا أن تودوا قرابتي ، أو تتقربوا إلى الله ، لم يكن لدخول ﴿فِي﴾ في الكلام في هذا الموضع وجه معروف ولكان التنزيل إلا مودة القربى ، إن عنى به الأمر بمودة قرابة رسول الله ﷺ أو إلا المودة بالقربى إن عنى به الأمر بالتودد والتقرب إلى الله ـ تعالى ..

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٨٧.

وفي دخول ﴿فِي﴾ في الكلام أوضح الدليل على أن معناه إلا مودتي في قرابتي منكم [(١)].

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر فضله على عباده فقال : ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

وقوله ﴿يَقْتَرِفْ﴾ من القرف بفتح القاف وإسكان الراء. بمعنى الكسب ، يقال : فلان يقرف لعياله ، أى : يكسب لهم ما يكفيهم لأمور معاشهم.

ومن يكتسب حسنة يبغى بها التقرب إلى الله تعالى ، نضاعف له ـ بفضلنا وإحساننا ـ ثوابها ، إن الله تعالى واسع المغفرة لعباده. كثير الشكر للطائعين بأن يعطيهم من فضله أكثر مما يستحقون ويرجون.

ثم عادت السورة إلى توبيخ الكافرين على كذبهم وعنادهم ، فقال تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾.

أى : بل أيقولون إن محمدا صلى‌الله‌عليه‌وسلم قد افترى على الله ـ تعالى ـ كذبا فيما يدعونا إليه ، وفيما يتلوه علينا من قرآن؟

ثم أجاب ـ سبحانه ـ عن افترائهم هذا بقوله : ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ﴾ أى : فإن يشأ الله ـ تعالى ـ يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترى عليه الكذب ، لأن افتراء الكذب على الله لا يكون إلا ممن طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وأنت أيها الرسول الكريم مبرأ ومنزه عن ذلك.

فالمقصود من الجملة الكريمة تنزيه ساحة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم عما قاله المشركون في شأنه ، وإثبات أن افتراء الكذب. إنما هو من شأنهم لا من شأنه صلى‌الله‌عليه‌وسلم.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ﴾ أى : فإن يشأ الله ـ تعالى ـ يجعلك من المختوم على قلوبهم ، حتى تفترى عليه الكذب ، فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم.

وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وأنه في البعد مثل الشرك بالله ، والدخول في جملة المختوم على قلوبهم ومثال هذا : أن يخوّن بعض الأمناء فيقول : لعل الله خذلنى ، لعل الله أعمى قلبي ، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب ، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم. [(٢)].

---

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٥ ص ١٧.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٢٣.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْباطِلَ ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ : كلام مستأنف غير داخل في جواب الشرط ، لأنه ـ تعالى ـ يمحو الباطل مطلقا ، وسقطت الواو من الفعل ﴿يَمْحُ﴾ لفظا لالتقاء الساكنين ، وخطا حملا له على اللفظ ، كما كتبوا ﴿سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ﴾ فهو مرفوع لا مجزوم ، ويؤيده عطف ﴿وَيُحِقُ﴾ المرفوع عليه.

أى : من شأن الله ـ تعالى ـ أن يمحو الباطل ، وأن يثبت الحق بكلماته الفاصلة ، وقضائه العادل ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾.

﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ـ ﴿عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ أى : مطلع على ما تخفيه الصدور من أسرار ونوايا ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر.

ثم تحدثت السورة الكريمة عن دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ، وعن آثار القدرة فيما يحيط بالناس ، وفيما يتعلق بحياتهم ومعاشهم ، وفيما يتعلق بمظاهر لطفه بهم ، وفضله عليهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما

كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦)

قال الجمل في حاشيته : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ قال ابن عباس : يريد أولياءه وأهل طاعته. والتوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كان معصية بين العبد وربه فلها ثلاثة شروط : الإقلاع عن المعصية ، والندم على فعلها ، والعزم على عدم العودة إليها.

وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي ، أضيف إلى ذلك : أن يبرأ من حق صاحبها .. [1] والمعنى : وهو ـ سبحانه ـ وحده الذي يقبل التوبة من عباده التائبين إليه ، شفقة عليهم ، ورحمة بهم ، بأن يكفر سيئاتهم ، ولا يعاقبهم عليها.

والقبول يعدى بعن ، لتضمنه معنى الإبانة والقطع ، ويعدى بمن لتضمنه معنى الأخذ كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ﴾.

وعدى بعن هنا للإشارة إلى تجاوزه سبحانه عن خطايا عباده.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ﴾ تأكيد لما قبله وتقرير له أى : أنه عزوجل يقبل التوبة من عباده التائبين ، وفضلا عن ذلك ، يعفو عن سيئاتهم ، ويسترها عليهم ، بل

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٦٣.

ويحولها ـ بفضله إلى حسنات ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ﴾.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ تحذير من التمادي في تأخير التوبة ، وفي اقتراف ما نهى عنه ، فكأنه ـ تعالى ـ يقول : لقد فتحت لكم باب التوبة والعفو ، فأقبلوا على طاعتي ، واتركوا معصيتي ، فإني عليم بما تفعلونه من خير أو شر ، وسأجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

و ﴿ما﴾ في قوله ﴿وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ موصولة ، والعائد محذوف. أى : ويعلم الذي تفعلونه دون أن يخفى عليه ـ تعالى ـ شيء منه.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ..﴾ معطوف على قوله : ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾.

أى : ويستجيب سبحانه من الذين آمنوا دعاءهم ، ويزيدهم من فضله وإحسانه ، بأن يعطيهم من النعم والخيرات أكثر مما سألوا.

قال الآلوسى ما ملخصه : والموصول مفعول بدون تقدير شيء ، بناء على أن ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ يتعدى بنفسه ، كما يتعدى باللام ، نحو شكرته وشكرت له ، أو بتقدير اللام على أنه من باب الحذف والإيصال ، والأصل : ويستجيب للذين آمنوا .. [1].

﴿وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ أى : هذا هو حال المؤمنين يجيب لهم ـ سبحانه ـ دعاءهم ، ويزيدهم من فضله وإحسانه .. أما الكافرون الذين ستروا نعمه ، وجحدوا فضله ، فلهم عذاب شديد لا يعلم مقداره إلا هو ـ سبحانه ..

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا مما اقتضته حكمته في تدبير أمور عباده فقال : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ﴾.

والبغي : تجاوز الحد في كل شيء يقال : بغى الجرح ، إذا أظهر ما يداخله من دم أو غيره.

وبغى القوم ، إذا تجاوزوا حدودهم في العدوان على غيرهم.

أى : ولو بسط الله ـ تعالى ـ الرزق لعباده ، بأن وسعه عليهم جميعا توسعة فوق حاجتهم ، ﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أى : لتجاوزوا حدودهم ، ولتكبروا فيها ، ولطغوا وعتوا وتركوا الشكر لنا ، وقالوا ما قاله قارون : ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ٣٧.

وقوله : ﴿وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ﴾ بيان لما اقتضته حكمته . تعالى . أى : أن حكمته . تعالى . قد اقتضت عدم التوسعة في الرزق لجميع عباده ، لأن هذه التوسعة تحملهم على التكبر والغرور والبطر ، لذا أنزل الله . تعالى . لهم الرزق بتقدير محدد اقتضته حكمته ومشيئته ، كما قال . سبحانه . : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾.

وقوله . تعالى . : ﴿إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ تعليل لتنزيله الرزق على عباده بتقدير وتحديد دقيق.

أى : فعل ما فعل . سبحانه . من إنزال الرزق على عباده بقدر ، لأنه . تعالى . خبير بخفايا أحوال عباده ، وبطوايا نفوسهم ، بصير بما يقولونه وبما يفعلونه.

قال صاحب الكشاف : أى أنه . تعالى . يعلم ما يؤول إليه حالهم ، فيقدر لهم ما هو أصلح لهم ، وأقرب إلى جمع شملهم ، فيفقر ويغنى ، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط ، كما توجبه الحكمة الربانية ، ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا.

ولا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل ، ومع البسط أكثر وأغلب ، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه ، فلو عم البسط ، لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما هو عليه الآن (١).

ثم ساق . سبحانه . بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده ، وكلها تدل على وحدانيته وكمال قدرته فقال . تعالى . : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا﴾.

أى : وهو . سبحانه . الذي ينزل المطر على عباده ، من بعد أن انتظروه فترة طويلة حتى ظهرت على ملامحهم علامات اليأس ، وبدأت على وجوههم أمارات القنوط.

وقوله . تعالى . : ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ معطوف على ﴿يُنَزِّلُ﴾. أى : ينزل الأمطار بعد يأس الناس من نزولها ، وينشر رحمته عليهم عن طريق ما ينتج عن هذه الأمطار من خيرات وبركات وأرزاق.

﴿وَهُوَ﴾ . سبحانه . ﴿الْوَلِيُ﴾ أى : الذي يتولى عباده برحمته وإحسانه ﴿الْحَمِيدُ﴾ أى : المحمود على فعله ، حيث أنزل على عباده الغيث بعد أن يئسوا منه ، والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها تصور جانبا من فضل الله على عباده بطريقة محسوسة ، فالتعبير بالغيث يشعر بالغوث والنجدة بعد أن فقد الناس الأمل في ذلك ، والتعبير بالقنوط

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٢٤.

يشعر بأن آثار الضيق قد ظهرت على وجوههم ، والتعبير بقوله ـ تعالى ـ ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ ، يشعر بانتشار الرجاء والفرح والانشراح على الوجوه بعد أن حل بها القنوط.

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يشعر بقرب الله ـ تعالى ـ من عباده ، وبوجوب شكره على ما أعطى بعد المنع ، وعلى ما فرج بعد الضيق.

ثم بين ـ سبحانه ـ لونا آخر من ألوان كمال قدرته فقال : ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ﴾.

والمراد بالآيات هنا : الدلائل والعلامات الواضحة الدالة على كمال قدرته ـ عزّ وجلّ ـ.

وقوله : ﴿وَما بَثَ﴾ معطوف على ﴿خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أى : ومن العلامات الناصعة الدالة على كمال قدرته ـ تعالى ـ خلقه للسموات وللأرض بتلك الصورة الباهرة البديعة التي نشاهدها بأعيننا ، وخلقه ـ أيضا ـ لما بث فيهما من دابة ، ولما نشر وفرق فيهما من دواب لا يعلم عددها إلا الله ـ تعالى ـ.

والدابة : اسم لكل ما يدب على وجه الأرض أو غيرها. وظاهر الآية الكريمة يفيد وجود دواب في السموات.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال : ﴿فِيهِما مِنْ دابَّةٍ﴾ والدواب في الأرض وحدها؟.

قلت : يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان متلبسا ببعضه كما يقال : بنو تميم فيهم شاعر مجيد ، أو شجاع بطل ، وإنما هو في فخذ من أفخاذهم.

ويجوز أن يكون للملائكة ـ عليهم‌السلام ـ مشى مع الطيران ، فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسى ، ولا يبعد أن يخلق ـ سبحانه ـ في السموات حيوانا يمشى فيها مشى الأناسى على الأرض ، سبحان الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق.[1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ﴾ بيان لكمال قدرته ـ عزّ وجلّ ـ.

أى : وهو ـ سبحانه ـ قادر قدرة تامة على جمع الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء. كما قال ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٥٥.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن ما يصيب الناس من بلاء إنما هو بسبب أعمالهم فقال : ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾.

أى : وما أصابكم ـ أيها الناس ـ من بلاء ، كمرض وخوف وفقر فإنما هو بسبب ما اكتسبتموه من ذنوب ، وما اقترفتموه من خطايا ، ويعفو ـ سبحانه ـ عن كثير من السيئات التي ارتكبتموها ، فلا يحاسبكم عليها رحمة منه بكم.

قال ـ تعالى ـ ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ ..﴾ [(١)].

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث والآثار منها ما رواه ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله ، وحدثنا بها رسول ﷺ قال :

﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وسأفسرها لك يا على : ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا ، فبما كسبت أيديكم ، والله ـ تعالى ـ أحلم من أن يثنى عليه العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه» [(٢)].

ثم حذر ـ سبحانه ـ الناس من عقابه فقال : ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

أى : وما أنتم ـ أيها الناس ـ بقادرين على الهرب منا في أى مكان من الأرض أو في غيرها ، لأن قدرتنا لا يعجزها أن تأتى بكم من أى مكان كنتم فيه ، وليس لكم غير الله ـ تعالى ـ من ولى يتولى أموركم ، أو نصير يدفع عنكم عذابه.

قال ـ تعالى ـ : ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من دلائل قدرته عن طريق ما يشاهده الناس في البحر ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ﴾.

والجوار : جمع جارية والمراد بها السفينة لأنها تجرى في البحر ، وهي صفة لموصوف محذوف.

والأعلام : جمع علم وهو الجبل الكبير ، وأصله الأثر الذي يعلم به الشيء كعلم الطريق ، وعلم الجيش ، وسمى علما لأن الناس يسترشدون به في سيرهم.

---

(١) سورة فاطر الآية ٤٥.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٩٥.

أى : ومن آياته - سبحانه - الدالة على كمال قدرته ، هذه السفن الجارية في البحر ، حتى لكأنها من ضخامتها وعظمها الجبال الشاهقة.

﴿إِنْ يَشَأْ﴾ - سبحانه - ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ التي بسببها تجرى السفن في البحار ﴿فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ﴾ أى : فيصرن ثوابت على ظهر البحر لا يجرين. يقال : ركد الماء ركودا - من باب قعد - إذا سكن ، فهو راكد. وكل شيء ثابت في مكانه فهو راكد.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ الذي ذكرناه لكم من السفن المسخرة في البحر بأمره - تعالى - ﴿لَآياتٍ﴾ عظيمات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أى : لكل إنسان قد تحلى بصفتى الصبر والشكر لله - تعالى - ، حتى صارتا هاتان الصفتان سجية من سجاياه .. ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا﴾ أى أو يهلكهن ويغرقهن بسبب ما اكتسبه الراكبون في هذه السفن من ذنوب وخطايا.

يقال : أوبق فلان فلانا إذا حبسه أو أهلكه. ووبق فلان -كوعد ووجل ، وبوقا إذا هلك.

وهو معطوف على قوله «يسكن» وكذلك قوله «ويعفو».

أى : إن يشأ - سبحانه - يسكن الريح فتظل السفن ساكنة على ظهر البحر ، أو إن يشأ يرسل الريح عاصفة بتلك السفن بمن فيها ، أو إن يشأ ينج ناسا بالعفو عنهم.

قال صاحب الكشاف : «يوبقهن» يهلكهن. والمعنى : أنه إن يشأ يبتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين : إما أن يسكن الريح فيركد الجواري على ظهر البحر ، ويمنعهن من الجري ، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكن إغراقا بسبب ما كسبوا من الذنوب ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ منها.

فإن قلت : علام عطف «يوبقهن» قلت : على «يسكن» لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن بعصفها.

فإن قلت : فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه؟ قلت : معناه : أو إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم.

فإن قلت : فمن قرأ «ويعفو»؟ قلت : قد استأنف الكلام» (١).

ثم بين - سبحانه - أن علمه شامل لكل شيء فقال : ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ والمحيص : المهرب والمنجى من العذاب. يقال : حاص فلان عن الشيء ، إذا حاول الفرار منه.

---

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٢٧.

وقراءة الجمهور بنصب «يعلم» على أنه منصوب على فعل مقدر. أى : فعل ما فعل . سبحانه . لينتقم من الظالمين ، وليعلم الذين يجادلون في آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا .. أنهم لا محيص لهم ولا مهرب من عذابنا ، بسبب جدالهم بالباطل ليدحضوا به الحق.

ثم بين . سبحانه . أن متاع الدنيا مهما كثر فهو إلى زوال ، فقال : ﴿فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا ...﴾ أى : فما أعطيتم من شيء من متع الحياة الدنيا كالغنى والصحة والجاه. فإنما هو متاع زائل من متع الحياة الدنيا.

﴿وَما عِنْدَ اللهِ﴾ من عطاء وثواب في الآخرة. خير وأبقى ، أى : هو خير في ذاته من متاع الحياة الدنيا ، وأبقى منه زمانا حيث لا يزول ولا يفنى.

وقوله ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ متعلق بقوله ﴿خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ أى : هذا الذي ذكرناه لكم من نعم الآخرة خير وأبقى ، للذين آمنوا بالله . تعالى . إيمانا حقا ؛ وللذين هم يتوكلون ولا يعتمدون إلا على ربهم وحده ، لا على غيره أصلا.

* * *

وبعد هذا البيان المفصل للبراهين الدالة على وحدانية الله . تعالى . وقدرته ، وللنعم التي أسبغها . سبحانه . على عباده ... بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة في بيان الصفات الطيبة والمناقب الحميدة ، التي وفق الله . تعالى . عباده المؤمنين للتحلى بها ، فقال :

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣)

وقوله ـ تعالى ـ ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ ..﴾ معطوف على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أو بدل منه.

وكبائر الإثم : هي الذنوب الكبيرة التي يترتب عليها إقامة الحد على فاعلها أو الوعيد الشديد من الله ـ تعالى ـ لمرتكبها ، كقتل النفس ، وتعاطى الربا ، وما يشبه ذلك من الكبائر.

والفواحش : جمع فاحشة ، وهي من جملة كبائر الإثم ، إلا أن الله ـ تعالى ـ خصها بالذكر من باب عطف الخاص على العام ، اهتماما وأكثر ما تطلق الفواحش على جريمة الزنا.

كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً﴾.

والمعنى : وما عند الله ـ تعالى ـ من ثواب في الآخرة خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، وللذين يجتنبون ارتكاب كبائر الآثام ، كقتل النفس ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ويجتنبون كذلك ما فحش وعظم قبحه من الذنوب ، كالزنا والبخل بما آتاهم الله من فضله ..

وليس المراد من هذه الآية الكريمة فتح الباب لارتكاب صغائر الآثام والذنوب ، بل المراد بيان فضل الله ـ تعالى ـ على عباده ، ورحمته بهم ، وبيان أن اجتناب كبائر الإثم والفواحش ، يؤدى ـ بفضل الله وكرمه ـ إلى غفران صغائر الذنوب ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (1).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ صفة أخرى من صفاتهم الكريمة.

أى : ما عند الله خير وأبقى ، للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، وللذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وللذين من صفاتهم ـ أيضا ـ أنهم يتجاوزون عن الشخص الذي أغضبهم ، ويصفحون عنه ، ويحلمون عليه.

وخص حالة غضبهم بالغفران ، لأن هذه الحالة لا يقدر عليها إلا أصحاب العزائم القوية ، إذ من المعروف أن الإنسان في حالة غضبه ، كثيرا ما يفقد صوابه ، ويغلب عليه عدم السيطرة على مشاعره ، فإذا ما استطاع أن يكظم غيظه في حالة غضبه ، كان ذلك دليلا على قوة إيمانه وعلى ملكه لنوازع نفسه.

قال صاحب الكشاف : «هم يغفرون» أى : هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب ، لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس. والمجيء بلفظ «هم» وإيقاعه مبتدأ وإسناد

---

(1) راجع تفسيرنا لهذه الآية في سورة النساء ص ١٢٨.

«يغفرون» إليه ، لهذه الفائدة ، ومثله «هم ينتصرون» [1].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ صفات كريمة لهم فقال : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى : أطاعوه في كل ما أمرهم به ، أو نهاهم عنه ..

﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ أى : حافظوا عليها ، وأدوها في أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ أى : شأنهم أنهم إذا حدث بينهم أمر هام يحتاج إلى المراجعة والمناقشة ، تجمعوا وتشاوروا فيما هو أنفع وأصلح.

قال القرطبي ما ملخصه : «قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ أى : يتشاورون في الأمور.

والشورى مصدر شاورته ـ والتشاور : استخراج الرأى من الغير ..

قال الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم.

وقال ابن العربي : الشورى : ألفة للجماعة ، ومسبار للعقول ، وسبب إلى الصواب.

وقد قال الشاعر الحكيم :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى لبيب أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم [2]

وقد كان الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم يستشير أصحابه في الأمور التي تتعلق بالحروب وما يشبهها من الأمور الدنيوية ، ولم يكن يشاورهم في الأحكام لأنها منزلة من عند الله ـ تعالى ـ ..

فأما الصحابة فكانوا يتشاورون في الأحكام ، ويستنبطونها من الكتاب والسنة ، فقد تشاوروا في الخلافة بعد موت الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم وفي ميراث الجد ، وفي حروب المرتدين [3].

وقوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أى ومن صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ـ أيضا ـ أنهم مما أعطيناهم من الرزق ، يتصدقون على غيرهم من المحتاجين.

﴿وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أى : أن من صفاتهم كذلك أنهم إذا بغى عليهم باغ ، أو ظلمهم ظالم ، أو اعتدى على كرامتهم أو على دينهم معتد ، فإنهم لا يخضعون له ، ولا يذلون أمامه ، وإنما هم ينتصرون لدينهم ولكرامتهم ، بأن يقابلوا بغيه وعدوانه ، بما يردعه

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٢٧.

(٢) الخوافي الريش الذي يختفى عند ما يضم الطائر جناحيه. والقوادم : الريش الظاهر الكثير.

(٣) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٣٦.

ويجعله يخشى إصابتهم بأذى.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها ..﴾ بيان لوجوب عدم تجاوز الحد عند دفع الظلم.

أى : أن الله ـ تعالى ـ يأمركم أنكم إذا أردتم الانتصار من الباغي فعليكم أن تقابلوا بغيه وظلمه وعدوانه بمثله بدون زيادة منكم على ذلك ، كما قال ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

قال الشوكانى : «ذكر ـ سبحانه ـ المغفرة عند الغضب في معرض المدح فقال : «وإذا ما غضبوا هم يغفرون» كما ذكر الانتصار على الباغي في معرض المدح ـ أيضا ـ لأن التذلل لمن بغى ، ليس من صفات من جعل الله له العزة ، حيث قال ـ سبحانه ـ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. فالانتصار عند البغي فضيلة ، كما أن العفو عند الغضب فضيلة.

قال النخعي : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم السفهاء.

ولكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله الله ـ تعالى ـ له ، وعدم مجاوزته ، كما بينه ـ سبحانه ـ عقب ذلك بقوله : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ فبين ـ سبحانه ـ أن العدل في الانتصار ، هو الاقتصار على المساواة ..» (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ ما هو أسمى من مقابلة السيئة بمثلها فقال : ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

أى : فمن عفا عمن أساء إليه ، وأصلح فيما بينه وبين غيره فأجره كائن على الله ـ تعالى ـ وحده ، وسيعطيه ـ سبحانه ـ من الثواب مالا يعلمه إلا هو ـ عزوجل ـ ..

إنه ـ تعالى ـ لا يحب الظالمين بأى لون من ألوان الظلم.

وفي الحديث القدسي : «يا عبادي إنى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا».

ثم أكد ـ سبحانه ـ ما سبق أن بينه من أن دفع بغى الباغي أمر محمود ، فقال تعالى ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

واللام في قوله ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ﴾ هي لام الابتداء ، وقوله ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ مصدر مضاف لمفعوله و «من» شرطية ، وجوابها ﴿فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ والمراد بالسبيل : المؤاخذة والحرج.

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٥٤١.

أى : أن من انتصر لدينه وعرضه ، بعد ظلم الظالم له ، فأولئك الذين يفعلون ذلك ، لا يؤاخذون من أحد ، ولا يلامون من غيرهم ، لأنهم باشروا حقهم الذي شرعه الله . تعالى . لهم ، وهو مقابلة السيئة بمثلها.

ثم بين . سبحانه . على من تقع المؤاخذة والمعاقبة فقال : ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ﴾.

أى : إنما المؤاخذة والمعاقبة كائنة على الذين يظلمون غيرهم من الناس ، ويتكبرون ويتجاوزون حدودهم في الأرض بغير الحق.

وقيد . سبحانه . البغي في الأرض بكونه بغير الحق ، لبيان أنه لا يكون إلا كذلك ، إذ معناه في اللغة تجاوز الحد. يقال : بغى الجرح ، إذ تجاوز الحد في فساده ، فهذا القيد إنما هو لبيان الواقع ، وللتنفير منه.

﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ أى : أولئك الذين من صفاتهم الظلم والبغي لهم عذاب أليم ، بسبب ما اجترحوه من ظلم وبغى.

ثم ختم . سبحانه . هذه الصفات الكريمة للمؤمنين فقال : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

أى : وللإنسان الصابر على الأذى الذي يصفح عمن أساء إليه ، الثواب الجزيل ، والعاقبة الحسنة ، لأن ذلك الصبر والمغفرة منه ، لمن الأمور التي تدل على علو الهمة ، وقوة العزيمة ..

هذا ، والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ، يراها قد مدحت المؤمنين الصادقين بجملة من الصفات الحميدة ، التي تعتبر على رأس الصفات الأساسية ، لكل أمة تريد أن تنال الظفر والسعادة في دنياها وآخرتها.

وبعد هذا الحديث عن المؤمنين وعن صفاتهم الكريمة وعما أعده سبحانه لهم من ثواب ، جاء الحديث عن الظالمين وما أعد لهم من عقاب ، وأمرهم . سبحانه . بالاستجابة لدعوة الحق من قبل أن يأتي يوم الحساب ، الذي لا ينفعهم فيه شفيع أو نصير ، فقال . تعالى . :

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ

مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨)

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ..﴾ أى : ومن يخذله الله تعالى ويبعده عن طريق الهداية بسبب زيغه وإيثاره الغي على الرشد ، فليس لهذا الضال من ناصر ينصره بعد الله ـ تعالى ـ فالمراد بالضلال هنا : ما هو ضد الهداية والتوفيق للخير. والضمير في قوله «من بعده» يعود إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ وقيل : يعود للخذلان المفهوم من قوله «يضلل».

ثم بين ـ سبحانه ـ حال الظالمين عند ما يعرضون على النار فقال : ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

أى : وترى ـ أيها العاقل ـ الظالمين حين رأوا العذاب المعد لهم يوم القيامة ، تراهم في نهاية الحسرة والذلة ، ويقولون في ندامة وانكسار : هل إلى ﴿مَرَدٍّ﴾ أى : مرجع إلى الدنيا من سبيل أو طريق ، فنعمل غير الذي كنا نعمل.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ بيان لحالهم عند ما يعرضون على النار بعد بيان ما يقولونه عند رؤيتهم لها.

أى : أنهم عند رؤيتهم لجهنم يقولون هل من طريق للهرب من هذا العذاب لكي نرجع إلى الدنيا فنؤمن بالله ـ تعالى ـ ونعمل صالحا ، فلما وجدوا أنه لا طريق إلى ذلك زاد انكسارهم وذلهم وتراهم ـ أيها العاقل ـ يعرضون على النار عرضا مؤلما ، فهم خاضعون متضائلون من شدة ما أصابهم من ذل ، يسترقون النظر إلى النار من طرف خفى ، أى : من عين لا تكاد تتحرك من شدة ضعفها وهوانها ...

قال صاحب الكشاف : ﴿خاشِعِينَ﴾ متضائلين متقاصرين بما يلحقهم ، وقوله ﴿مِنَ الذُّلِ﴾ متعلق بخاشعين . ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ﴾ أى : يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفى بمسارقته كما ترى المصبور ـ أى المحبوس للقتل ـ ينظر إلى السيف ، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره ، لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ، ويملأ عينيه منها ، كما يفعل الناظر إلى الشيء المحبوب ...» [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يقوله المؤمنون الفائزون برضا الله ـ تعالى ـ بعد رؤيتهم لأحوال هؤلاء الظالمين فقال : ﴿وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ﴾.

أى : وقال المؤمنون ـ على سبيل التحدث بنعمة الله عليهم ـ بعد أن رأوا انكسار الظالمين وذلتهم ... قالوا هؤلاء هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة بتعريضها للعذاب المهين ، وخسروا أهليهم لأنهم إن كانوا معهم في النار فلن ينفعوهم بشيء ، وإن كانوا في الجنة فلن يستطيعوا الوصول إليهم ...

ألا إن ذلك العذاب المقيم الذي حل بهؤلاء الظالمين هو الخسران التام الكامل الذي لا خسران أفظع منه.

﴿وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ..﴾ أى : لم يكن لهؤلاء الظالمين من نصراء أو شفعاء يحولون بينهم وبين العذاب الذي أعده ـ سبحانه ـ لهم بسبب ظلمهم وكفرهم.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ أى : ومن يضله الله ـ تعالى ـ عن طريق الهداية والرشاد ﴿فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أى فما له من طريق إلى الهدى أو النجاة.

ثم يوجه ـ سبحانه ـ أمره إلى هؤلاء المعاندين ، يدعوهم إلى الاستجابة للحق من قبل أن

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٣١.

يأتى يوم القيامة الذي لا شك في مجيئه .. فيقول : ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ..﴾.

أى استجيبوا ـ أيها الناس ـ لدعوة الحق التي دعاكم إليها ربكم وخالقكم ، عن طريق الرسول الذي أرسله ـ سبحانه ـ إليكم ، ولتكن استجابتكم عاجلة في هذه الدنيا ، من قبل أن يأتى يوم القيامة الذي لن يستطيع أحد أن يرده أو يدفعه ، بعد أن حكم ـ سبحانه ـ بمجيئه ، وجعل له أجلا محددا لا يتخلف عنه.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم عند مجيء هذا اليوم فقال : ﴿ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾.

والملجأ : هو المكان الذي يلجأ إليه الإنسان عند الشدائد والكروب لاتقائها ، والنكير بمعنى الإنكار.

أى : ليس لكم في هذا اليوم ملجأ تلتجئون إليه من العذاب ، وليس لكم القدرة على إنكار شيء مما اجترحتموه في الدنيا من الكفر والعصيان ، لأنه مسجل عليكم ، فما نزل بكم من عذاب بسبب كفركم وإعراضكم عن الحق ، وشيء أنتم تستحقونه ، ولن تجدوا يوم القيامة من ينكر استحقاقكم لهذا العذاب.

قال الآلوسى : قوله ـ تعالى ـ ﴿وما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أى : إنكار على أنه مصدر أنكر على غير القياس. ونفى ذلك مع قوله ـ تعالى ـ حكاية عنهم ﴿وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ تنزيلا لما يقع من إنكارهم منزلة العدم ، لعدم نفعه وقيام الحجة ، وشهادة الجوارح عليهم ، أو يقال : إن الأمرين باعتبار تعدد الأحوال والمواقف ..» [(1)].

ثم بين ـ سبحانه ـ وظيفة رسوله ﷺ فقال : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ ..﴾.

أى : فإن أعرض هؤلاء الظالمون عن دعوتك ـ أيها الرسول الكريم ـ ، فلا تحزن لذلك ، فإننا ما أرسلناك لتكون رقيبا على أعمالهم ، ومكرها لهم على الإيمان ، وإنما أرسلناك لتبلغ دعوة ربك إليهم ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر.

والمراد بالإنسان في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها﴾ جنسه الشامل للجميع والمراد بالرحمة : ما يشمل الغنى والصحة وغيرهما من النعم.

---

(1) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ٢٥.

أى : وإنا إذا أعطينا ومنحنا الإنسان بفضلنا وكرمنا نعمة كالمال والولد والجاه. فرح بها وانشرح لها.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ﴾ أى : الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ من بلاء أو مرض أو خوف أو فقر ﴿بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أى : بسبب ما اكتسبته أيديهم من المعاصي والسيئات حزنوا وامتعضوا.

وقوله : ﴿فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ﴾ تعليل لجواب الشرط المحذوف ، أى : وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم نسوا نعمنا وقنطوا ، فإن الإنسان الكافر كثير الكفر والجحود لنعم خالقه ـ عزّ وجلّ ـ. أما من آمن وعمل صالحا فإنه يشكر ربه عند النعم ، ويصبر عند البلاء والنقم.

* * *

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بالحديث عن مظاهر قدرته التي لا يعجزها شيء ، وعن نفاذ مشيئته وحكمته ، وعن فضله على نبيه صلّى الله عليه وسلّم حيث أوحى إليه بما أوحى ، من هدايات للناس. فقال ـ تعالى ـ :

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (٥٣)

وقوله ـ تعالى ـ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ ..﴾ بيان لكمال قدرته ـ سبحانه ـ ، ولنفاذ مشيئته. والملك ـ بضم الميم ـ الاستيلاء على الشيء والتمكن من التصرف فيه.

أى : لله ـ تعالى ـ وحده ملك جميع ما في السموات والأرض ، وليس لأحد معه شيء لا اشتراكا ولا استقلالا ، وهو ـ سبحانه ـ «يخلق ما يشاء» أن يخلقه ، من غير أن يكون لأحد وصاية عليه ، أو اختيار لشيء معين ..

ثم فصل ـ سبحانه ـ بعض مظاهر هذه القدرة التامة ، والإرادة النافذة فقال : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً﴾ فهذه الجملة الكريمة بدل مفصل من مجمل ، أو بدل بعض من كل. وأحوال الناس بالنسبة للذرية لا تخلو عن هذه الأقسام الأربعة فهو ـ سبحانه ـ إما أن يهب لمن يشاء من عباده إناثا لا ذكور معهن ، وإما أن يهب لهم ذكورا لا إناث معهم ، وإما أن يهب لبعضهم الإناث والذكور معا وهذا معنى قوله ـ تعالى ـ ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً﴾ إذ التزويج معناه الجمع بين البنين والبنات.

وإما أن يجعل بعضهم عقيما ، أى : لا ذرية له ، ذكرا كان أو أنثى. يقال رجل عقيم وامرأة عقيم ، إذا كانا لا ذرية لهما.

وهذه الأحوال الأربعة كلها مشاهدة في حياة الناس ، فمنهم من معه الإناث فقط ، ومنهم من معه الذكور فقط ومنهم من معه الذكور والإناث ومنهم من ليس معه منهما شيء وهذا كله يدل على كمال قدرته ـ سبحانه ـ ، وعلى نفاذ إرادته وحكمته ، إذ أعطى من يشاء إعطاءه بفضله ، ومنع من يشاء منعه لحكمة يعلمها ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه.

فالآية الكريمة مسوقة لبيان أن العطاء والمنع بيد الله ـ تعالى ـ وحده ، وأن أحوال البشر بالنسبة للذرية خاضعة لمشيئته وحده ، وهو ـ سبحانه ـ يقدرها وفق علمه وإرادته وحكمته ؛ ليس لأحد مدخل في اختيار نوع معين من الذرية ، وليس عند أحد القدرة على إنجاب شيء منها ، إذا أراد الله منعه من ذلك.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : «فإن قلت : لم قدم الإناث أولا على الذكور مع تقدمهم عليهن ، ثم رجع فقدمهم؟ ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث؟

قلت : قدم الإناث لبيان أنه ـ سبحانه ـ يفعل ما يشاء ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم ...

وأخر ـ سبحانه ـ الذكور ، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحقاء بالتقديم

بتعريفهم ، لأن التعريف تنويه وتشهير ، فكأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتض آخر ، فقال : ﴿ذُكْراناً وَإِناثاً﴾ ، كما قال : ﴿إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى ..﴾ (١).

وقوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ تذييل قصد به تأكيد قدرته وحكمته. أى : إنه ـ سبحانه ـ واسع العلم بأحوال عباده وبما يصلحهم ، قدير على كل شيء ، فهو يفعل ما يفعله عن قدرة واختيار ، لا مكره له ولا معقب لحكمه.

ثم بين ـ سبحانه ـ الطرق التي بها يقع التكليم منه ـ تعالى ـ للمختارين من عباده فقال : ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً ، أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ ..﴾.

فهذه الآية الكريمة قد دلت على أن تكليم الله ـ تعالى ـ للبشر وقع على ثلاثة أوجه :

الأول : عن طريق الوحى ، وهو الإعلام في خفاء وسرعة عن طريق الإلقاء في القلب يقظة أو مناما ، ويشمل الإلهام والرؤيا المنامية.

والوحى مصدر أوحى ، وقد غلب استعماله فيما يلقى للمصطفين الأخيار من الكلمات الإلهية.

والثاني : عن طريق الإسماع من وراء حجاب ، أى حاجز ، بأن يسمع النبي كلاما دون أن يرى من يكلمه ، كما حدث لموسى ـ عليه‌السلام ـ عند ما كلمه ربه ـ عزوجل ـ ، وهذا الطريق هو المقصود بقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ﴾.

والثالث : عن طريق إرسال ملك ، وظيفته أن يبلغ الرسول ما أمره الله بتبليغه له ، وهو المقصود بقوله ـ تعالى ـ ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾.

وهذا الطريق الثالث قد وضحه الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن الحارث بن هشام ، سأل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحى؟ فقال صلى‌الله‌عليه‌وسلم أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ـ وهو أشده على ـ أى : أحيانا يأتيني مشابها صوته وقوع الحديد بعضه على بعض ـ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعى ما يقول.

قالت عائشة : ولقد رأيته صلى‌الله‌عليه‌وسلم ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه

،

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٣٢.

وإن جبينه ليتفصد عرقا.

والمعنى : وما صح وما استقام لبشر أن يكلمه الله ـ تعالى ـ في من حال الأحوال إلا موحيا إليه ، أو مسمعا إياه ما يريد إسماعه له من وراء حجاب أو يرسل إليه ملكا ليبلغه ما يريده ـ سبحانه ـ منه.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ تعليل لما قبله ، أى : إنه ـ سبحانه ـ متعال عن صفات النقص ، حكيم في كل أقواله وأفعاله.

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر فضله على نبيه ﷺ فقال : ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ ..﴾.

والكاف في قوله «كذلك» بمعنى مثل واسم الإشارة يعود إلى ما أوحاه إلى الرسل السابقين.

والمراد بالروح : القرآن ـ وسماه ـ سبحانه ـ روحا ، لأن الأرواح تحيا به ، كما تحيا الأبدان بالغذاء المادي.

أى : ومثل إيحائنا إلى غيرك من الرسل ، أوحينا إليك ـ أيها الرسول الكريم ، هذا القرآن ، الذي هو بمنزلة الأرواح للأجساد ، وقد أوحيناه إليك بأمرنا وإرادتنا ومشيئتنا ، وأنت ـ أيها الرسول الكريم ـ ما كنت تعرف أو تدرك حقيقة هذا الكتاب حتى عرفناك إياه ، وما كنت تعرف أو تدرك تفاصيل ، وشرائع وأحكام هذا الدين الذي أوحيناه إليك بعد النبوة.

فالمقصود بهذه الآية الكريمة نفى علم الرسول ﷺ بهذا القرآن قبل النبوة ، ونفى أن يكون ـ أيضا ـ عالما بتفاصيل وأحكام هذا الدين لا نفى أصل الإيمان.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ (٢).

والضمير في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا﴾ يعود إلى القرآن الكريم ، الذي عبر عنه بالروح.

أى : ولكن جعلنا هذا القرآن العظيم نورا ساطعا ، نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا.

---

(١) سورة النساء الآية ١١٣.

(٢) سورة يوسف الآية ٣.

﴿وَإِنَّكَ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿لَتَهْدِي﴾ من أرسلناك إليهم ﴿إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى طريق واضح قويم لا اعوجاج فيه ولا التواء.

وقوله : ﴿صِراطِ اللهِ﴾ بدل مما قبله ، وإضافته إلى الله ـ تعالى ـ للتفخيم والتشريف.

أى : وإنك لترشد الناس إلى صراط الله ﴿الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وتصرفا ..

﴿أَلا إِلَى اللهِ﴾ ـ تعالى ـ وحده ﴿تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أى : تنتهي إليه الأمور وتصعد إليه وحده ، فيقضى فيها بقضائه العادل ، وبحكمه النهائى الذي لا معقب له.

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة «الشورى» نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

تفسير

سورة الزّخرف

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة وتمهيد

١ . سورة «الزخرف» من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها تسع وثمانون آية ، وكان نزولها بعد سورة «الشورى».

٢ . وقد افتتحت سورة «الزخرف» بالثناء على القرآن الكريم ، وبتسلية الرسول ﷺ عما أصابه من قومه ، وببيان جانب من مظاهر قدرته . تعالى . ، ومن أنواع نعمه.

قال . تعالى . : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً ، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ ، فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ. وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ ..﴾.

٣ . ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن جهالات المشركين ، وعن دعاواهم الكاذبة ، وعن أقوالهم الفاسدة عند ما يدعون إلى الدخول في الدين الحق.

قال . تعالى . : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ. وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ، ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ .... ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

٤ . وبعد أن ساقت السورة الكريمة جانبا من دعوة إبراهيم . عليه السلام . لقومه ، واصلت حديثها عن موقف المشركين من دعوة الحق ، وعن اعتراضهم على نبوة النبي ﷺ ثم أخذت في تفنيد هذه الاعتراضات ، وفي تسلية الرسول ﷺ عما أصابه منهم ، وبينت سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة.

قال . تعالى . : ﴿وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ. أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ..﴾

٥ ـ ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من قصة موسى ـ عليه‌السلام ـ وكيف أن الله ـ تعالى ـ دمر فرعون وقومه ، بسبب بغيهم وإصرارهم على كفرهم.

قال ـ تعالى ـ : (وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ، قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ، وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ. فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ. فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ. فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ).

٦ ـ ثم أتبعت السورة حديثها عن جانب من قصة موسى مع فرعون وقومه ، بالحديث عن موقف المشركين من عيسى ـ عليه‌السلام ـ الذي جاء قومه بالحق والحكمة ، فقال ـ تعالى ـ : (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ. وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ. إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ).

٧ ـ ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء إلى عباده المؤمنين ، بشرهم فيه برضوانه وجنته ، فقال ـ تعالى ـ : (يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ. ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ. يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ).

٨ ـ وكعادة القرآن الكريم في المقارنة بين عاقبة الأخيار والأشرار ، أتبع القرآن حديثه عن ثواب المتقين ، بالحديث عن عقاب الكافرين ، فقال ـ تعالى ـ : (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ. وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ. وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ).

٩ ـ ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بتلقين النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم الجواب الذي يخرس به ألسنة المشركين ، ويسليه عن كيدهم ولجاجهم ويسلحه بالحق الذي لا يحوم حوله باطل.

قال ـ تعالى ـ : (قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ. سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ. فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ).

إلى أن يقول ـ سبحانه ـ : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ. وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ. فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ).

١٠ ـ وبعد فهذا عرض إجمالى لبعض المقاصد التي اشتملت عليها سورة «الزخرف» ،

ومنه نرى أن السورة الكريمة تهتم اهتماما واضحا بالحديث عن العقبات التي وضعها المشركون في طريق الدعوة الإسلامية ، وكيف أن الله ـ تعالى ـ قد أعطى نبيه ﷺ السلاح الذي يهدم به هذه العقبات كما اهتمت ببيان مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ ونعمه على خلقه ، وببيان جانب من قصص بعض الأنبياء. كإبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ لتسليته ﷺ عما لحقه من أذى المشركين ، كما اهتمت بالمقارنة بين عاقبة الأخيار والأشرار ، وبإقامة البراهين الساطعة على وحدانية الله ـ عز وجل ـ إلى غير ذلك من المقاصد التي لا مجال لتفصيل الحديث عنها في تلك المقدمة ، وإنما سنتحدث عنها بشيء من التوضيح خلال تفسيرنا لآيات السورة الكريمة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

القاهرة : مدينة نصر

مساء الثلاثاء ٨ من صفر سنة ١٤٠٦ هـ ١٢ / ١٠ / ١٩٨٥ م

كتبه الراجي عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

قال الله . تعالى . :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٧) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨)

سورة «الزخرف» من السور التي افتتحت بالحروف المقطعة ، وقد سبق أن قلنا في المراد بهذه الحروف ما خلاصته : هذه الحروف التي افتتحت بها بعض السور ، يغلب على الظن أنه جيء بها للتنبيه إلى إعجاز القرآن ، لأنه مؤلف من كلام هو من جنس كلامهم ، ومع ذلك فقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله .. [(١)].

والواو في قوله . تعالى . : ﴿وَالْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ للقسم ، والمقسم به الكتاب ، وجواب القسم قوله . تعالى . بعد ذلك : ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا ...﴾.

أى : وحق هذا الكتاب الواضح المرشد إلى طريق الحق والسعادة ، لقد جعلنا بقدرتنا وحكمتنا هذا الكتاب قرآنا عربيا ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أى : جعلناه كذلك لكي تفهموه وتتعقلوا معانيه ، وتهتدوا إلى ما فيه من الأحكام السامية ، والآداب العالية.

---

(١) راجع تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف.

قال صاحب الكشاف : أقسم - سبحانه - بالكتاب المبين وهو القرآن وجعل قوله : ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ جوابا للقسم ، وهو من الأيمان الحسنة البديعة ، لتناسب القسم والمقسم عليه ، وكونهما من واد واحد .. و ﴿الْمُبِينِ﴾ أى : البين الذي أنزل بلغتهم وأساليبهم .. (1).

فقوله - تعالى - : ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ بيان للحكمة التي من أجلها أنزل الله - تعالى - هذا القرآن بلسان عربي مبين. أى : جعلناه كذلك رجاء أن تعقلوا وتفهموا أوامره ونواهيه ، وتوجيهاته وإرشاداته.

ثم بين - سبحانه - المنزلة السامية التي جعلها لهذا القرآن ، والصيانة التامة التي أحاطه بها فقال : ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

والمراد بأم الكتاب : اللوح المحفوظ ، وسمى بذلك لأن جميع الكتب السماوية منقولة عنه. كما قال - تعالى - : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾.

وقيل : المراد بأم الكتاب : علمه الأزلى - عزّ وجلّ - ..

أى : وإن هذا القرآن المبين لثابت ، وكائن في اللوح المحفوظ ، وهو ﴿لَدَيْنا﴾ أى : عندنا ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أى : لرفيع الشأن ، عظيم القدر ﴿حَكِيمٌ﴾ أى : محكم النظم في أعلى طبقات البلاغة. فلا يضيره تكذيب المكذبين ، ولا طعن الطاعنين.

فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على القيمة العظيمة التي جعلها - سبحانه - لهذا القرآن ، في علمه - تعالى - وتقديره ، كما أن وصف هذا الكتاب بقوله ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ يؤكد هذه المنزلة السامية ويقررها.

وبعد هذا البيان المشرف للقرآن الكريم ، أتبع - سبحانه - ذلك بالكشف عن مدى الإسراف القبيح الذي ارتكبه المشركون حين أعرضوا عنه فقال - تعالى - : ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً ، أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾.

والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والضرب هنا : بمعنى التنحي والابتعاد والإهمال ، تقول : ضربت عن فلان صفحا ، إذا أعرضت عنه وتركته ، والصفح : مصدر صفحت عنه ، إذا أعرضت عنه ، وذلك بأن تعطيه صفحة وجهك أى : جانبه. وهو منصوب لنضرب من غير لفظه ، كما في قولهم : قعدت جلوسا. أو على الحال من الفاعل : على المصدرية أى : صافحين.

---

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٤٦.

والمراد بالذكر هنا : القرآن الكريم.

والمعنى : أنعرض عنكم ونهملكم فلا نذكركم بالقرآن الكريم ، ولا نرشدكم إلى هداياته. بسبب إسرافكم على أنفسكم ، ومحاربتكم للحق ، وإيثاركم الغي على الرشد؟!! لا لن نفعل ذلك ، بل سننزل هذا القرآن على نبينا محمد ﷺ ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن شاء فليكفر.

قال الشوكانى : قوله : ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي بكسر إن على أنها شرطية ، والجزاء محذوف لدلالة ما قبله عليه. وقرأ الباقون بفتحها على التعليل ، أى : لأن كنتم قوما منهمكين في الإسراف مصرين عليه. [(١)].

ثم سلى ـ سبحانه ـ نبيه ﷺ عن مكرهم فقال : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ و ﴿كَمْ﴾ هنا خبرية لإفادة كثرة الأنبياء والمرسلين وهي مفعول مقدم لأرسلنا. وقوله ﴿مِنْ نَبِيٍ﴾ تمييز لها.

أى : ما أكثر الرسل الذين أرسلناهم في الأمم الأولين لهدايتهم ، فكان موقف أكثر هؤلاء الأمم من رسلهم. يدل على إعراضهم عنهم ، وتكذيبهم لهم ، فاصبر ـ أيها الرسول الكريم ـ على أذى قومك ، كما صبر الذين من قبلك.

ثم أكد ـ سبحانه ـ هذا المعنى فقال : ﴿وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أى : أن هؤلاء السابقين لم يأتهم نبي من الأنبياء لهدايتهم ، إلا استهزءوا به ، وسخروا منه ، وأعرضوا عنه.

فماذا كانت نتيجتهم؟ كانت نتيجة استهزائهم برسلهم كما قال ـ تعالى ـ : ﴿فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾.

والضمير في قوله ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى القوم المسرفين ، المخاطبين بقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً ...﴾ وفي الآية التفات من الخطاب الى الغيبة ، لأنه كان الظاهر أن يقال : فأهلكنا أشد منكم بطشا ـ أيها المشركون ..

وقوله : ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ مفعول به لأهلكنا. وأصله نعت لمحذوف ، أى : فأهلكنا قوما أشد منهم بطشا. والبطش : السطوة والقوة. يقال : فلان بطش بفلان إذا أخذه بقوة وعنف ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

والمراد «بمثل الأولين» صفتهم المتمثلة في استئصال شأفتهم ، وقطع دابرهم.

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٤ ص ٥٤٧.

أى : هكذا كان موقف السابقين من رسلهم ، لقد استهزءوا برسلهم فأهلكناهم ، وكانوا أشد قوة وبطشا من قومك المسرفين . أيها الرسول الكريم . وقد اقتضت حكمتنا أن نسوق لقومك قصص هؤلاء السابقين وصفاتهم وما حل بهم من نكبات ، لكي يعتبروا بهم ، ولا ينهجوا نهجهم ، حتى لا يصيب قومك ما أصاب أولئك السابقين المكذبين.

ومن الآيات الكثيرة التي وردت في هذا المعنى قوله . تعالى . : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾ [1].

ثم ساق . سبحانه . بعد ذلك نماذج من تناقض هؤلاء المشركين مع أنفسهم ومن مواقفهم الجحودية من نعم الله . تعالى . عليهم .. فقال . تعالى . :

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١٤)

واللام في قوله . تعالى . : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ للقسم. وجوابه قوله . تعالى . بعد ذلك : ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ...﴾.

---

(١) سورة غافر الآية ٢١.

والمعنى : وحق الله الذي لا إله إلا هو ، لئن سألت ـ أيها الرسول الكريم ـ هؤلاء المشركين عمن خلق هذا الكون ، ليقولن بدون تردد : الله ـ تعالى ـ المتصف في نفس الأمر بالعزة والعلم.

فالآية الكريمة تدل دلالة صريحة على أن هؤلاء المشركين يعترفون بأن الله هو الخالق لهذا العالم ، وأن معبوداتهم بعض خلقه ـ تعالى ـ ولكنهم لجهلهم وانطماس بصائرهم أشركوها معه في العبادة ، وقالوا : ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى ..﴾.

ويبدو أن هاتين الصفتين : ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ليستا من أقوالهم. فهم كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق لهذا الكون ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التي جاء بها القرآن الكريم.

ولذا قال بعض العلماء : الذي يظهر أن هذا الكلام مجزأ ، فبعضه من قولهم وبعضه من قول الله ـ تعالى ـ ، فالذي هو من قولهم ﴿خَلَقَهُنَ﴾ ، وما بعده من قول الله ـ عزوجل ـ ، وأصل الكلام أنهم قالوا : خلقهن الله ، ويدل عليه قوله ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾.

ثم لما قالوا : خلقهن الله وصف الله ـ تعالى ـ ذاته بهاتين الصفتين (١).

ثم وصف ـ سبحانه ـ ذاته بصفات أخرى فقال : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً ...﴾.

المهد والمهاد : الفراش الممهد المذلل الذي يستقر عليه من جلس فوقه.

أى : الخالق لهذا العالم هو الله العزيز العليم ، الذي جعل لكم الأرض كالفراش الممهد ، حيث بسطها لكم ، وجعلها صالحة لسيركم عليها ، ولإنبات الزروع فيها.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً﴾ أى : وجعل لكم فيها طرقا متعددة ، لكي تسلكوها ، فتصلوا من بلد إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر ، كما قال ـ تعالى ـ في آية أخرى ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً ، لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً﴾.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بيان للحكمة من جعل الأرض كذلك ، أى : جعلها ممهدة كثيرة الطرق ، لعلكم تهتدون إلى ما تريدون الوصول إليه من البلاد ، ومن المنافع المتعددة.

ثم وصف ـ سبحانه ـ ذاته بصفة ثانية فقال : ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ ..﴾.

أى : وهو ـ تعالى ـ الذي أنزل من السماء ماء بمقدار معين على قدر حاجتكم ومصلحتكم ،

---

(١) راجع حاشية الكشاف ج ٤ ص ٢٣٨.

فلا هو بالكثير الذي يغرقكم ، ولا هو بالقليل الذي لا يكفى حاجتكم ، بل نزله بقدر كفايتكم ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ ، فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ﴾.

وكقوله ـ تعالى ـ في آية ثانية : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ ، وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ...﴾.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ بيان للآثار المترتبة على هذا الإنزال للماء.

أى : نحن الذين بقدرتنا أنزلنا من السماء ماء على قدر حاجتكم ، وحسبما تقتضيه مصلحتكم ، فأحيينا بهذا الماء بلدة مجدبة ، لا نبات فيها ولا زرع.

فالمراد بالنشور : الإحياء للأرض عن طريق إنبات الزرع بها ، بعد أن كانت مجدبة.

وقوله : ﴿كَذلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ بيان لإمكانية إحياء الناس بعد موتهم.

أى : مثل ذلك الإحياء للأرض بعد موتها ، تخرجون أنتم من قبوركم أحياء يوم القيامة.

قال الآلوسى : وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذي هو إحياء الموتى ، وعن إحيائهم بالإخراج ، تفخيم الإنبات ، وتهوين لأمر البعث ، وفي ذلك من الرد على منكريه ما فيه .. (١).

وشبيه بهذه الآية قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ ، فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ، كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢).

ثم وصف ـ سبحانه ـ ذاته بصفة ثالثة فقال : ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها﴾ أى : خلق أصناف وأنواع المخلوقات كلها. فالمراد بالأزواج هنا : الأصناف المختلفة من الذكر والأنثى. ومن غير ذلك من أنواع مخلوقاته التي لا تحصى.

قال ـ سبحانه ـ ﴿سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ﴾ أى : وسخر لكم بقدرته ورحمته من السفن التي تستعملوها في البحر ، ومن الإبل التي تستعملوها في البر ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ٦٧.

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٧.

ما تركبونه وتحملون عليه أثقالكم ، وتنتقلون بواسطته من مكان إلى آخر.

فما في قوله ﴿ما تَرْكَبُونَ﴾ موصولة ، والعائد محذوف والجملة مفعول ﴿جَعَلَ﴾ وقوله : ﴿مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ﴾ بيان له مقدم عليه. أى : وجعل لكم ما تركبونه من الفلك والأنعام.

ثم بين ـ سبحانه ـ الحكمة من هذا التذليل والتسخير للفلك والأنعام فقال : ﴿لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ..﴾ والضمير في ﴿ظُهُورِهِ﴾ يعود إلى ﴿ما﴾ في قوله ﴿ما تَرْكَبُونَ﴾ وجاء مفردا رعاية للفظ ﴿ما﴾ وجمع الظهور لأن المراد بالمركوب جنسه.

والاستواء : الاستعلاء على الشيء ، والتمكن منه ، أى : سخر لكم من السفن والأنعام ما تركبونه ، ولتستعلوا على ظهوره استعلاء المالك على مملوكه.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ بعد كل هذا التمكن والاستعلاء ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أى :

على تلك السفن والأنعام التي تركبونها.

والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود ـ أيضا ـ الى ﴿ما﴾ في قوله ﴿ما تَرْكَبُونَ﴾ باعتبار لفظه ﴿وَتَقُولُوا﴾ على سبيل الشكر لله ـ تعالى ـ والاعتراف بفضله ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا﴾.

أى : وتقولوا : جل شأن الله ، وتنزه عن الشريك والمثيل ، فهو الذي سخر لنا هذا المركوب من الفلك والأنعام ، وجعله منقادا لنا ، طائعا لأمرنا.

﴿وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أى : والحال أننا ما كنا لهذا المركوب الصعب بقادرين على التمكن منه ، لو لا أن الله ـ تعالى ـ سخره لنا ، وجعله منقادا لأمرنا.

فقوله : ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أى : مطيقين وقادرين وضابطين ، من أقرن الشيء ، إذا أطاقه وقدر عليه ، حتى لكأنه صار له قرنا ، أى : مثله في الشدة والقوة.

والمقصود : ما كنا بقادرين أو بمطيقين لتذليل هذه السفن والأنعام ، لو لا أن الله ـ تعالى ـ قد جعلها منقادة لنا ، ومسخرة لخدمتنا.

ولا يخفى أن الجمل أقوى من الإنسان ، وأن البحر لو لم يذلله ـ سبحانه ـ لنا ، لما قدرت السفن على الجري فيه.

قال القرطبي : قوله : ﴿وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أى : مطيقين .. أو ضابطين وفي أصله قولان : أحدهما : أنه مأخوذ من الإقران ، يقال : أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق. وأقرنت كذا : أطقته وحكمته ، كأنه جعله في قرن ـ أى : حبل ـ فأوثقه به وشده.

والثاني : أنه مأخوذ من المقارنة ، وهو أن يقرن بعضها ببعض في السير يقال : قرنت كذا بكذا إذا ربطته به ، وجعلته قرينه (١).

وقوله : ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ من جملة ما يقولونه . أيضا . عند استوائهم على ظهور السفن والإبل.

أى : تقولون إذا استويتم عليه : سبحان الذي سخر لنا هذا المركب الصعب ، وما كنا بقادرين على تذليله لو لا أن الله . تعالى . وفقنا لذلك ، وإنا إلى ربنا وخالقنا لراجعون يوم القيامة ، لكي يحاسبنا على أعمالنا ، ويجازينا عليها بجزائه العادل.

هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ، جملة من الأحاديث ، منها ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي .. عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال : ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا ، وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾. ثم يقول : اللهم إنى أسألك في سفري هذا البر والتقوى. ومن العمل ما ترضى اللهم هون علينا السفر. واطولنا البعيد. اللهم أنت الصاحب في السفر. والخليفة في الأهل. اللهم اصحبنا في سفرنا. وأخلفنا في أهلنا. (٢).

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ذكرت أنواعا متعددة من مظاهر قدرة الله . تعالى . ، ومن رحمته بعباده ، لكي يخلصوا له العبادة والطاعة.

ثم حكى . سبحانه . ما افتراه المشركون على خالقهم ورازقهم من أكاذيب ورد عليها بما يزهق باطلهم ، فقال . تعالى . :

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ

(١) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٦٦.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٠٨.

الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (١٩) وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٥)

والمراد بالجعل في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً ...﴾ الاعتقاد الباطل ، والحكم الفاسد. والمراد بالجزء الولد. والمقصود به خصوص البنات ، كما يدل عليه سياق الآيات.

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً ..﴾ متصل بقوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ...﴾ والمراد بيان تناقضهم مع أنفسهم ... حيث اعترفوا بأنه ـ تعالى ـ خالق السموات والأرض ، ثم وصفوه بصفات المخلوقين ..

وعبر عن الولد بالجزء ، لأنه بضعة ـ وفرع ـ من والده ، كما قيل : أولادنا أكبادنا .. وقيل الجزء : اسم للإناث ، يقال : أجزأت المرأة إذا ولدت أنثى .. [1].

أى : أن هؤلاء المشركين بلغ من تناقضهم في أقوالهم وأفعالهم ، أنهم إذا سألهم سائل عن

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ٩٦.

خالق هذا الكون قالوا : الله. ومع ذلك فهم لجهالتهم اعتقدوا اعتقادا باطلا بأن الملائكة بناته ، مع أن الملائكة من مخلوقاته التي يشملها هذا الكون.

فالمقصود من الآية الكريمة تجهيل هؤلاء المشركين ، وتعجيب كل عاقل من سفاهتهم.

والظاهر أن المراد بالإنسان في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ الكافر والفاسق من بنى آدم ، لأن الإنسان المؤمن لا يجحد نعم الله ، وإنما يشكره ـ تعالى ـ عليها.

أى : إن الإنسان الكافر والفاسق عن أمر ربه ، لشديد الجحود لنعم ربه ، مظهرا ذلك في أقواله وفي أفعاله.

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يدل على السخرية منهم ومن أحوالهم الشاذة فقال : ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ فالاستفهام للتوبيخ والإنكار.

و ﴿أَصْفاكُمْ﴾ أى : آثركم واختصكم. يقال : أصفى فلان فلانا بالشيء ، إذا اختصه به. ومنه قولهم لما يختص السلطان به نفسه من الأشياء النفيسة : الصوافي.

أى : لقد زعمتم أن الملائكة بنات الله ، فخبروني بربكم هل يعقل أن يتخذ الله ـ تعالى ـ أولاده من البنات اللائي هن أقل منزلة من البنين في تقديركم ، ويترك لكم الذكور؟ إن من شأن الذي يختار جنس الأولاد أن يختار أعلاهم منزلة فبأى منطق زعمتم أن الملائكة بنات الله.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ ...﴾ أى : بل آتخذ والهمزة للإنكار ، تجهيلا لهم ، وتعجيبا من شأنهم ، حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءا حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزءين. وهو الإناث دون الذكور ..

فكأنه قيل : هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه ـ تعالى ـ جائزة فرضا وتمثيلا أما تستحون من الشطط في القسمة ، ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزءين ..؟ (١).

ثم أكد ـ سبحانه ـ جهلهم وغفلتهم عن المنطق السليم فقال : ﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ..﴾.

أى : أنهم قالوا الملائكة بنات الله ، والحال أن الواحد منهم إذا بشره مبشر بأن امرأته قد ولدت له أنثى ، صار وجهه مسودا من شدة الحزن ، وظل ممتلئا بالهم والكرب.

فالمراد بقوله : ﴿بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً﴾ جنس البنات حيث قالوا : الملائكة بنات الله.

قال الجمل : قوله : ﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ ...﴾ استئناف مقرر لما قبله. وقيل حال ، على

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٤٣.

معنى أنهم نسبوا إليه ما ذكر ، ومن حالهم أن أحدهم إذا بشر به اغتم ، والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن قبائحهم اقتضت الإعراض عنهم ، وتحكى لغيرهم ليتعجب منها. و ﴿بِما﴾ في قوله ﴿بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً﴾ موصولة ومعناها البنات وضرب بمعنى جعل ، والمفعول الأول الذي هو عائد الموصول محذوف. أى : ضربه ، ومثلا هو المفعول الثاني ، والمثل بمعنى الشبه أى المشابه [1].

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى تبكيتهم السابق تبكيتا آخر فقال : ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾.

والاستفهام للإنكار. وكلمة ﴿مَنْ﴾ عبارة عن جنس الإناث ، وهي في محل نصب بمضمر معطوف على ﴿جَعَلُوا﴾ و ﴿يُنَشَّؤُا﴾ يربى وينشأ. يقال : نشأ فلان في بنى فلان ، إذا شب وترعرع فيهم و ﴿الْحِلْيَةِ﴾ : اسم لما يتحلى ويتزين به.

أى : أيجترئون ويجعلون لله ـ تعالى ـ الإناث ، اللائي من شأنهن أن ينشأن في الزينة ، لأن هذه الحياة هي المناسبة لهن ولتكوينهن الجسدى ، واللائي من شأن معظمهن أنهن لا يقدرن على الدفاع عن أنفسهن لضعفهن وقصورهن في الجدال وفي بيان الحجة التي ترد الخصم ، وتزيل الشبهة ..

فالمقصود من الآية الكريمة تأنيب هؤلاء المشركين على جهلهم وسوء أدبهم ، حيث إنهم نسبوا إلى الله ـ تعالى ـ الإناث اللائي من شأنهن النشأة في الحلية والدعة والنعومة ، فصرن بمقتضى هذه النشأة ، وبمقتضى تكوينهن البدني والعقلي ، لا يقدرن على جدال أو قتال .. بينما نسبوا إلى أنفسهم الذكور الذين هم قوامون على النساء.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى. تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى﴾.

ثم توعدهم ـ سبحانه ـ بسوء المصير بسبب افترائهم الكذب فقال : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ..﴾ والجعل هنا بمعنى القول والحكم على الشيء ، كما تقول جعلت زيدا أفضل الناس ، أى حكمت عليه بذلك.

أى : أن هؤلاء المشركين زعموا وحكموا بأن الملائكة الذين هم عباد الرحمن ، وصفوة خلقه ، وأهل طاعته ، زعموا أنهم إناث ، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقناهم حتى حكموا عليهم بهذا الحكم الباطل؟

كلا إنهم لم يكونوا حاضرين ، ولذا ﴿سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ﴾ في صحائف أعمالهم المليئة بالسيئات ﴿وَيُسْئَلُونَ﴾ عنها سؤال تأنيب وتوبيخ يوم القيامة.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٨٠.

فالمراد بالكتابة والسؤال : معاقبتهم على افترائهم الكذب. وتجهيلهم فيما قالوه ، ثم حكى . سبحانه . لونا من ألوان معاذيرهم الكاذبة فقال : ﴿وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ﴾.

أى : وقال هؤلاء المشركون على سبيل الاحتجاج بالأعذار الباطلة : لو شاء الرحمن عدم عبادتنا للملائكة أو للأصنام ما عبدناهم.

ثم يرد الله . تعالى . عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويهدم معاذيرهم فقال : ﴿ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

أى. قالوا ما قالوه من غير علم أو برهان .. لأن مشيئة الله لا يعلمها أحد سواه ، ولأنه . سبحانه . قد اقتضت حكمته ومشيئته. أن يجعل للإنسان القدرة على اختيار طريق الحق أو طريق الباطل ، وهم قد اختاروا طريق الباطل ، واستحبوا الكفر على الإيمان دون أن يكرههم على ذلك مكره ، فما قالوه ما هو إلا نوع من أنواع خرصهم وكذبهم وظنونهم الفاسدة.

وقد فصلنا القول في مسألة المشيئة عند تفسيرنا لقوله . تعالى . في سورة الأنعام : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا ...﴾.

وعند تفسيرنا لقوله . تعالى . في سورة النحل : ﴿وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا ..﴾ (1).

وقوله . تعالى . : ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ إضراب عن نفى أن يكون لهم فيما ادعوه علم عن طريق العقل ، إلى إبطال أن يكون لهم علم من جهة النقل. و ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل والهمزة. والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أى : بل أعطيناهم كتابا من قبل القرآن ، فيه ما يشهد بصحة أقوالهم فهم بهذا الكتاب مستمسكون؟ كلا إننا لم نعطهم شيئا من ذلك.

ثم بين . سبحانه . مستندهم الحقيقي فقال : ﴿بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾.

أى : أنهم ليس لهم في الحقيقة مستند لا من العقل ولا من النقل ، وإنما مستندهم الوحيد تقليدهم لآبائهم في جهالاتهم وسفاهاتهم وكفرهم. فقد قالوا عند ما دعاهم الرسول ﷺ الى الدين الحق : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، أى على دين وطريقة تؤم وتقصد ، وهي عبادة هذه الآلهة ﴿وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ﴾ وطريقتهم ﴿مُهْتَدُونَ﴾ أى : سائرون بدون تفكر أو تدبر ، أو

---

(1) راجع تفسيرنا لهذه الآية ص ١٤٣ من تفسير سورة النحل.

حجة أو دليل ، فهم أشبه ما يكونون بقطيع الأنعام الذي يسير خلف قائده دون أن يعرف إلى أى طريق يسير ..

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها ، إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ تسلية للرسول ﷺ عما أصابه منهم من أذى ، ومن قول باطل.

والكاف بمعنى مثل. واسم الإشارة ذلك يعود إلى حال الكافرين من قبلهم.

أى : لا تحزن ـ أيها الرسول الكريم ـ لما تراه من إعراض المشركين عن دعوتك. فإن شأنهم كشأن سابقيهم في الكفر والضلال ، فإننا ما أرسلنا من قبلك من رسول في قرية من القرى ، أو في قوم من الأقوام ، إلا قال المنعمون منهم ، والذين أبطرهم الترف لمن جاءهم بالحق : إنا وجدنا آباءنا على دين وطريقة تؤم وتقصد ، وإنا على آثارهم ، وعلى نهجهم ، مقتدون. أى : مقتدون بهم في عبادتهم وأفعالهم.

وخص المترفين بالذكر ، لأنهم القادة الذين صرفهم التنعم وحب الجاه والسلطان ، عن النظر والتدبر والاستماع للحق ، وجعلهم يستحبون العمى على الهدى.

وهنا يحكى القرآن رد الرسول ﷺ فيقول : ﴿قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ ..﴾

أى : قال الرسول ﷺ لقومه الذين أصروا على تقليد آبائهم في الكفر والضلال : أتتبعون آباءكم وتقتدون بهم في الكفر ، حتى ولو جئتكم بدين أهدى وأصوب مما كان عليه آباؤكم؟

وقوله : ـ تعالى ـ : ﴿قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ ...﴾ قراءة ابن عامر وحفص عن عاصم. وقرأ الجمهور قل أولو جئتكم ... على أن الأمر للرسول ﷺ.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ أى : قال المترفون في الرد على رسلهم : إنا بما أرسلتم به من الهدى والدعوة إلى الدين الحق كافرون ، وباقون على الدين الذي كان عليه آباؤنا.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بيان للعاقبة السيئة التي حاقت بهم بسبب إصرارهم على كفرهم وتقليدهم لآبائهم.

أى : قالوا للرسل هذا القول الذي يدل على إيثارهم الغي على الرشد ، فانتقمنا منهم. بأن أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة. ومنهم

من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا.

﴿فَانْظُرْ﴾ . أيها العاقل . وتأمل ﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لقد كانت عاقبتهم أن دمرناهم تدميرا.

هذا ، والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ، يراها من أجمع الآيات القرآنية التي حكت الأقوال الباطلة التي تفوه بها المشركون ، وردت عليهم ردا منطقيا حكيما يهدمها من قواعدها.

لقد ذكرت . أولا . أنهم جعلوا لله . تعالى . من عباده جزءا ... ثم ردت عليهم بأنهم جاحدون لنعم الله ، وأنهم لو كانوا يعقلون لما حكموا هذا الحكم الذي يدل على جهلهم وغفلتهم ، لأنه لو كان الأمر كما ذكروا . على سبيل الفرض والتقدير . لما اختار . سبحانه . لذاته جنس البنات ، وأعطاهم البنين ..

ثم ذكرت . ثانيا . حالهم عند ما يبشرون بالأنثى ، وتهكمت بهم حين نسبوا إلى الله ﴿مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ والمقصود بذلك جنس البنات ، ثم ذكرت . ثالثا . أنهم حكموا على الملائكة بأنهم إناث ، وردت عليهم بأن حكمهم هذا ساقط ، لأنهم لم يشهدوا خلقهم حتى يحكموا عليهم هذا الحكم الفاسد ، وأنهم سيجازون على أحكامهم التي لا دليل عليها ، بما يستحقون من عقاب.

ثم ذكرت . رابعا . معاذيرهم التي اعتذروا بها عند ما حاصرتهم الحجج الدامغة ، فقد قالوا : ﴿لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ﴾ فرد . سبحانه . عليهم بقوله : ﴿ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ، لأن قولهم هذا ما هو إلا لون من ألوان الاحتيال على الحقيقة بالأقوال الساقطة.

ثم ذكرت . خامسا . أنهم في إصرارهم على كفرهم لم يستندوا إلى دليل عقلي أو نقلي ، وإنما استندوا على شيء واحد هو التقليد لآبائهم في جهلهم وضلالهم ..

وهكذا ذكر القرآن أقوالهم وشبهاتهم .. ثم رد عليها بما يدحضها ..

وبعد هذا البيان الماحق لشبهات المشركين ولأقوالهم الباطلة .. أتبع . سبحانه . ذلك بذكر جانب من قصة إبراهيم . عليه‌السلام . مع قومه ، وبذكر جانب من اعتراضاتهم على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم وعلى دعوته ، ورد عليها بما يخرس ألسنتهم فقال . تعالى . :

﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ(٢٧)

وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ (٣٠) وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (٣٤) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٥)

أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ لقومك حال جدك إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقت أن قال لأبيه آزر ، ولقومه الذين كانوا عاكفين على عبادة الأصنام ، مقلدين في ذلك آباءهم ..

قال لهم : إننى برىء مما تعبدونه من هذه الأوثان.

وذكرهم ـ سبحانه ـ هنا بحال إبراهيم ، لأنه كان أعظم آبائهم ، ومحط فخرهم ، والمجمع على محبته منهم.

فكأنه ـ تعالى ـ يقول لهم : هذا هو حال جدكم إبراهيم الذي تعتزون به فلما ذا لم تقلدوه في إنكاره لعبادة الأصنام ، وفي هجره لما كان عليه أبوه وقومه ، وإخلاصه العبادة لله ـ تعالى ـ وحده.

وقوله : ﴿بَراءٌ﴾ مصدر وقع موقع الصفة وهي بريء ، على سبيل المبالغة في التبري من عبادتهم لغير الله ـ تعالى ـ يقال : تبرأت من فلان ، فأنا منه براء.

أى : كرهت قوله وفعله والقرب منه.

والاستثناء في قوله : ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ منقطع ، أى : أنا بريء من عبادة أصنامكم ، لكني أعبد الذي خلقني وفطرني بقدرته ، فإنه هو الذي سيهدين إلى الصراط المستقيم.

ويصح أن يكون متصلا بناء على أنهم كانوا يعبدون الله ـ تعالى ـ ويشركون معه في هذه العبادة أصنامهم.

أى : إنني بريء من عبادة أصنامكم ، إلا أنى لا أعبد إلا الله ـ تعالى ـ الذي فطرني.

أى : خلقني بقدرته على غير مثال سابق.

وقال هنا ﴿سَيَهْدِينِ﴾ وقال في آية أخرى : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ، للدلالة على ثقة إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ بفضل ربه ـ تعالى ـ عليه ، وأنه يهديه في الحال وفي الاستقبال ، وأن هذه الهداية مصاحبة له في كل وقت من أوقات حياته.

ومن الآيات الكثيرة التي تشبه هاتين الآيتين قوله ـ تعالى ـ حكاية عن نبيه إبراهيم : ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ...﴾ [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ.﴾ [2].

والضمير المنصوب في قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ ...﴾ يعود إلى كلمة التوحيد ، المشتملة على البراءة من كل عبادة لغير الله ـ تعالى ـ ، والمعبر عنها قبل ذلك بقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

وضمير الفاعل المستتر في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَجَعَلَها ...﴾ يعود إلى الله ـ تعالى ـ.

أى : وجعل الله ـ تعالى ـ بفضله وكرمه ، كلمة التوحيد ، باقية في عقب ابراهيم ، وفي

(١) سورة الأنعام الآية ٧٨ ، ٧٩.

(٢) سورة الشعراء الآيات ٧٥ ـ ٧٨.

ذريته من بعده ، بأن جعل من ذريته الأنبياء والصالحين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا.

ويؤيد هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ في سورة الصافات : ﴿سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ ، كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ..﴾.

ويصح أن يكون ضمير الفاعل يعود إلى إبراهيم ـ عليه‌السلام ـ ، على معنى أنه أوصى ذريته من بعده بعبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، وأنه دعا ربه أن يجعل في ذريته من يعبده وحده.

فيكون المعنى : وجعل ابراهيم هذه الكلمة وهي كلمة التوحيد باقية في ذريته حيث أوصاهم بعبادة الله وحده.

ويشهد لذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَوَصَّى بِها﴾ ـ أى بكلمة التوحيد ـ ﴿إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ...﴾ [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ الحكمة في ذلك الجعل فقال : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى : جعلها كذلك رجاء أن يرجع إلى كلمة التوحيد من أشرك من ذرية ابراهيم ، ببركة دعائه لهم بالإيمان ودعاء من آمن منهم.

فلقد حكى القرآن عن إبراهيم أن دعا الله ـ تعالى ـ بقوله : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ...﴾ وبقوله : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ إضراب عن كلام محذوف ينساق إليه الكلام ، والمراد «بهؤلاء» أهل مكة المعاصرين للنبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم وقوله : ﴿مَتَّعْتُ﴾ من التمتع بمعنى إعطائهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب والنعم المتعددة ، واشتغالهم بذلك عن طاعة الله ـ تعالى ـ وشكره.

والمعنى : اقتضت حكمتنا أن نجعل كلمة التوحيد باقية في بعض ذرية إبراهيم لعل من بقي من هذه الذرية على الشرك أن يرجع إليها ، ولكنهم لم يرجعوا بل أصروا على كفرهم ، فلم أعاجلهم بالعقوبة ، بل متعت هؤلاء المشركين المعاصرين لك ـ أيها الرسول الكريم ـ بأن أمددتهم بالنعم المتعددة هم وآباءهم ، وبقيت تلك النعم فيهم : ﴿حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُ﴾ وهو دعوتك إياهم إلى إخلاص العبادة لنا ، وجاءهم ﴿رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ هو أنت ـ أيها الرسول الكريم ـ فإن رسالتك واضحة المعالم ، بينة المقاصد ، ليس فيها شيء من الغموض الذي يحملهم على الإعراض عنها.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٢.

فالمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن الكلمة الباقية في عقب إبراهيم وهي كلمة التوحيد ، لم يتبعها جميع أفراد ذريته ، بل اتبعها قوم وكفر بها آخرون وأن هؤلاء الكافرين . وعلى رأسهم كفار قريش . لم يعاجلهم الله . تعالى . بالعقوبة ، بل أعطاهم نعما متعددة ، فلم يشكروه . تعالى . عليها ، واستمروا على ذلك ، حتى جاءهم الحق ، فلم يؤمنوا به ، ولا بمن حمله إليهم وهو الرسول المبين ﷺ .

ومن الآيات التي تدل على أن ذرية إبراهيم كان منها المؤمن ، وكان منها الكافر. قوله . تعالى . : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ ، وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ [1].

ثم بين . سبحانه . موقفهم من الحق الذي جاءهم به الرسول ﷺ فقال : ﴿وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ﴾.

أى : وحين جاءهم الرسول ﷺ بالحق من عند ربهم ، لكي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .. قالوا . على سبيل الجحود والعناد . : هذا الذي جئتنا به نوع من السحر ، وإنا به كافرون مكذبون.

والتعبير بقوله : ﴿جاءَهُمُ﴾ يشعر بأن الحق قد وصل إليهم دون أن يتعبوا أنفسهم في البحث عنه ، ومع ذلك فقد استقبلوه بالجحود والإنكار.

ثم حكى . سبحانه . لونا آخر من ألوان حسدهم وعنادهم فقال : ﴿وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

والمراد بالقريتين مكة أو الطائف. ومقصودهما إحداهما ، كالوليد بن المغيرة من مكة ، وكعروة بن مسعود من الطائف ..

ويعنون بالعظم : كثرة المال ، والرئاسة في قومه.

أى : وقال هؤلاء المشركون . على سبل العناد والحسد . : هلا أنزل هذا القرآن ، الذي يقرؤه علينا محمد ﷺ على رجل عظيم في ماله وسلطانه ، ويكون من إحدى هاتين القريتين ، وهما مكة أو الطائف.

فهم لجهلهم وانطماس بصائرهم ، استكثروا أن ينزل هذا القرآن على محمد ﷺ الذي وإن كان في القمة من الشرف والسمو بين قومه إلا أنه لم يكن أكثرهم مالا وسلطانا ، وهم يريدون أن تكون النبوة في زعيم من زعمائهم ، أو رئيس من رؤسائهم.

---

(١) سورة الحديد. الآية ٢٦.

وهذا منهم ـ كما يقول الآلوسى ـ لجهلهم بأن رتبة الرسالة ، إنما تستدعى عظيم النفس ، بالتخلي عن الرذائل الدنية ، والتحلي بالكمالات والفضائل القدسية ، دون التزخرف بالزخارف الدنيوية (١).

وقد وبخهم الله ـ تعالى ـ على جهلهم هذا بقوله : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ..﴾ فالاستفهام للإنكار والتهكم بهم ، والتعجب من تفكيرهم.

والمراد بالرحمة : ما يشمل النبوة ، وما أنزله على نبيه ﷺ من وحى ، وما منحه إياه من خلق كريم ، وخير عميم.

أى : كيف بلغ الجهل والغباء بهؤلاء المشركين إلى هذه الدرجة؟ إنهم ليس بيدهم ولا بيد غيرهم عطاء ربك ، وليس عندهم مفاتيح الرسالة ليضعوها حيث شاءوا ، وليختاروا لها من أرادوا. ومادام الأمر كذلك فكيف يعترضون على نزول القرآن عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ؟.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر قدرته في خلقه فقال : ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ...﴾ أى : نحن قسمنا بينهم أرزاقهم في هذه الدنيا ، ولم نترك تقسيمها لأحد منهم ، ونحن الذين ـ بحكمتنا ـ تولينا تدبير أسبابها ولم نكلها إليهم لعلمنا بعجزهم وقصورهم. ونحن الذين رفعنا بعضهم فوق بعض درجات في الدنيا ، فهذا غنى وذاك فقير ، وهذا مخدوم ، وذاك خادم ، وهذا قوى ، وذاك ضعيف.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ الحكمة من هذا التفاوت في الأرزاق فقال : ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾.

أى : فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضا في حوائجهم ، ويعاون بعضهم بعضا في مصالحهم ، وبذلك تنتظم الحياة ، وينهض العمران. ويعم الخير بين الناس ، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدر الله ـ تعالى ـ له من رزق واستعداد ..

ولو أنا تركنا أمر تقسيم الأرزاق إليهم لتهارجوا وتقاتلوا ، وعم الخراب في الأرض ، لأن كل واحد منهم يريد أن يأخذ ما ليس من حقه ، لأن الحرص والطمع من طبيعته.

وإذا كان هذا هو حالهم بالنسبة لأمور دنياهم فكيف أباحوا لأنفسهم التحكم في منصب النبوة ، وهو بلا شك أعلى شأنا ، وأبعد شأوا من أمور الدنيا.

وقوله ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين ـ من التسخير ، بمعنى تسخير بعضهم لبعض وخدمة

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ٧٨.

بعضهم لبعض ، وعمل بعضهم لبعض ، فالغنى ـ مثلا ـ يقدم المال لغيره ، نظير ما يقدمه له ذلك الغير من عمل معين ..

وبذلك تنتظم أمور الحياة ، وتسير في طريقها الذي رسمه ـ سبحانه ـ لها.

قال الجمل ما ملخصه : قوله : ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ أى : ليستخدم بعضهم بعضا ، فيسخر الأغنياء بأموالهم ، الأجراء الفقراء بالعمل ، فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض ، هذا بماله ، وهذا بأعماله ، فيلتئم قوام العالم ، لأن الأرزاق لو تساوت لتعطلت المعايش ، فلم يقدر أحد منهم أن ينفك عما جعلناه إليه من هذا الأمر الدنىء ، فكيف يطمعون في الاعتراض في أمر النبوة ، أيتصور عاقل أن نتولى قسم الناقص ، ونكل العالي إلى غيرنا ..؟ [1].

هذا ، والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها تقرر سنة من سنن الله ـ تعالى ـ التي لا تغيير لها ولا تبديل ، والتي تؤيدها المشاهدة في كل زمان ومكان ، فحتى الدول التي تدعى المساواة في كل شيء .. ترى سمة التفاوت في الأرزاق وفي غيرها واضحة جلية ، وصدق الله في قوله : ﴿وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ﴾.

ومن الآيات التي تشبه هذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ...﴾ [2].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ ، وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [3].

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذا التهوين لحطام الدنيا فقال : ﴿وَلَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً ، لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ ، وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ﴾.

و ﴿لَوْ لا﴾ حرف امتناع لامتناع. والكلام على حذف مضاف. والمراد بالأمة الواحدة : أمة الكفر. والمعارج جمع معرج وهي المصاعد التي يصعد عليها إلى أعلى.

أى : ولو لا كراهة أن يكون الناس جميعا أمة واحدة مجتمعة على الكفر حين يشاهدون سعة الرزق ، ورفاهية العيش ، ظاهرة بين الكافرين ..

لو لا كراهية ذلك. لجعلنا بمشيئتنا وقدرتنا ، لمن يكفر بالرحمن ، الشيء الكثير من حطام الدنيا ، بأن نجعل لبيوتهم سقفا من فضة ، ولجعلنا لهم مصاعد فخمة عليها يرقون إلى أعلى مساكنهم.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٨٤.

(٢) سورة النحل آية ٧١.

(٣) سورة الإسراء آية ٢١.

وجعلنا ـ أيضا ـ لبيوتهم أبوابا جميلة ، وسررا ثمينة ﴿عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ﴾ أى : على السرر يتكئون وهم جالسون فوقها.

﴿وَزُخْرُفاً﴾ أى : وجعلنا لهم زخرفا ، ليستعملوه في أسقف منازلهم ، وفي أبواب بيوتهم ، وفي غير ذلك من شئون حياتهم.

والزخرف : يطلق على الشيء الذي يتزين به. فيشمل الذهب والفضة ، وغيرهما مما يستعمله الناس في تزيين بيوتهم.

وقوله : ﴿وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى : وما كل ما ذكرناه من البيوت الموصوفة بما ذكرناه من الصفات السابقة ، إلا شيء يتمتع به المتمتعون في الحياة ، التي أمرها إلى زوال واضمحلال ..

أما الآخرة التي زينتها باقية لا تنتهي ولا تنقطع ، فهي عند ربك خاصة بالمؤمنين الصادقين ، الذين آثروا النعيم الباقي على النعيم الفاني ، فقدموا في دنياهم العمل الصالح ، الذي ينفعهم في أخراهم.

* * *

وبعد هذا الحديث الجامع عن هوان شأن الدنيا عند الله ـ تعالى ـ ، أتبع ـ سبحانه ـ ذلك ببيان حال الذين يعرضون عن ذكر الله ـ تعالى ـ ، وأنهم يوم القيامة لن ينفعهم ندمهم أو تحسرهم ، وسلى النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم عما أصابه منهم. فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي

وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٤٥)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يَعْشُ﴾ أى : يعرض. يقال عشا فلان يعشو ، كدعا يدعو ، وعشى يعشى ، كرضى يرضى ، إذا ضعف بصره ، ومنه قولهم : ناقة عشواء ، إذا كانت لا تبصر إلا شيئا قليلا ، والمراد هنا : عمى البصيرة وضعف إدراكها للخير. ومنه قولهم : ركب فلان العشواء ، إذا خبط أمره على غير هدى أو بصيرة.

والمعنى : ومن يتعام عن ذكر الرحمن ، ويعرض عن قرآنه ، ويتجاهل هدى الرسول ﷺ ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً﴾ أى ، نهيئ ونسبب له شيطانا رجيما يستولى عليه ، ويستحوذ على قلبه وعقله.

﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أى : فذلك الشيطان يكون ملازما ومصاحبا لهذا الإنسان الذي أعرض عن القرآن ، ملازمة القرين لقرينه ، والشيء لظله.

ومن الآيات التي تشبه هذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾ (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ الآثار التي تترتب على مقارنة الشيطان للإنسان فقال : ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

والضمير في ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ يعود إلى الشيطان باعتبار جنسه ، وفي قوله ـ تعالى ـ ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ يعود إلى ﴿وَمَنْ﴾ في قوله ﴿وَمَنْ يَعْشُ ...﴾ باعتبار معناها.

أى : ومن يعرض عن طاعة الله ، نهيئ له شيطانا ، فيكون ملازما له ملازمة تامة ، وإن هؤلاء الشياطين وظيفتهم أنهم يصدون هؤلاء الفاسقين عن ذكر الله ـ تعالى ـ ، وعن سبيله الحق وصراطه المستقيم.

---

(١) سورة فصلت الآية ٢٥.

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي : هؤلاء الكافرون ﴿أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إلى السبيل الحق. فالضمائر في قوله ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ وما بعده يعود إلى الكافرين.

ويصح أن يكون الضمير في قوله ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ يعود إلى الكفار ، وفي قوله ﴿أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يعود إلى الشيطان ، فيكون المعنى :

ويظن هؤلاء الكافرون أن الشياطين مهتدون إلى الحق ، ولذلك اتبعوهم وأطاعوهم.

ثم بين . سبحانه . ما يكون بين هذا الإنسان الكافر وبين قرينه من الشياطين يوم القيامة ، فقال . تعالى . : ﴿حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾.

أى : لقد استمر هذا المعرض عن ذكر الله في غيه. ومات على ذلك حتى إذا جاءنا يوم القيامة للحساب والجزاء ، ﴿قالَ﴾ لقرينه الذي صده عن طريق الحق ..

﴿يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أى : أتمنى أن تكون المسافة التي بيني وبينك من البعد والمفارقة ، كالمسافة التي بين المشرق والمغرب.

فالمراد بالمشرقين المشرق والمغرب فعبر . سبحانه . بالمشرقين على سبيل التغليب لأحدهما على الآخر.

﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أى : فبئس القرين أنت . أيها الشيطان . فالمخصوص بالذم محذوف.

ثم بين . سبحانه . بعد ذلك ما سيقال لهذا العاشى عن ذكر الله ولقرينه على سبيل التأنيب والتوبيخ فقال : ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ ...﴾.

والضمير في قوله : ﴿يَنْفَعَكُمُ﴾ يعود إلى التمني المذكور في قوله : ﴿يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ...﴾ و ﴿إِذْ﴾ ظرف لما مضى من الزمان ، بدل من ﴿الْيَوْمَ﴾.

أى : ولن ينفعكم ندمكم وتمنيكم اليوم شيئا ، بعد أن تبين لكم أنكم كنتم ظالمين في الدنيا ، ومصرين على الكفر والضلال.

وقوله : ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تعليل لما قبله. أى : ولن ينفعكم اليوم تمنيكم وندمكم لأنكم في هذا اليوم أنتم وقرناءكم مشتركون في العذاب ، كما كنتم في الدنيا مشتركين في سببه ، وهو الكفر والضلال.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ في محل الرفع على الفاعليه. يعنى : ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر

الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم في تحمل أعبائه. لأن كل واحد منكم ، به من العذاب ما هو فوق طاقته ..

ولك أن تجعل الفاعل التمني في قوله : ﴿يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ...﴾ على معنى : ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمنى مباعدة القرين ، وقوله : ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تعليل ، أى : ولن ينفعكم تمنيكم ، لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب ... وتقويه قراءة من قرأ ﴿أَنَّكُمْ﴾ بالكسر [1].

وبعد هذا التوبيخ الشديد للمعرض عن ذكر الله ولشيطانه ، يوجه الله ـ تعالى ـ خطابه لنبيه ﷺ ليزيده تسلية وتثبيتا فيقول : ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

والاستفهام للنفي أى : أفأنت ـ أيها الرسول الكريم ـ تستطيع أن تسمع الصم صوتك ، أو أن تهدى الذين انطمست بصائرهم إلى الطريق الحق. أو أن تخرج من كان في الضلال الواضح إلى الهدى والرشاد؟

كلا إنك لن تستطيع ذلك ، لأن الهداية والإضلال ، من الله ـ تعالى ـ وحده. وأنت ـ أيها الرسول الكريم ـ عليك البلاغ ونحن علينا الحساب.

فالمقصود من الآية الكريمة تسلية الرسول ﷺ ونهيه من أن يضيق صدره بسبب إعراضهم المستمر عن دعوة الحق ، وبيان أن الهداية والإضلال بيد الله ـ تعالى ـ وحده.

وسماهم ـ سبحانه ـ صما وعميا ، مع أنهم يسمعون ويبصرون ، لأنهم بمنزلة الصم والعمى في عدم انتفاعهم بالهدى والرشاد الذي جاءهم به ﷺ.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ معطوف على العمى والصم باعتبار تغاير الصفات.

أى : أنت ـ أيها الرسول الكريم ـ لن تستطيع هداية من كان أصم وأعمى ، ومن كان مصرا على الضلال المبين وما دام الأمر كذلك فسر في طريقك ، دون أن تذهب نفسك عليهم حسرات ..

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ زيادة في تسليته وتثبيته ﷺ.

أى : أن أمرك ـ أيها الرسول الكريم ـ مع هؤلاء الظالمين لا يخلو عن حالين : إما أن

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٥٢.

نتوفينك قبل أن ترى نقمتنا منهم .. وفي هذه الحالة فسنتولى نحن عذابهم والانتقام منهم ، حسب إرادتنا ومشيئتنا ، وإما أن نبقى حياتك حتى ترى بعينيك العذاب الذي توعدناهم به ، فإنا عليهم وعلى غيرهم مقتدرون على تنفيذ ما نتوعد به من دون أن يستطيع أحد الإفلات من قبضتنا وقدرتنا.

قال ابن كثير : أى : نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله . تعالى . رسوله ، حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكمه في نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم [1].

وشبيه بهذه الآية قوله . تعالى . : ﴿وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ﴾ [2].

والفاء في قوله . تعالى . : ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ...﴾ واقعة جوابا لشرط مقدر.

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك من أن أمرك مع هؤلاء المشركين لا يخلو عن حالين : فاستمسك . أيها الرسول الكريم . بما أوحينا إليك من هدايات وإرشادات ﴿إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وطريق قويم لا عوج فيه ولا اضطراب.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أى : هذا القرآن ﴿لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أى : لشرف عظيم لك ولشرف عظيم لأهل مكة الذين بعثت فيهم بصفة خاصة ، ولغيرهم ممن آمن بك بصفة عامة كما قال . تعالى . : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ...﴾ أى : عزكم وشرفكم.

وقوله : ﴿وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ تحذير من مخالفة ما اشتمل عليه هذا القرآن من أحكام وآداب وتشريعات.

أى : وسوف تسألون يوم القيامة عنه ، وعن القيام بحقه ، وعن مقدار تمسككم بأوامره ونواهيه وعن شكركم لله . تعالى . على منحكم لهذه النعمة.

ثم أضاف . سبحانه . إلى هذا التثبيت لنبيه ﷺ تثبيتا آخر فقال : ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

والمقصود من الآية الكريمة بيان أن الرسل جميعا ، قد دعوا أقوامهم إلى عبادة الله . تعالى . وحده ، كما قال . سبحانه . : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [3].

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢١٥.

(٢) سورة الرعد الآية ٤٠.

(٣) سورة النحل الآية ٣٦.

وكما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (١).

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لاستحالته ، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم ، وأنهم ما جاءوا قط بعبادة الأوثان ، وإنما جاءوا بالأمر بعبادة الله ـ تعالى ـ وحده ..

وقيل : إن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم جمع الله له الأنبياء ، في ليلة الإسراء في بيت المقدس ، فصلى بهم إماما ، وقيل له سلهم : فلم يتشكك ولم يسأل.

وقيل معناه ، سل أمم من أرسلنا من قبلك ، وهم أهل الكتابين : التوراة والإنجيل فإذا سألهم فكأنما سأل ـ رسلهم ـ فالكلام على حذف مضاف (٢).

فالآية الكريمة تقرر على كل الوجوه بأبلغ أسلوب ، أن جميع الرسل قد جاءوا بعقيدة واحدة ، وبدين واحد ، هو عبادة الله ـ تعالى ـ ونبذ كل معبود سواه.

* * *

ثم تمضى السورة الكريمة في تسليتها للرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم وفي تثبيتها للمؤمنين ، فتذكر جانبا من قصة موسى ـ عليه‌السلام ـ مع فرعون ، وكيف أن فرعون سخر من دعوة موسى ـ عليه‌السلام ـ وتباهي على قومه بذلك ، وكيف أنه استخف بهم فأطاعوه ، فكانت عاقبته وعاقبتهم أن أغرقهم الله جميعا. قال ـ تعالى ـ :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (٤٧) وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٥٤.

رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ (٥٦)

وقصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ومع بنى إسرائيل ، على رأس القصص التي تكرر الحديث عنها في القرآن الكريم ، في سور متعددة ، وذلك لما فيها من مساجلات ومحاورات بين أهل الحق وأهل الباطل ، ولما فيها من عبر وعظات لقوم يعقلون.

لقد وردت هذه القصة في سور : البقرة ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، والإسراء ، وطه ، والقصص ، والصافات ، وغافر .. ولكن بأساليب متنوعة يكمل بعضها بعضا.

وهنا تبدأ هذه القصة بقوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ ، فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

أى : والله لقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - ﴿بِآياتِنا﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، والتي على رأسها اليد والعصا .. وأرسلناه بهذه الآيات ﴿إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ أى : أشراف قومه فقال لهم ناصحا ومرشدا : ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ إليكم ، لآمركم بعبادة الله - تعالى - : وحده ، وأنهاكم عن عبادة غيره.

﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ﴾ أى : فحين جاء موسى - عليه السلام - .

إلى فرعون وملئه بآياتنا الدالة على قدرتنا ، سارعوا إلى الضحك منها ، والسخرية بها ، بدون تأمل أو تدبر ، شأن المغرورين الجهلاء.

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ﴾ جواب ﴿فَلَمَّا﴾ والتعبير يشير إلى مسارعتهم إلى السخرية والاستخفاف بالآيات التي جاء بها موسى ـ عليه‌السلام ـ ، مع أن هذه الآيات كانت تقتضي منهم التدبر والتفكر لو كانوا يعقلون.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها ...﴾ بيان لقسوة قلوبهم ، وعدم تأثرها بالآيات والمعجزات.

أى : وما نريهم من آية دالة على صدق نبينا موسى ، إلا وتكون هذه الآية أكبر من أختها السابقة عليها ، في الدلالة على ذلك ، مع كون الآية السابقة عظيمة وكبيرة في ذاتها.

والمقصود بالجملة الكريمة ، بيان أن هؤلاء القوم لم يأتهم موسى ـ عليه‌السلام ـ بآية واحدة تشهد بصدقه فيما جاءهم به من عند ربه ، وإنما أتاهم بمعجزات متعددة ، وكل معجزة أدل على صدقه مما قبلها.

ويصح أن يكون المراد وصف الجميع بالكبر ، على معنى أن كل واحدة لكمالها في ذاتها ، إذا نظر إليها الناظر ، ظنها أكبر من البواقي لاستقلالها بإفادة الغرض الذي جاءت من أجله.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : والغرض بهذا الكلام ، أنهن موصوفات بالكبر ، لا يكدن يتفاوتن فيه ، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل. وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير ، أن تختلف آراء الناس في تفضيلها ، فيفضل بعضهم هذا ، وبعضهم ذاك ، فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا : رأيت رجالا بعضهم أفضل من بعض ، وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها ، فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك ، ومنه بيت الحماسة : من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها السارى [1] وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بيان للمصير السيئ الذي آلوا إليه.

أى : وأخذناهم بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصي ، بالعذاب الدنيوي الشديد لكي يرجعوا عما هم عليه من كفر وفسوق ، ولكنهم لم يرجعوا.

فالمراد بالعذاب هنا العذاب الدنيوي ، الذي أشار إليه ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿فَأَرْسَلْنا

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٥٥.

عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ ، آياتٍ مُفَصَّلاتٍ ، فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ .. ﴾ (1).

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قالوه بعد أن نزل بهم العذاب ، فقال : ﴿**وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ**﴾.

وجمهور المفسرين على أن قولهم هذا ، كان على سبيل التعظيم لموسى ـ عليه‌السلام ـ لأنهم كانوا يوقرون السحرة ، ويعتبرونهم العلماء.

قال ابن كثير : قوله ﴿**يا أَيُّهَا السَّاحِرُ**﴾ أى : العالم ... وكان علماء زمانهم هم السحرة ، ولم يكن السحر عندهم في زمانهم مذموما ، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص ، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه ، فهي تقتضي تعظيمهم لموسى ـ عليه‌السلام ـ ... (2).

وما في قوله : ﴿**بِما عَهِدَ عِنْدَكَ**﴾ مصدرية : أى : بعهده عندك ، والمراد بهذا العهد : النبوة. وسميت عهدا ، لأن الله ـ تعالى ـ عاهد نبيه أن يكرمه بها ، أو لأن لها حقوقا تحفظ كما يحفظ العهد.

وقوله : ﴿**إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ**﴾ مرتب على كلام محذوف.

أى : وحين أخذنا فرعون وقومه بالعذاب ، قالوا لموسى ـ على سبيل التذلل والتعظيم من شأنه ـ يا أيها الساحر الذي غلبنا بسحره وعلمه ، ادع لنا ربك بحق عهده إليك بالنبوة ، لئن كشف عنا ربك هذا العذاب الذي نزل بنا ﴿**إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ**﴾ أى إننا لمؤمنون ثابتون على ذلك ، متبعون لك في كل ما تأمرنا به أو تنهانا عنه.

فدعا موسى ـ عليه‌السلام ـ ربه أن يكشف عنهم العذاب ، فأجاب الله دعوته بأن كشف عنهم ، فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أنهم نقضوا عهودهم ، واستمروا على كفرهم ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿**فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ**﴾ أى : فحين كشفنا عنهم العذاب الذي حل بهم ﴿**إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ**﴾ أى : إذا هم ينقضون عهدهم بالإيمان فلا يؤمنون. يقال : نكث فلان عهده ونقضه ، إذا لم يف به.

ومن سوء أدبهم أنهم قالوا : ادع لنا ربك ، فكأن الله ـ تعالى ـ رب موسى وحده ، وليس ربا لهم.

وشبيه بهاتين الآيتين قوله ـ تعالى ـ : ﴿**وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا**

---

(1) سورة الأعراف الآية ١٣٣.

(2) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٠٧.

رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ، وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (١).

ثم حكى ـ سبحانه ـ جانبا من طغيان فرعون وفجوره ، واستخفافه بعقول قومه فقال :

﴿وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ...﴾ أى : أن فرعون جمع زعماء قومه ، وأخبرهم بما يريد أن يقول لهم.

أو أنه أمر مناديا ينادى في قومه جميعا ، ليعلمهم بما يريد إعلامهم به ، وأسند ـ سبحانه ـ النداء إلى فرعون ، لأنه هو الآمر به.

والتعبير بقوله : ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ يشعر بأن النداء قد وصل إليهم جميعا ودخل في قلوبهم.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ...﴾ حكاية لما قاله فرعون لقومه.

أى : أن فرعون جمع عظماء قومه ، وقال لهم ـ بعد أن خشي إيمانهم بموسى : ﴿يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ بحيث لا ينازعني في ذلك منازع ، ولا يخالفني في ذلك مخالف ، فالاستفهام للتقرير.

وفضلا عن ذلك فإن هذه الأنهار التي ترونها متفرعة من النيل تجرى تحت قدمي ، أو من تحت قصرى.

﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك ، وتستدلون به على قوة أمرى ، وسعة ملكي ، وعظم شأنى فمفعول ﴿تُبْصِرُونَ﴾ محذوف ، أى : أفلا تبصرون عظمتي.

و ﴿أَمْ﴾ في قوله : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾ هي المنقطعة المقدرة بمعنى بل التي هي للاضراب ، والإشارة بهذا تعود لموسى ـ عليه‌السلام ـ.

أى : بل أنا خير من هذا الذي هو فقير وليس صاحب ملك أو سطوة أو مال .. وفي الوقت نفسه ﴿لا يَكادُ يُبِينُ﴾ أى : لا يكاد يظهر كلامه لعقدة في لسانه.

ثم أضاف إلى ذلك قوله ـ كما حكى القرآن عنه : ﴿فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾.

والأسورة : جمع سوار ، وهو كناية عن تمليكه ، وكانوا إذا ملكوا رجلا عليهم ، جعلوا في يديه سوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب ، علامة على أنه ملكهم.

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٣٤ ، ١٣٥.

أى : فهلا لو كان موسى ملكا أو رسولا ، أن يحلى نفسه بأساور من ذهب ، أو جاء إلينا ومعه الملائكة محيطين به ، ومتقارنين معه ، لكي يعينوه ويشهدوا له بالنبوة.

ولا شك أن هذه الأقوال التي تفوه بها فرعون ، تدل على شدة طغيانه ، وعلى عظم غروره ، وعلى استغلاله الضخم لغفلة قومه وسفاهتهم وضعفهم.

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال ما ملخصه : وهذا الذي قاله فرعون ـ لعنه الله ـ كذب واختلاق ، وإنما حملة على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى ـ عليه السلام ـ بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوى الألباب.

وقوله : (وَلا يَكادُ يُبِينُ) افتراء ـ أيضا ـ فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل ربه أن يحل عقدة من لسانه ، فاستجاب الله ـ تعالى ـ له وفرعون إنما أراد بهذا الكلام ، أن يروج على رعيته ، لأنهم كانوا جهلة أغبياء .. [1].

وقوله ـ تعالى ـ : (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ) بيان لما كان عليه فرعون من لؤم وخداع ، ولما كان عليه قومه من جبن وخروج على طاعة الله ـ تعالى ..

أى : وبعد أن قال فرعون لقومه ما قال من تطاول على موسى ـ عليه السلام ـ طلب منهم الخفة والسرعة والمبادرة إلى الاستجابة لما قاله لهم ، فأجابوه إلى طلبه منهم ، لأنهم كانوا قوما خارجين على طاعتنا ، مؤثرين الغي على الرشد ، والضلالة على الهداية ..

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبتهم فقال : (فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ).

وقوله : (آسَفُونا) أى : أغضبونا أشد الغضب ، من أسف فلان أسفا ، إذا اشتد غضبه و (سَلَفاً) أى : قدوة لمن بعدهم من الكفار في استحقاق مثل عقوبتهم. وهو مصدر وصف به على سبيل المبالغة ، ولذا يطلق على القليل والكثير. يقال : سلفه الشيء سلفا ، إذا تقدم ومضى. وفلان سلف له عمل صالح ، أى : تقدم له عمل صالح ومنه : الأسلاف ، أى : المتقدمون على غيرهم.

أى : فلما أغضبنا فرعون وقومه أشد الغضب ، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان ، انتقمنا منهم انتقاما شديدا ، حيث أغرقناهم أجمعين في اليم.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢١٨.

﴿فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً﴾ أى قدوة لمن بعدهم في الكفر في استحقاق مثل عقوبتهم كما جعلناهم ﴿مَثَلاً﴾ أى: عبرة وموعظة ﴿لِلْآخِرِينَ﴾ الذين يعملون مثل أعمالهم..

وبذلك نرى في هذه الآيات الكريمة، جانبا من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه.

ويتجلى في هذا الجانب من القصة طغيان فرعون، واستخفافه بعقول قومه، ومجاهرته بالكذب والفجور.. فكانت عاقبتهم جميعا الدمار والبوار.

ثم انتقلت السورة الكريمة من الحديث عن جانب من قصة موسى، إلى الحديث عن جانب من قصة عيسى - عليه السلام - فقال - تعالى -:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٦)

ذكر المفسرون في سبب نزول قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ...﴾ روايات منها : أنه لما نزل قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا ...﴾ تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد ﷺ إلا أن نتخذه إلها ، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم فأنزل الله ـ تعالى ـ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ...﴾.

وقال الواحدي : أكثر المفسرين على أن هذه الآية ، نزلت في مجادلة ابن الزبعرى ـ قبل أن يسلم ـ مع النبي ﷺ فإنه لما نزل قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ...﴾.

قال ابن الزبعرى خصمتك ـ يا محمد ـ ورب الكعبة. أليست النصارى يعبدون المسيح ، واليهود يعبدون عزيرا ، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار ، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا في النار؟.

فقال له النبي ﷺ : «ما أجهلك بلغة قومك؟ أما فهمت أن ما لما لا يعقل»؟. وفي رواية أنه ﷺ قال له : «إنهم يعبدون الشيطان» وأنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ..﴾ (١).

وكلمة ﴿يَصِدُّونَ﴾ قرأها الجمهور بكسر الصاد. وقرأها ابن عامر والكسائي بضم الصاد. وهما بمعنى واحد. ومعناهما : يضجون ويصيحون فرحا. يقال : صد يصد ـ بكسر الصاد وضمها ـ بمعنى ضج ـ كعكف ـ بضم الكاف وكسرها.

ويرى بعضهم أن ﴿يَصِدُّونَ﴾ ـ بكسر الصاد ـ بمعنى : يضجون ويصيحون ويضحكون ... وأن ﴿يَصِدُّونَ﴾ ـ بضم الصاد ـ بمعنى يعرضون. من الصد بمعنى الإعراض عن الحق.

والمعنى : وحين ضرب ابن الزبعرى ، عيسى ابن مريم مثلا ، وحاجك بعبادة النصارى له ، فاجأك قومك ـ كفار قريش ـ بسبب هذه المحاجة ، بالصياح والضجيج والضحك ، فرحا منهم بما قاله ابن الزبعرى ، وظنا منهم أنه قد انتصر عليك في الخصومة والمجادلة.

فمن في قوله ﴿مِنْهُ﴾ الظاهر أنها للسببية ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً ...﴾.

والمراد بالمثل هنا : الحجة والبرهان.

قال الآلوسى : والحجة لما كانت تسير مسير الأمثال شهرة ، قيل لها مثل. أو المثل بمعنى

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٢٠. والشوكانى ج ٤ ص ٥٦١. والآلوسى ج ٢٥ ص ٩٤.

المثال. أى : جعله مقياسا وشاهدا على إبطال قوله ﷺ : إن آلهتهم من حصب جهنم ، وجعل عيسى . عليه السلام . نفسه مثلا من باب : الحج عرفة [1].

ثم بين . سبحانه . أقوالهم التي بنوا عليها باطلهم فقال : ﴿وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ...﴾؟ والضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى عيسى . عليه السلام ..

ومرادهم بالاستفهام تفضيل عيسى . عليه السلام . على آلهتهم ، مجاراة للنبي ﷺ .

فكأنهم يقولون : لقد أخبرتنا بأن عيسى ابن مريم رسول من رسل الله . تعالى . وأنه خير من آلهتنا .. فإن كان في النار يوم القيامة لأن الله . تعالى . يقول : ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا في النار.

وقد أبطل الله زعمهم هذا بقوله : ﴿ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً﴾.

أى : لا تهتم . أيها الرسول الكريم . بما قالوه ، فإنهم ما ضربوا لك هذا المثل بعيسى إلا من أجل مجادلتك بالباطل ، وليس من أجل الوصول إلى الحق.

وقوله : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ مؤكد لما قبله من كونهم قالوا ذلك لأجل الجدل بالباطل ، لا لطلب الحق ، وإضراب عن مزاعمهم وعن مجاراتهم في خصومتهم.

أى : ذرهم . أيها الرسول الكريم . في باطلهم يعمهون ، فإنهم قوم مجبولون على الخصومة ، وعلى اللجاج في الباطل.

فقوله : ﴿خَصِمُونَ﴾ جمع خصم . بفتح فكسر . وهو الإنسان المبالغ في الجدل والخصومة ، دون أن يكون هدفه الوصول إلى الحق.

وجاء التعبير في قوله : ﴿ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً﴾ بصيغة الجمع ، مع أن ضارب المثل واحد ، وهو ابن الزبعرى ، لأن إسناد فعل الواحد إلى الجماعة ، من الأساليب المعروفة في اللغة العربية ، ومنه قول الشاعر :

فسيف بنى عبس وقد ضربوا به ... نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

فإنه قد نسب الضرب إلى جميع بنى عبس ، مع تصريحه بأن الضارب واحد ، وهو ورقاء .. ولأنهم لما أيدوا ابن الزبعرى في قوله ، فكأنهم جميعا قد قالوه ..

ثم بين . سبحانه . حقيقة عيسى . عليه السلام . فقال : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ ، وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾.

---

(1) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ٩٢.

أى : ليس هو أى : عيسى . عليه السلام . إلا عبد من عبادنا الذين أنعمنا عليهم بنعمة النبوة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً﴾ أى : أمرا عجيبا ، جديرا بأن يسير ذكره كالأمثال ﴿لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾ الذين أرسلناه إليهم ، حيث خلقناه من غير أب ، وأعطيناه المعجزات الباهرات التي منها : إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ... وهذا كله دليل على وحدانيتنا ، وكمال قدرتنا ونفاذ إرادتنا.

فالآية الكريمة ترفع من شأن عيسى . عليه السلام . ، وتحدد منزلته ، وتنفى عنه غلو المغالين في شأنه ، وإنقاص المنقصين من قدره.

ثم أكد . سبحانه . كمال قدرته فقال : ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾.

و «من» في قوله . تعالى . ﴿مِنْكُمْ﴾ يصح أن تكون للبدلية ، فيكون المعنى : ولو نشاء إهلاككم أيها الكافرون لفعلنا ولجعلنا بدلا منكم ملائكة يخلفونكم بعد موتكم ، ولكنا لم نشأ ذلك لحكم نحن نعلمها.

ويصح أن تكون للتبعيض فيكون المعنى : ولو نشاء لجعلنا منكم يا رجال قريش ملائكة ، بطريق التوليد منكم ، من غير واسطة نساء ، فهذا أمر سهل علينا ، مع أنه أعجب من حال عيسى الذي تستغربونه ، لأنه جاء من غير أب ، مع أن الأم من طبيعتها الولادة.

فالمقصود بالآية الكريمة بيان أن قدرة الله . تعالى . لا يعجزها شيء ، وأن ما تعجبوا منه ، الله . تعالى . قادر على أن يأتى بما هو أعجب منه.

قال صاحب الكشاف : قوله ﴿وَلَوْ نَشاءُ﴾ لقدرتنا على خلق عجائب الأمور ، وبدائع الفطر ، ﴿لَجَعَلْنا مِنْكُمْ﴾ أى : لولدنا منكم يا رجال ﴿مَلائِكَةً﴾ يخلفونكم في الأرض ، كما يخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام .. وذات الله . تعالى . متعالية عن ذلك [1].

ثم بين . سبحانه . بعض ما يتعلق بعيسى . عليه السلام . فقال : ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾.

فالضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ يعود إلى عيسى لأن السياق في شأنه ، وقيل يعود إلى القرآن أو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وضعف ذلك لأن الكلام في شأن عيسى.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٦١.

والمراد بالعلم : العلامة ، واللام في قوله ﴿لِلسَّاعَةِ﴾ بمعنى على. والكلام على حذف مضاف.

والمعنى : وإن عيسى ـ عليه‌السلام ـ عند نزوله من السماء في آخر الزمان حيا ، ليكونن علامة على قرب قيام الساعة ، ودليلا على أن نهاية الدنيا توشك أن تقع ..

قال الآلوسى : ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى : عيسى عليه‌السلام ـ ﴿لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أى : أنه بنزوله شرط من أشراطها.

وقد نطقت الأخبار بنزوله ـ عليه‌السلام ـ في آخر الزمان ، فقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : لينزلن ابن مريم ، حكما عدلا فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد [١].

وقال ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ الصحيح أن الضمير يعود على عيسى ، فإن السياق في ذكره ، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة كما قال ـ تعالى ـ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ...﴾ أى : قبل موت عيسى.

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم «أنه أخبر بنزول عيسى قبل يوم القيامة ، إماما عادلا ، وحكما مقسطا» [٢].

وقوله : ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِها﴾ أى : فلا تشكن في وقوعها في الوقت الذي يشاؤه الله ـ تعالى ـ ، فقوله ﴿تَمْتَرُنَ﴾ من المرية بمعنى الشك والريب.

وقوله : ﴿وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى : واتبعوا ـ أيها الناس ـ ما جئتكم به من عند ربي ، فإن هذا الذي جئتكم به ، هو الطريق المستقيم الذي يوصلكم إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ﴾ أى : ولا يمنعنكم الشيطان بسبب وسوسته لكم ، عن طاعتي واتباعى ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أى : إن الشيطان عداوته لكم ظاهرة ، وكيده لكم واضح ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا. إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾.

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله عيسى ـ عليه‌السلام ـ لقومه ، عند ما بعثه الله إليهم

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ٩٥.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٢٣.

فقال : ﴿وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ ، قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾.

والبينات : جمع بينة. وهي صفة لموصوف محذوف ، والمراد بها : المعجزات التي أيد الله ـ تعالى ـ بها عيسى ـ عليه‌السلام ـ ..

والمراد بالحكمة : التشريعات والتكاليف والمواعظ التي أرشدهم إليها ، عن طريق الكتاب الذي أنزله الله تعالى إليه ، وهو الإنجيل.

أى : وحين جاء عيسى ـ عليه‌السلام ـ إلى قومه ، قال لهم على سبيل النصح والإرشاد : يا قوم لقد جئتكم بالمعجزات البينات الواضحة التي تشهد بصدقى وجئتكم بالإنجيل المشتمل على ما تقتضيه الحكمة الإلهية من آداب وتشريعات ومواعظ.

وقوله : ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ متعلق بمحذوف والتقدير : قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ، وجئتكم ـ أيضا ـ لأبين لكم ولأصحح لكم بعض الأمور التي تختلفون فيها.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ولم يقل كل الذي تختلفون فيه ، للإشعار بالرحمة بهم ، وبالستر عليهم ، حيث بين البعض وترك البعض الآخر ، لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا بين لهم كل الذي يختلفون فيه؟ قلت : كانوا يختلفون في الديانات ، وما يتعلق بالتكليف ، وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه ، وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم .. [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، فاتقوا الله ـ تعالى ـ بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه ، وبأن تطيعوني في كل ما آمركم به أو أنهاكم عنه.

وإن الله ـ تعالى ـ هو ربي وربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ، وهذا الذي آمركم به أو أنهاكم عنه ، هو الطريق القويم ، الذي يوصلكم إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف أهل الكتاب من دعوة عيسى ـ عليه‌السلام ـ فقال : ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ...﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦٢.

والأحزاب : جمع حزب. والمراد بهم الفرق التي تحزبت وتجمعت على الباطل من بعد عيسى.

وضمير الجمع في قوله ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ يعود إلى من بعث إليهم عيسى ـ عليه السلام ـ من اليهود والنصارى.

وقيل : يعود إلى النصارى خاصة ، لأنهم هم الذين اختلفوا في شأنه ، فمنهم من قال : هو الله ومنهم من قال : هو ابن الله. ومنهم من قال : ثالث ثلاثة.

قال الآلوسى : قوله : ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ﴾ أى : الفرق المتحزبة ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أى : من بين من بعث إليهم ، وخاطبهم بما خاطبهم من اليهود والنصارى وهم أمة دعوته ـ عليه السلام ـ..

وقيل : المراد النصارى ، وهم أمة إجابته ، وقد اختلفوا فرقا : ملكانية ، ونسطورية ، ويعقوبية [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ بيان للعقاب الشديد الذي أعده الله ـ تعالى ـ لهم ، بسبب اختلافهم وبغيهم ، ونسبتهم إلى عيسى ما هو برىء منه.

أى : فهلاك وعذاب شديد للذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وبافترائهم على عيسى ـ عليه السلام ـ ، وما أشد حسرتهم في هذا اليوم العصيب.

والاستفهام في قوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ للنفي.

وينظرون بمعنى : ينتظرون. والخطاب لكفار مكة الذين أعرضوا عن دعوة الحق.

أى : ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا قيام الساعة ، وهذا القيام سيأتيهم فجأة ، وبدون شعور منهم بها ، وحينئذ يندمون ولن ينفعهم الندم ، ولو كانوا عقلاء لاتبعوا الحق الذي جاءهم به رسولنا صلى الله عليه وسلم ، قبل فوات الأوان.

فالآية الكريمة دعوة لهؤلاء المشركين إلى الاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لما يصلحهم ، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها. فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ﴾.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ٩٧.

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد وبخت المشركين على جدالهم بالباطل وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، وبينت الحق في شأن عيسى - عليه السلام - وتوعدت المختلفين في أمره - اختلافا يتنافى مع ما جاءهم به - بالعذاب الشديد.

* * *

وبعد هذا الحديث عن جانب من قصة موسى ، وعن جانب من قصة عيسى - عليهما السلام - ، وعن موقف أقوامهما منهما .. بعد كل ذلك رسمت السورة الكريمة صورة واضحة لحسن عاقبة المؤمنين ، ولسوء عاقبة المكذبين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة ، فقال - تعالى - :

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً

﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٨٠)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿الْأَخِلَّاءُ﴾ جمع خليل بمعنى صديق. وسمى الأصدقاء أخلاء ، لأن المودة التي بينهم تخللت قلوبهم واختلطت بنفوسهم.

أى : الأصدقاء في الدنيا ، يصير بعضهم لبعض يوم القيامة أعداء ، لأنهم كانوا يجتمعون على الشرور والآثام في الدنيا ، وكانوا يتواصون بالبقاء على الكفر والفسوق والعصيان فلما جاء يوم القيامة ، وانكشفت الحقائق .. انقلبت صداقتهم إلى عداوة.

﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإن صداقتهم في الدنيا تنفعهم في الآخرة ، لأنهم أقاموها على الإيمان والعمل الصالح والطاعة لله رب العالمين.

فالآية الكريمة إنذار للكافرين الذين كانت صداقاتهم في الدنيا تقوم على محاربة الحق ، ومناصرة الباطل ... وبشارة عظيمة للمتقين الذين بنوا صداقتهم في الدنيا على طاعة الله ـ تعالى ـ ونصرة دينه ، والعمل بشريعته.

ثم بشر الله ـ تعالى ـ عباده بجملة من البشارات الكريمة ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ. ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾.

والخوف معناه : توقع ما يخشاه ويغتم له الإنسان في المستقبل. والحزن معناه : غم يلحق الإنسان من أجل شيء مضى.

وقوله : ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أى : تفرحون وتسرون سرورا عظيما يظهر حباره ـ بفتح الحاء وكسرها ـ أى : أثره الحسن على وجوهكم وأفئدتكم ، فهو من الحبر ـ بفتح الحاء والباء ـ بمعنى الأثر. ويصح أن يكون من الحبر ـ بسكون الباء ـ بمعنى الزينة وحسن الهيئة.

وبهذا ترى الآيات الكريمة قد نفت عنهم الخوف والحزن ، وفتحت لهم أبواب الجنة ، وأعلمتهم بأنهم سيكونون هم وأزواجهم في سرور دائم.

أى : يقول الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين يوم القيامة : يا عباد الذين شرفتكم بالإضافة إلى ذاتى ، لا خوف عليكم اليوم من أمر المستقبل ، ولا أنتم تحزنون على أمر مضى.

وقوله : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ في محل نصب ، صفة لقوله «يا عباد» أى : يا عباد الذين آمنوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق نبينا صلى‌الله‌عليه‌وسلم. وكانوا في

الدنيا مخلصين وجوههم لنا ، وجاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا ..

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ﴾ أى : ونساؤكم المؤمنات ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أى : تسرون وتتلذذون بتلك النعم التي أنعم بها ـ سبحانه ـ عليكم.

فالمراد بأزواجهم هنا : نساؤهم ، لأن في هذه الصحبة تلذذا أكثر ، ونعيما أكبر.

والإضافة في قوله ﴿أَزْواجُكُمْ﴾ للاختصاص التام ، فتخرج الأزواج غير المؤمنات.

ومنهم من يرى أن المراد بقوله ﴿وَأَزْواجُكُمْ﴾ : نظراؤكم وأشباهكم في الطاعة لله ـ تعالى ..

أى : ادخلوا الجنة أنتم وأشباهكم في الإيمان والطاعة ، دخولا لا تنالون معه إلا الفرح الدائم ، والسرور الذي لا انقطاع له.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ. هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ﴾.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر أخرى لتكريمه لهؤلاء العباد فقال : ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ ...﴾.

والصحاف : جمع صحفة ، وهي الآنية الواسعة الكبيرة التي توضع فيها الأطعمة.

والأكواب : جمع كوب وهو ما يوضع فيه الشراب.

وفي الكلام حذف يعرف من السياق ، والتقدير : يقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، فإذا ما دخلوها واستقروا فيها ، يطاف عليهم بأطعمة وأشربة في أوان من ذهب.

ولم تذكر الأطعمة والأشربة للعلم بها ، إذ لا معنى للطواف بالصحاف والأكواب وهي فارغة ..

﴿وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أى : وفي الجنة التي دخلوها كل ما تشتهيه الأنفس من أنواع المشتهيات ، وكل ما تتلذذ بين الأعين وتسر برؤيته.

﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيها خالِدُونَ﴾ خلودا أبديا لا نهاية له.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذا التكريم لعباده بقوله : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ﴾.

واسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ وخبره ﴿الْجَنَّةُ﴾ وما بعدهما صفة الجنة .. وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب على سبيل التشريف.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿وَتِلْكَ﴾ بالإفراد ، للإشعار بأن الخطاب لكل واحد من أهل الجنة ، على سبيل العناية به ، والإعلاء من شأنه.

أى : ويقال لهم يوم القيامة على سبيل التشريف : وهذه الجنة التي أورثتموها بسبب أعمالكم الصالحة في الدنيا ، لكم فيها فاكهة كثيرة ، وثمار شهية لذيذة ، منها تأكلون أكلا هنيئا مريئا.

وعبر بقوله ـ تعالى ـ ﴿أُورِثْتُمُوها﴾ للإشعار بأنها قد صارت إليهم بفضل الله وكرمه ، كما يصير الميراث إلى الوارث.

وقوله ﴿بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بيان للأسباب التي أوصلتهم إلى هذه المنازل العالية ، فإن أعمالهم الطيبة التي تقبلها الله ـ تعالى ـ منهم ، جعلتهم ـ بفضله وإحسانه ـ في أعلى الدرجات وأسماها.

وكعادة القرآن الكريم في المقارنة بين الأخيار والأشرار جاء الحديث عن سوء عاقبة الكافرين بعد الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، فقال ـ تعالى ـ ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ﴾.

أى : إن الكافرين بالحق ، الراسخين في الإجرام ، الكاملين فيه ، سيكونون يوم القيامة ، في عذاب جهنم خالدين فيه خلودا أبديا.

﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أى : لا يخفف عنهم العذاب ، فقوله ﴿يُفَتَّرُ﴾ مأخوذ من الفتور بمعنى الهدوء والسكون ، يقال : فترت الحمى ، إذا خفت حدتها ، وفتر المرض إذا سكن قليلا.

﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أى : وهم في هذا العذاب في أقصى درجات الحزن والذلة واليأس يقال : أبلس فلان إبلاسا ، إذا سكت عن الكلام سكوتا مصحوبا بالحزن وانقطاع الحجة.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن ما نزل بهؤلاء المجرمين من عذاب كان بسبب كفرهم فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾.

أى : نحن ما ظلمنا هؤلاء الكافرين بإنزال هذا العذاب المهين الدائم بهم ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم ، باستحبابهم العمى على الهدى ، وإيثارهم الغي على الرشد.

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض أقوالهم بعد نزول العذاب بهم فقال : ﴿وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ﴾.

والمراد بذلك سؤال مالك خازن النار ، واللام في قوله ﴿لِيَقْضِ﴾ لام الدعاء.

أى : وبعد أن طال العذاب على هؤلاء الكافرين ، نادوا في ذلة واستجداء قائلين لخازن

النار : يا مالك ادع لنا ربك كي يقضى علينا ، بأن يميتنا حتى نستريح من هذا العذاب.

فالمراد بالقضاء هنا : الإهلاك والإماتة ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ ..﴾ أى : فأهلكه.

وفي هذا النداء ما فيه من الكرب والضيق ، حتى إنهم ليتمنون الموت لكي يستريحوا مما هم فيه من عذاب.

وهنا يجيئهم الرد بما يزيدهم غما على غمهم ، وهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾ أى : قال مالك في الرد عليهم : إنكم ماكثون فيها بدون موت يريحكم من عذابها ، وبدون حياة تجدون معها الراحة والأمان.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ تأكيد منه ـ تعالى ـ وتقرير لرد مالك عليهم ، ومبين لسبب مكثهم فيها ..

أى : لقد جئناكم ـ أيها الكافرون ـ بالحق على ألسنة رسلنا الذين لم يتركوا وسيلة من الوسائل إلا وسلكوها معكم في الإرشاد إلى طريق الهدى ، ولكن أكثركم كان كارها للحق والهدى ، معرضا عنهما إعراضا كليا ، مصرا على كفره وشركه.

وعبر ـ سبحانه ـ بالأكثر لأن قلة منهم لم تكن كارهة للحق ، ولكنها كانت منقادة لأمر سادتها وكبرائها .. أما الذين كانوا يعرفون الحق ولكن يكرهونه ، فهم الزعماء والكبراء ، لأنهم يرون في اتباعه انتقاصا من شهواتهم وتصادما مع أهوائهم.

ثم وبخهم ـ سبحانه ـ على مكرهم ، وبين أنه مكر بائر خائب فقال : ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾.

و ﴿أَمْ﴾ هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة ، والجملة الكريمة كلام مستأنف مسوق لتأنيب المشركين على ما دبروه من كيد للرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم وللمؤمنين. والإبرام : الإتقان للشيء والإحكام له ، وأصله الفتل المحكم. يقال : أبرم فلان الحبل ، إذا أتقن فتله.

أى : بل أحكموا كيدهم للنبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ولأصحابه؟ إن كانوا يظنون ذلك فقد خاب ظنهم ، لأن مكرنا أعظم من مكرهم ، وكيدنا يزهق كيدهم ..

فالمقصود بالآية الكريمة الانتقال من عدم إجابة ندائهم ، إلى تأنيبهم على ما كان منهم في الدنيا من مكر بالحق وأهله ، وكيف أن هذا المكر السيئ كانت نتيجته الخسران لهم.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ ...﴾ توبيخ آخر لهم على جهلهم وانطماس بصائرهم.

والمراد بالسر هنا : حديثهم مع أنفسهم ، والمراد بنجواهم : ما تكلم به بعضهم مع بعض دون أن يطلعوا عليه أحدا غيرهم.

أى : بل أيظن هؤلاء الجاهلون أننا لا نعلم ما يتحدثون به مع أنفسهم ، وما يتحدثون به مع غيرهم في خفية واستتار.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أى : إذا كانوا يظنون ذلك فقد خابوا وخسروا ، فإننا نعلم سرهم ونجواهم. ورسلنا الذين يحفظون عليهم أعمالهم ، ملازمون لهم ، ويسجلون عليهم كل صغيرة وكبيرة.

وبعد هذا التهديد والوعيد لأولئك الكافرين .. تأخذ السورة الكريمة في تلقين الرسول ﷺ الحجة التي يجابههم بها ، وفي تسليته عما أصابه منهم ، وفي الثناء على الله ـ تعالى ـ بما هو أهله من تمجيد وتعظيم ، ثم تختتم بهذا النداء الخاشع من الرسول ﷺ لخالقه ـ عزّ وجلّ ـ فتقول :

﴿قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (٨١) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

و ﴿إِنْ﴾ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ ...﴾ يرى بعضهم أنها شرطية ، وأن الكلام مسوق على سبيل الفرض والتقدير.

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ ردا على هؤلاء الكافرين الذين نسبوا الولد إلى الله ـ تعالى ـ ، قل لهم : إن كان للرحمن ولد ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ فأنا أول العابدين لهذا الولد ، ولكن هذا الفرض قد ثبتت استحالته يقينا لا شك معه ، فما أدى إليه ، وما ترتب عليه من نسبتكم الولد إلى الله ـ تعالى ـ محال ـ أيضا ـ وإذا فأنا لا أعبد إلا الله ـ تعالى ـ وحده ، وأنزهه ـ سبحانه ـ عن الولد أو الشريك.

ومن الآيات الكريمة التي نفت عن الله ـ عزّ وجلّ ـ الولد قوله ـ تعالى ـ : ﴿بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١).

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا. تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً. وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ (٢).

ومن المفسرين الذين رجحوا أن تكون ﴿إِنَ﴾ هنا شرطية ، الإمام ابن جرير ، فقد قال بعد أن ذكر بعض الأقوال في ذلك : وأولى الأقوال عندنا بالصواب في ذلك ، قول من قال : معنى ﴿إِنَ﴾ الشرط الذي يقتضى الجزاء. ومعنى الكلام : قل يا محمد لمشركي قومك ، الزاعمين أن الملائكة بنات الله ، إن كان للرحمن ولد ـ على سبيل الفرض ـ فأنا أول العابدين. ولكنه لا ولد له فأنا أعبده لأنه لا ينبغي أن يكون له ولد.

وإذا وجه الكلام إلى ما قلنا من هذا الوجه ، لم يكن على وجه الشك ، ولكن على الإلطاف في الكلام ، وحسن الخطاب ، كما قال ـ جل ثناؤه ـ ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٣).

وقال الإمام ابن كثير : يقول ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾.

أى : لو فرض هذا لعبدته على ذلك ، لأنى عبد من عبيده ، مطيع لجميع ما أمرنى به ، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا كان هذا ، ولكن هذا ممتنع في حقه

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠١.

(٢) سورة مريم الآيات ٨٨ ـ ٩٢.

(٣) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٥ ص ٦١.

ـ تعالى ـ ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز ـ أيضا ـ كما قال ـ تعالى ـ : ﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١).

وقال صاحب الكشاف ـ ﷺ ـ : قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ ..﴾ وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح .. ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ أى : فأنا أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته ..

وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة في نفى الولد ، والإطناب فيه .. وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد ، وهي محال في نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها .. (٢).

ويرى بعض العلماء أن ﴿إِنْ﴾ في الآية نافية بمعنى ما ، فيكون المعنى : قل ـ أيها الرسول ـ لهؤلاء الكافرين : ما كان للرحمن من ولد ، وما صح وما أمكن ذلك ، فهو مستحيل عقلا وشرعا ... وما دام الأمر كذلك ، فأنا أول العابدين لله ـ تعالى ـ المنزهين له عن الولد والشريك وغيرهما.

قال الإمام القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ ...﴾ اختلف في معناه. فقال ابن عباس والحسن والسدى : المعنى : ما كان للرحمن ولد. ﴿إِنْ﴾ بمعنى ما ، ويكون الكلام على هذا تاما ، ثم تبتدى بقوله ـ تعالى ـ ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾.

وقيل المعنى : قل يا محمد ، إن ثبت له ولد ، فأنا أول من يعبد ولده ، ولكن يستحيل أن يكون له ولد ، وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل ، فأنا أول من يعتقده ، وهذا مبالغة في الاستبعاد ، أى : لا سبيل إلى اعتقاده ..

و ﴿إِنْ﴾ على هذا للشرط ، وهو الأجود.

وقيل إن معنى ﴿الْعابِدِينَ﴾ الآنفين. وقال بعض العلماء لو كان كذلك لكان العبدين .. بغير ألف ، يقال : عبد ـ بكسر الباء ـ يعبد عبدا ـ بفتحها ـ إذا أنف وغضب فهو عبد ، والاسم العبدة ، مثل الأنفة .. (٣).

ويبدو لنا أن الرأيين يؤديان إلى نفى أن يكون لله ـ تعالى ـ ولد وإن كان الرأى الأول ـ وهو أنّ حرف ﴿إِنْ﴾ للشرط ـ هو المتبادر من معنى الآية وعليه جمهور المفسرين.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٣٨.

(٢) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٦٥.

(٣) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ١٢٠.

ثم نزه - عز وجل - ذاته عن أقوال المفترين فقال: ﴿سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وسبحان: اسم مصدر بمعنى التنزيه والتقديس، منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل محذوف، أى: سبحت الله - تعالى - تسبيحا، ونزهته تنزيها، عن أن يكون له ولد أو شريك، فهو - عز وجل - رب السموات، ورب الأرض رب العرش العظيم، وهو المتعالي عن كل ما وصفه الكافرون والفاسقون من صفات لا تليق بجلاله.

وجاء هذا التنزيه والتقديس بلفظ ﴿سُبْحانَ﴾، لا بلفظ الفعل سبح أو يسبح، لأن النقص الذي أرادوا إلصاقه به شنيع، فكان من المناسب أن يؤتى بأقوى لفظ في التنزيه والتقديس.

وما في قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مصدرية، أى: عن وصفهم لله الولد، ويصح أن تكون موصولة والعائد محذوف. أى: عن الذي يصفونه به.

وفي إضافة رب إلى العرش، مع أنه أعظم الأجرام، تنبيه على أن جميع المخلوقات تحت ملكوته وربوبيته، فكيف يتخذ من خلقه ولدا؟.

والفاء في قوله - تعالى -: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا..﴾ للافصاح عن شرط مقدر.. أى: إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاترك هؤلاء الكافرين يخوضون في باطلهم، وينهمكون في لعبهم..

﴿حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة، الذي سنحاسبهم فيه حسابا عسيرا، ونعاقبهم بالعقوبة التي يستحقونها.

فالآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما لحقه منهم من أذى، وتهديد لأولئك الكافرين على أقوالهم الباطلة، وأفعالهم الشنيعة.

ثم أكد - سبحانه - أنه هو الإله الحق، وأن كل ما عداه باطل، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ، وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

والجار والمجرور في قوله ﴿فِي السَّماءِ﴾ و ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بلفظ ﴿إِلهٌ﴾، لأنه بمعنى معبود أو بمعنى مستحق للعبادة، وهذا اللفظ الكريم خبر مبتدأ محذوف، أى: هو إله..

أى: وهو - سبحانه - وحده المعبود بحق في السماء، والمعبود بحق في الأرض، لا إله غيره، ولا رب سواه، وهو - عز وجل - ﴿الْحَكِيمُ﴾ في كل أقواله وأفعاله ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء في هذا الوجود.

فالآية الكريمة تدل على أن المستحق للعبادة من أهل السماء ومن أهل الأرض ، هو الله ـ تعال ـ ، وكل معبود سواه فهو باطل.

قال الجمل ما ملخصه : قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ ..﴾ الجار والمجرور متعلق بلفظ إله ، لأنه بمعنى معبود في السماء ومعبود في الأرض ..

وبما تقرر من أن المراد بإله : معبود ، اندفع ما قيل من أن هذا يقتضى تعدد الآلهة ، لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت ، كقولك : أنت طالق وطالق.

وإيضاح هذا الاندفاع ، أن الإله بمعنى المعبود ، وهو ـ تعالى ـ معبود فيهما. والمغايرة إنما هي بين معبوديته في السماء ، ومعبوديته في الأرض ، لأن المعبودية من الأمور الإضافية فيكفى التغاير فيها من أحد الطرفين ، فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض ، صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض مع أن المعبود واحد ، وفيه دلالة على اختصاصه ـ تعالى ـ باستحقاق الألوهية ، فإن التقديم يدل على الاختصاص .. [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما﴾ ثناء منه ـ سبحانه ـ على ذاته بما هو أهله.

ولفظ ﴿تَبارَكَ﴾ فعل ماض ، أى تعالى الله وتعظم ، وزاد خيره وكثر إنعامه ، وهو مأخوذ من البركة ـ بفتح الراء ـ بمعنى الكثرة من كل خير .. أو من البرك ـ بسكون الراء ـ بمعنى الثبوت والدوام .. وكل شيء ثبت ودام فقد برك.

أى : وتعالى الله وتقدس ، وثبت خيره ، وزاد إنعامه ، فهو ـ سبحانه ـ الذي له ملك السموات والأرض ، وله ملك ما بينهما من مخلوقات أخرى لا يعملها أحد سواه.

﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى : وعنده وحده لا عند غيره العلم التام بوقت قيام الساعة.

فالمصدر وهو ﴿عِلْمُ﴾ مضاف لمفعوله وهو ﴿السَّاعَةِ﴾ والعالم بذلك هو الله ـ تعالى ـ ..

والمراد بالساعة : يوم القيامة ، وسميت بذلك لسرعة قيامها ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ...﴾.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى : وإليه وحده مرجعكم للحساب أو الجزاء ، وليس إلى أحد سواه ـ عزّ وجلّ ـ ..

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٩٨.

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه لا شفاعة لأحد إلا بإذنه ، فقال : ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون.

والمراد بالموصول في قوله : ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ ...﴾ الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله ـ تعالى ـ ، وهو فاعل ، وجملة ﴿يَدْعُونَ﴾ صلة لا محل لها من الإعراب ، والعائد محذوف.

والشفاعة من الشفع بمعنى الضم ، لأن الشفيع ينضم إلى المشفوع له ، فيصير شفعا بعد أن كان فردا.

والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِ﴾ متصل ، لأن المستثنى منه عام ، ثم استثنى منه الموحدون ، كعيسى ابن مريم.

والمعنى : ولا يملك المعبودون من دون الله ـ تعالى ـ الشفاعة لأحد من الناس ، إلا من شهد بالحق منهم ، وأخلص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده ، كعيسى ابن مريم ، وعزير ، والملائكة ، فهؤلاء يملكونها إذا أذن الله ـ سبحانه ـ لهم بها.

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا ، إذا كان المستثنى منه خاصا بالأصنام فيكون المعنى : ولا تملك الأصنام الشفاعة لأحد ، لكن من شهد بالحق وبوحدانية الله كعيسى ابن مريم وغيره ، فإنه يملكها بإذن الله ـ تعالى ..

ويصح أن يكون المراد بقوله : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِ﴾ المؤمن المشفوع فيه فيكون المعنى : ولا يملك أحد الشفاعة لأحد. إلا لمن آمن بالله ـ تعالى ـ وشهد الشهادة الحق وهو المؤمن ، فإنه تجوز الشفاعة له ، أما الكافر فلا يملك أحد أن يشفع له. كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى ..﴾

وجملة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حالية. أى : والحال أنهم يعلمون علما يقينا ، أن المستحق للعباد هو الله ـ تعالى ..

وقيد ـ سبحانه ـ الشهادة بقوله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ للإشعار بأن الشهادة بالحق مع العلم بها هي المعتدة ، أما الشهادة بدون علم بالمشهود به فإنها لا تكون كذلك.

وجمع ـ سبحانه ـ الضمير ﴿هُمْ﴾ باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾ ، وأفرده في ضمير ﴿شَهِدَ﴾ باعتبار لفظها.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان عليه المشركون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم فقال : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

أى : والله لئن سألت . يا محمد . هؤلاء الكافرين عمن خلقهم وخلق من يعبدونهم من دون الله ، ليقولن : الله هو الخالق لكل المخلوقات.

وقوله : ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ استفهام قصد به التعجب من أحوالهم المتناقضة أى : ما دمتم قد اعترفتم بأن الخالق لكم ولغيركم هو الله ، فكيف انصرفتم عن عبادة الله إلى عبادة غيره. وكيف أشركتم معه غيره في ذلك مع اعترافكم بأنه . سبحانه . هو الخالق لكل شيء.

يقال : أفك فلان فلانا يأفك إفكا . من باب طرب وعلم . إذا صرفه وقلبه عن الشيء. وسميت قرى قوم لوط بالمؤتفكات لأن جبريل جعل عاليها سافلها بأمر الله . تعالى ..

ثم حكى . سبحانه . ما تضرع به الرسول ﷺ إلى ربه فقال : ﴿وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ ..﴾.

والقيل ، والقال ، والقول ... كلها مصادر بمعنى واحد. والضمير يعود إلى الرسول ﷺ وقراءة الجمهور بفتح اللام وضم الهاء ، على أنه معطوف على قوله . تعالى . قبل ذلك : ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ﴾ ويكون مقول القول : ﴿يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

والمعنى : أيحسب هؤلاء الكافرون الجاهلون ، أننا لا نسمع سرهم ونجواهم ، ونسمع تضرع رسولنا إلينا بقوله : ﴿يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾؟

إن كانوا يحسبون ذلك الحسبان ، فقد كذبوا وخسروا ، لأننا نعلم ذلك وغيره علما تاما. ويصح أن يكون قوله . تعالى . ﴿وَقِيلِهِ﴾ منصوبا بفعل محذوف والتقدير : ويعلم قيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ..

وقرأ عاصم وحمزة ﴿وَقِيلِهِ﴾ بكسر اللام والهاء ، عطفا على الساعة أى : وعنده . سبحانه . علم الساعة ، وعلم قول الرسول ﷺ يا رب إن هؤلاء المشركين قوم لا يؤمنون.

والتعبير بالنداء بلفظ الرب ، يشعر بالقرب ، ويوحى بالإجابة ويفيد كمال التضرع ..

كما أن التعبير بقوله ﴿قَوْمٌ﴾ يشير إلى أن كفرهم كان كفرا جماعيا ، لا كفرا فرديا.

وقوله . تعالى . : ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إرشاد وتسلية من الله . تعالى . لنبيه. أى : فأعرض عنهم ، ولا تطمع في إيمانهم لشدة كفرهم ، ﴿وَقُلْ سَلامٌ﴾ أى : وقل لهم : أمرى وشأنى الآن مسالمتكم ومتاركتكم .. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة كفرهم وإصرارهم على باطلهم.

وبعد : فهذا تفسير لسورة «الزخرف» نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير

سورة الدّخان

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة وتمهيد

١ ـ سورة «الدخان» من السور المكية ، وعدد آياتها : تسع وخمسون آية في المصحف الكوفي ، وسبع وخمسون في البصري ، وست وخمسون في غيرهما. وكان نزولها بعد سورة «الزخرف».

٢ ـ وقد افتتحت بالثناء على القرآن الكريم ، وأنه قد أنزله ـ سبحانه ـ في ليلة مباركة ، قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ..﴾.

٣ ـ ثم تحدثت عن جانب من العقوبات الدنيوية التي عاقب الله ـ تعالى ـ بها كفار قريش ، وذكرت ما تضرعوا به إلى الله لكي يكشف عنهم ما نزل بهم من بلاء ، فلما كشفه ـ تعالى ـ عنهم عادوا إلى كفرهم وعنادهم ...

قال ـ تعالى ـ : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ. فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ. رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ..﴾.

٤ ـ ثم ساقت جانبا من قصة فرعون مع موسى ـ عليه‌السلام ـ ، فبينت أن موسى دعا فرعون وقومه إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ ، ولكنهم أصروا على كفرهم ، فكانت عاقبتهم الإغراق في البحر ، دون أن يحزن لهلاكهم أحد ، وأنهم قد تركوا من خلفهم ما تركوا من جنات ونعيم ..

قال ـ تعالى ـ : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ. كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ. فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ ..﴾.

٥ ـ وبعد أن هددت السورة الكريمة مشركي مكة على أقوالهم الباطلة في شأن البعث ، وردت عليهم بما يدحض حجتهم ، أتبعت ذلك ببيان سوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين ، وختمت بتسلية الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم عما أصابه من أذى ، ووعدته بالنصر على أعدائه ، قال ـ تعالى ـ : ﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾.

٦ ـ هذا والمتدبر في هذه السورة الكريمة يراها تمتاز بقصر الآيات ، وبأسلوبها الذي تبرز فيه

ألوانا متعددة من تهديد المشركين ، تارة عن طريق تذكيرهم بالقحط الذي نزل بهم ، وتارة عن طريق ما حل بالمكذبين من قبلهم ، وتارة عن طريق ما ينتظرهم من عذاب مهين ، إذا ما استمروا على كفرهم ...

كما يراها تثنى على القرآن بألوان متعددة من الثناء ، وتبشر المتقين ببشارات متنوعة ، وتطوف بالنفس الإنسانية في عوالم شتى ، لتهديها إلى الصراط المستقيم ، ولترشدها إلى طريق الحق واليقين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الراجي عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة : مدينة نصر

مساء الجمعة ٢٥ من صفر سنة ١٤٠٦ هـ

٨ / ١١ / ١٩٨٥ م

قال الله ـ تعالى ـ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨)

سورة «الدخان» من السور المبدوءة بالحروف المقطعة ، وقد سبق أن قلنا إن أقرب الآراء إلى الصواب في معناها : أن الله ـ تعالى ـ جاء بها في أوائل بعض السور للتحدى والتعجيز والتنبيه إلى أن هذا القرآن من عند الله ـ عزّ وجلّ ـ فكأنه ـ تعالى ـ يقول للمكذبين : هذا هو القرآن ، مؤلف من كلمات وحروف هي من جنس ما تتخاطبون به ، فإن كنتم في شك في كونه من عنده ـ تعالى ـ فأتوا بسورة من مثله .. فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ..

والواو في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ للقسم ، وجوابه ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ ..﴾.

والمراد بالليلة المباركة : ليلة القدر ...

أى : وحق هذا القرآن الواضح الكلمات ، البين الأسلوب ، لقد ابتدأنا إنزاله في ليلة كثيرة البركات والخيرات.

فأنت ترى أن الله . تعالى . قد وصف هذه الليلة بأنها مباركة ، لزيادة خيرها وفضلها ، ولما تتابع فيها من نعم دينية ودنيوية ..

ولله . تعالى . أن يفصل بعض الأزمنة على بعض وبعض الأمكنة على بعض وبعض الرسل على بعض .. لا راد لفضله ، ولا معقب لحكمه ...

قال الإمام ابن كثير : «يقول الله . تعالى . «مخبرا عن هذا القرآن الكريم : أنه أنزله في ليلة مباركة ، وهي ليلة القدر ، كما قال . تعالى . : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ..﴾ وكان ذلك في شهر رمضان ، كما قال . تعالى . : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ ..

ومن قال بأنها . أى : الليلة المباركة . ليلة النصف من شعبان . كما روى عن عكرمة . فقد أبعد النّجعة ، فإن نص القرآن أنها في رمضان» [1].

هذا وقد فصل بعضهم أدلة من قال بأن المراد بها ليلة القدر ، وأدلة من قال بأن المراد بها ليلة النصف من شعبان [2].

والحق أن المراد بها ليلة القدر ، التي أنزل فيها القرآن من شهر رمضان ، كما نصت على ذلك آية سورة البقرة التي تقول : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ...﴾.

والأحاديث التي أوردها بعضهم في أن المراد بها ليلة النصف من شعبان ، أحاديث مرسلة أو ضعيفة ، أو لا أساس لها .. فثبت أن المراد بها ليلة القدر.

وقوله . سبحانه . : ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ استئناف مبين لمقتضى الإنزال ..

والإنذار : إخبار فيه تخويف وترهيب ، كما أن التبشير إخبار فيه تأمين وترغيب.

أى : أنزلنا هذا القرآن في تلك الليلة المباركة ، أو ابتدأنا إنزاله فيها ، لأن من شأننا أن نخوف بكتبنا ووحينا ، حتى لا يقع الناس في أمر نهيناهم عن الوقوع فيه.

وقوله . تعالى . : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ جملة مستأنفة . أيضا . لبيان وجه تخصيص هذه الليلة بإنزال القرآن فيها.

وقوله ﴿يُفْرَقُ﴾ أى : يفصل ويبين ويكتب. و ﴿حَكِيمٍ﴾ أى : ذو حكمة ، أو محكم لا تغيير فيه.

أى : في هذه الليلة المباركة يفصل ويبين ويكتب ، كل أمر ذي حكمة باهرة ، وهذا الأمر صادر عن الله . تعالى . ، الذي لا راد لقضائه ، ولا مبدل لحكمه.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٣٢.

(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٩٩. وتفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١١١.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ما موقع هاتين الجملتين؟

قلت : هما جملتان مستأنفتان ، فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله . تعالى . : ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾ كأنه قيل : أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصا ، لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم.

ومعنى ﴿يُفْرَقُ﴾ يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم ..» [1].

ثم بين . سبحانه . أن مرد هذه الكتابة والتقدير للأشياء إليه وحده فقال : ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنا ..﴾.

ولفظ ﴿أَمْراً ..﴾ يرى بعضهم أنه حال من ﴿كُلُّ أَمْرٍ ..﴾ أى : يفرق في هذه الليلة المباركة كل أمر ذي حكمة ، حالة كون هذا الأمر من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا.

ويصح أن يكون منصوبا على الاختصاص ، وتنكيره للتفخيم ، أى : أعنى بهذا الأمر الحكيم ، أمرا عظيما كائنا من عندنا وحدنا. وقد اقتضاه علمنا وتدبيرنا.

وقوله : ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ..﴾ بدل من قوله : ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾.

أى أنزلنا هذا القرآن ، في تلك الليلة المباركة لأن من شأننا إرسال المرسلين إلى الناس ، لأجل الرحمة بهم ، والهداية لهم ، والرعاية لمصالحهم.

وقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تعليل لما قبله. أى : فعل ما فعل من إنزال القرآن ، ومن إرسال الرسل ، لأنه . سبحانه . هو السميع لمن تضرع إليه ، العليم بجميع أحوال خلقه.

ثم وصف . سبحانه . ذاته بما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ إرادته فقال : ﴿رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما ..﴾ من هواء ، ومن مخلوقات لا يعلمها إلا الله . تعالى ..

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أى : إن كنتم على يقين في إقراركم حين تسألون عمن خلق السموات والأرض وما بينهما.

وجواب الشرط محذوف ، أى : إن كنتم من أهل الإيقان علمتم بأن الله . تعالى . وحده ، هو رب السموات والأرض وما بينهما.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٧٠.

﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ . سبحانه . ﴿يُحْيِي﴾ من يريد إحياءه ، ﴿وَيُمِيتُ﴾ من يريد إماتته ، هو . تعالى . ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

أى : هو . سبحانه . الذي تعهدكم بالرعاية والتربية والخلق ، كما فعل ذلك مع آبائكم الأولين ، الذين أنتم من نسلهم ..

ثم بين . سبحانه . أحوال الكافرين ، وكيف أنهم عند ما ينزل بهم العذاب ، يجأرون إلى الله . تعالى . أن يكشفه عنهم. فقال . تعالى . :

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ (١٦)

و ﴿بَلْ﴾ في قوله . تعالى . : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ للاضراب الإبطالى ، لأن المقصود من الآية الكريمة ، نفى إيقانهم بأن خالق السموات والأرض هو الله ، لعدم جريهم على ما يقتضيه هذا الإيقان ، لأنهم لو كانوا موقنين حقا بذلك ، لأخلصوا لله . تعالى . العبادة والطاعة.

فيكون المعنى : إن هؤلاء الكفار لم يكونوا موقنين بأن رب السموات والأرض وما بينهما هو الله ، بل قالوا ما قالوا في ذلك على سبيل الشك واللعب.

قال الآلوسى : «قوله : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ...﴾ إضراب إبطالى ، أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجبه ، وتنوين ﴿شَكٍّ﴾ للتعظيم ، أى : في شك عظيم. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أى : لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان ، بل يقولونه مخلوطا بهزء ولعب. وهذه الجملة خبر بعد خبر لهم .. والالتفات عن خطابهم لفرط عنادهم ، وإهمال أمرهم ..» [١].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١١٦.

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ولتسلية الرسول ﷺ وأمره بالصبر حتى يحكم الله بينه وبينهم.

والارتقاب : الانتظار ، وأكثر ما يستعمل الارتقاب في الأمر المكروه والمراد باليوم مطلق الوقت ، وهو مفعول به لارتقب.

قال الآلوسى ما ملخصه : «والمراد بالسماء جهة العلو ، وإسناد الإتيان بذلك إليها من قبيل الإسناد إلى السبب ، لأنه يحصل بعدم إمطارها ...».

أى : فارتقب يوم تأتى السماء بجدب ومجاعة ، فإن الجائع جدا يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان ، وهي ظلمة تعرض للبصر لضعفه .. وإرادة الجدب والمجاعة منه مجاز ، من باب ذكر المسبب وإرادة السبب .. وبعض العرب يسمى الشر الغالب دخانا ، ووجه ذلك أن الدخان مما يتأذى به فأطلق على كل مؤذ يشبهه ، وأريد به هنا الجدب ، ومعناه الحقيقي معروف» (١).

وللمفسرين في معنى هذه الآية اتجاهات أولها : ما ورد في الحديث الصحيح من أن مشركي مكة ، لما أصروا على كفرهم وعلى إعراضهم عن الحق ، دعا عليهم الرسول ﷺ بقوله : «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف ..» فأصابهم القحط والبلاء والجوع ..

وكنى عن ذلك بالدخان ، لأن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان ، فيقولون : كان بيننا أمر ارتفع له دخان ..

والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد ضعفه ، أظلمت عيناه ، فيرى الدنيا كالمملوءة بالدخان.

روى البخاري وغيره عن ابن مسعود قال : إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام ، واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ...

فقيل : يا رسول الله ، استسق الله لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى لهم فسقوا ، فأنزل الله : ﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾.

قال ابن كثير : «وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيرهما ، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة» (٢).

وعلى هذا الرأى يكون الدخان قد وقع فعلا ، بمعنى أن المشركين قد أصابهم بلاء شديد في عهد النبي ﷺ . ثم كشف الله عنهم منه ما كشف ببركة دعاء النبي ﷺ .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١١٧.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٣٣.

أما الاتجاه الثاني فيرى أصحابه ، أن المراد بالدخان ، ما يكون قبل يوم القيامة من دخان يسبق ذلك ، كعلامة من علامات البعث والنشور ..

واستدل أصحاب هذا الاتجاه ، بأحاديث ذكرها المفسرون.

قال ابن كثير : «وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة ، كما تقدم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري. قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفته ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال وثلاثة خسوف : خسوف بالمشرق وخسوف بالمغرب ، وخسوف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس ـ أو تحشر الناس ـ تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل حيث قالوا».

ثم ساق ابن كثير بعد ذلك أحاديث أخرى ، وقال في نهايتها : والظاهر أن ذلك يوم القيامة» [1].

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى سياق الآيات التي ذكرها الله ـ تعالى ـ في هذه السورة ، ولا يتعارض ذلك مع كون ظهور الدخان علامة من علامات قرب يوم القيامة ، كما جاء في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري ، الذي ذكره ابن كثير ـ رحمه‌الله ـ وقال في شأنه : تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه.

ومن المفسرين الذين رجحوا الاتجاه الأول الإمام الطبري ، فقد قال بعد أن ساق هذين القولين : وأولى القولين بالصواب في ذلك قول ابن مسعود ، من أن الدخان الذي أمر الله ـ تعالى ـ نبيه أن يرتقبه ، هو ما أصاب قومه من الجهد بدعائه عليهم.

وإنما قلت القول الذي قاله ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ هو أولى بتأويل الآية ، لأن الله ـ تعالى ـ توعد بالدخان مشركي قريش ... ولأن الأخبار قد تظاهرت بأن ذلك كائن والمعنى : فانتظر يا محمد لمشركي قومك ، يوم تأتيهم السماء من البلاء الذي يحل بهم ، بمثل الدخان المبين» [2].

ومنهم ـ أيضا ـ الإمام الآلوسى ، فقد قال ـ رحمه‌الله ـ : هذا ، والأظهر حمل الدخان على ما روى عن ابن مسعود ، لأنه أنسب بالسياق ، لما أنه في كفار قريش ، وبيان سوء حالهم» [3].

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٣٣.

(٢) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٥ ص ٦٨.

(٣) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١١٨.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ صفة ثانية للدخان ، والمراد بهم كفار مكة وأمثالهم ممن أصابه الجوع والبلاء.

أى : ارتقب ـ أيها الرسول الكريم ـ يوم تأتى السماء لهؤلاء المشركين بعذاب من صفاته أنه عذاب واضح ، يحسونه بحواسهم ، ويشعرون به شعورا جليا ، ومن صفاته كذلك أنه يحيط بهم من كل جوانبهم ، ويجعلهم يتضرعون إلينا ويقولون : ﴿هذا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ أى : شديد ألمه ، وعظيم هوله.

ثم يقولون ـ أيضا ـ : ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أى : يا ربنا أزل عنا هذا العذاب المتمثل في الجوع والمرض وغيرهما ، فإنك إن رفعت عنا ذلك آمنا برسولك ﷺ ، واتبعنا دعوته ، ولكنهم بعد أن كشف الله ـ تعالى ـ عنهم هذا العذاب ، نقضوا عهودهم ، وأصروا على كفرهم.

ولذا عقب الله ـ تعالى ـ على تضرعهم هذا بقوله : ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى ..﴾ أى : كيف يتأتى لهم التذكر والاعتبار والاتعاظ ...

والحال أنهم ﴿قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ هو محمد ﷺ ، الذي لم يترك بابا من أبواب الخير إلا وأرشدهم إليه ، ولم يترك وسيلة من وسائل الهداية إلا وسلكها معهم ..

ولكنهم استحبوا العمى على الهدى ، ولذا أكد القرآن ذلك فقال : ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾.

أى : كيف يتعظون والحال أنه قد جاءهم رسول عظيم الشأن ، وضح الحق أكمل توضيح.

فما كان منهم بعد أن استمعوا إليه ، إلا الإعراض عن دعوته ، ولم يكتفوا بهذا الإعراض والصدود ، بل قالوا في شأنه بجهالة وسوء أدب : ﴿مُعَلَّمٌ﴾ أى : إنسان يعلمه غيره من البشر ، وقالوا في شأنه ـ أيضا ـ ﴿مَجْنُونٌ﴾ أى : مختلط في عقله.

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر فضله عليهم ، ورحمته بهم ، فقال : ﴿إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾.

أى : إنا بفضلنا ورحمتنا كاشفو العذاب عنكم كشفا قليلا ـ أيها المشركون ـ ، ولكنكم لم تقابلوا فضلنا عليكم ، ورحمتنا بكم ، بالشكر والطاعة بل قابلتم ذلك بالإصرار على الكفر ، والثبات على الجحود.

فالمراد بقوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّكُمْ عائِدُونَ﴾ : عزمهم وإصرارهم على الاستمرار على الكفر ، لأنهم لم يوجد منهم إيمان ، حتى يتركوه ويعودوا إلى الكفر ، وإنما الذي وجد منهم هو

الوعد بالإيمان إذا انكشف عنهم العذاب ، فلما انكشف عنهم ، نقضوا عهودهم ، واستمروا على كفرهم.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ. فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [1].

ثم هددهم ـ سبحانه ـ تهديدا ترتعد له القلوب فقال : ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾.

وقوله ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بفعل مقدر. وقوله ﴿نَبْطِشُ﴾ من البطش بمعنى الأخذ بقوة وعنف. يقال : بطش فلان بفلان يبطش به ، إذا نكل به تنكيلا شديدا.

أى : اذكر ـ أيها العاقل ـ لتعتبر وتتعظ يوم أن نأخذ هؤلاء الكافرين أخذ عزيز مقتدر ، حيث ننتقم انتقاما يذلهم ويخزيهم.

وهذا البطش الشديد منا لهم سيكون جزءا منه في الدنيا ، كانتقامنا منهم يوم بدر وسيكون أشده وأعظمه وأدومه عليهم ... يوم القيامة.

وبذلك نرى السورة الكريمة بعد أن مدحت القرآن الكريم مدحا عظيما ، وبينت جانبا من مظاهر فضل الله ـ تعالى ـ على عباده ، أخذت في تسلية الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم عما أصابه من أعدائه ، وهددت هؤلاء الأعداء بسوء المصير في الدنيا ، وفي الآخرة.

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة موسى ـ عليه‌السلام ـ مع فرعون وملئه ، وكيف أن الله ـ تعالى ـ أجاب دعاء نبيه موسى ، فأهلك فرعون وقومه ، ونجى موسى وبنى إسرائيل من شرورهم فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعا

---

(١) سورة الزخرف الآية ٤٩. ٥٠.

رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً
إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ
كانُوا فِيها فاكِهِينَ (٢٧) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (٢٨) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ
وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ
فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (٣٢)
وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ﴾ (٣٣)

والللام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ..﴾ موطئة للقسم. وقوله ﴿فَتَنَّا﴾ من الفتن بمعنى الاختبار والامتحان. يقال : فتنت الذهب بالنار ، إذا أدخلته فيها لتعرف جودته من رداءته.

والمراد به هنا : إخبارهم وامتحانهم ، بإرسال موسى ـ عليه‌السلام ـ وبالتوسعة عليهم تارة ، وبالتضييق عليهم تارة أخرى.

والمعنى : والله لقد اختبرنا فرعون وقومه من قبل أن نرسلك ـ أيها الرسول الكريم ـ إلى هؤلاء المشركين ، وكان اختبارنا وامتحاننا لهم عن طريق إرسال نبينا موسى إليهم ، وعن طريق ابتلائهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون إلى طاعتنا ، ولكنهم لم يرجعوا فأهلكناهم.

فالآية الكريمة المقصود بها تسلية الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم عما أصابه من قومه ، ببيان أن تكذيب الأقوام لرسلهم ، حاصل من قبله ، فعليه أن يتأسى بالرسل السابقين في صبرهم.

والمراد بالرسول الكريم في قوله : ـ تعالى ـ : ﴿وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ : موسى ـ عليه‌السلام ـ ، فقد أرسله ـ سبحانه ـ إلى فرعون وقومه ، فبلغهم رسالة ربه ، ولكنهم كذبوه وعصوه ..

ووصف ـ سبحانه ـ نبيه موسى بالكرم ، على سبيل التشريف له ، والإعلاء من قدره ، فقد كان ـ عليه‌السلام ـ كليما لربه ، ومطيعا لأمره ، ومتحليا بأسمى الأخلاق وأفضلها.

و ﴿أَنْ﴾ في قوله - تعالى - ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ ..﴾ مفسرة لأن مجيء الرسول إليهم يتضمن معنى القول. وقوله : ﴿أَدُّوا إِلَيَ﴾ بمعنى سلموا إلى ، أو ضموا إلى ...

قوله : ﴿عِبادَ اللهِ﴾ مفعول به. والمراد بهم بنو إسرائيل.

والمعنى : جاء إلى فرعون وقومه رسول كريم ، هو موسى - عليه السلام - ، فقال لهم : سلموا إلى بنى إسرائيل ، وأطلقوهم من الذل والهوان ، واتركوهم يعيشون أحرارا في هذه الدنيا.

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - في موضع آخر : ﴿فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ، فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ ..﴾ (١).

ويصح أن يكون المراد بقوله ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ ..﴾ بمعنى : أن استجيبوا لدعوتى ، والمراد بالعباد : ما يشمل بنى إسرائيل وغيرهم ، ويكون لفظ ﴿عِبادَ اللهِ﴾ منصوب بحرف نداء محذوف.

وعليه يكون المعنى : أرسلنا إلى فرعون وقومه رسولا كريما ، فجاء إليهم وقال لهم على سبيل النصح والإرشاد : يا عباد الله ، إنى رسول الله إليكم ، فاستمعوا إلى قولي ، واتبعوا ما أدعوكم إليه من عبادة الله - تعالى - وحده ، وترك عبادة غيره.

قال الآلوسى : قوله : ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللهِ ..﴾ أى : أطلقوهم وسلموهم إلى ، والمراد بهم بنو إسرائيل الذين كان فرعون يستعبدهم ، والتعبير عنهم بعباد الله ، للإشارة إلى أن استعباده إياهم ظلم منه لهم ..

أو أدوا إلى حق الله - تعالى - من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله ، على أن مفعول ﴿أَدُّوا﴾ محذوف ، وعباد منادى ، وهو عام لبنى إسرائيل والقبط والأداء بمعنى الفعل للطاعة - وقبول الدعوة ..» (٢).

وقوله - سبحانه - : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعليل لما تقدم. أى : استجيبوا لدعوتى ، وأطيعوا أمرى ، فإنى مرسل من الله - تعالى - إليكم ، وأمين على الرسالة ، لأنى لم أبدل شيئا مما كلفني به ربي.

وقوله - سبحانه - : ﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ ..﴾ معطوف على قوله : ﴿أَنْ أَدُّوا ..﴾ وداخل في حيز القول.

---

(١) سورة طه الآية ٤٧.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١٢١.

أى : قال لهم : أرسلوا معى بنى إسرائيل ، واستجيبوا لدعوتى ، واحذروا أن تتجبروا أو تتكبروا على الله ـ تعالى ـ ، بأن تستخفوا بوحيه أو تعرضوا عن رسوله ...

﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ أى : إنى آتيكم من عنده ـ تعالى ـ بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها ، وببرهان ساطع يشهد بصدقى وأمانتى ..

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أى : وإنى اعتصمت واستجرت بربي وربكم من أن ترجمونى بالحجارة ، أو من أن تلحقوا بي ما يؤذيني ، وهذا الاعتصام بالله ـ تعالى ـ يجعلني لا أبالى بكم ، ولا أتراجع عن تبليغ دعوته ـ سبحانه ـ بحال من الأحوال.

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أى : وقال لهم ـ أيضا ـ في ختام نصحه لهم : إنى لن أتراجع عن دعوتكم إلى الحق مهما وضعتم في طريقي من عقبات وعليكم أن تؤمنوا بي ، فإن لم تؤمنوا بي. فكونوا بمعزل عنى بحيث تتركونى وشأنى حتى أبلغ رسالة ربي ، فإنه لا موالاة ولا صلة بيني وبينكم ، مادمتم مصرين على كفركم.

فأنت ترى أن موسى ـ عليه السلام ـ قد طلب من فرعون وقومه الاستجابة لدعوته ، ونهاهم عن التكبر والغرور ، وبين لهم أنه رسول أمين على وحى الله ـ تعالى ـ ، وأنه معتصم بربه من كيدهم ، وأن عليهم إذا لم يؤمنوا به أن يتركوه وشأنه ، لكي يبلغ رسالة ربه ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر.

ولكن الإرشادات الحكيمة من موسى لفرعون وقومه ، لم تجد أذنا صاغية ، فإن الطغيان في كل زمان ومكان ، لا يعجبه منطق الحق والعدل والمسالمة ، ولكن الذي يعجبه هو التكبر في الأرض بغير الحق ، وإيثار الغي على الرشد ..

ولذا نجد موسى ـ عليه السلام ـ يلجأ إلى ربه يطلب منه العون والنصرة فيقول ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾.

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف ، يفهم من السياق ، والتقدير : وبعد أن أمر موسى فرعون وقومه بإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ ونهاهم عن الإشراك به .. بعد كل ذلك أصروا على تكذيبه ، وأعرضوا عن دعوته ، وآذوه بشتى ألوان الأذى فدعا ربه دعاء حارا قال فيه : يا رب إن هؤلاء القوم ـ وهم فرعون وشيعته ـ قوم راسخون في الكفر والإجرام ، فأنزل بهم عقابك الذي يستحقونه.

ثم حكت السورة الكريمة بعد ذلك ما يدل على أن الله ـ تعالى ـ قد أجاب دعاء موسى ـ عليه السلام ـ ، وأنه ـ سبحانه ـ قد أرشده إلى ما يفعله فقال : ﴿فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾.

قال الجمل : «قوله : ﴿فَأَسْرِ﴾ قرأ الجمهور بقطع الهمزة وقرأ نافع وابن كثير بوصلها ، وهما لغتان جيدتان : الأولى من أسريت والثانية من سريت. قال ـ تعالى ـ ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ﴾ وقال : ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ﴾ والإسراء السير ليلا ، فذكر الليل ـ هنا ـ تأكيد له بغير اللفظ ـ إذ الإسراء والسرى : السير ليلا» [1].

والكلام على تقدير القول ، أى : فقال الله ـ تعالى ـ على سبيل التعليم والإرشاد : سر يا موسى ببني إسرائيل وبمن آمن معك من القبط من مصر ، بقطع من الليل ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ من جهة فرعون وملئه ، متى علموا بخروجكم.

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ...﴾ أى : ومتى وصلت إلى البحر ـ أى : البحر الأحمر ـ فاضربه بعصاك ، ينفلق ـ بإذن الله ـ فسر فيه أنت ومن معك ، واتركه ساكنا مفتوحا على حاله ، فإذا ما سار خلفك فرعون وجنوده أغرقناهم فيه.

يقال : رها البحر يرهو ، إذا سكن. وجاءت الخيل رهوا ، أى : ساكنة ، ويقال ـ أيضا ـ : رها الرجل رهوا ، إذا فتح بين رجليه وفرق بينهما ، وهو حال من البحر.

قال الإمام الرازي : «وفي لفظ ﴿رَهْواً﴾ قولان :

أحدهما : أنه الساكن ، يقال : عيش راه ، إذا كان خافضا وادعا ساكنا ...

والثاني : أن الرهو هو الفرجة الواسعة ، أى : ذا رهو ، أى : ذا فرجة حتى يدخل فيها فرعون وقومه فيغرقوا .. وإنما أخبره ـ سبحانه ـ بذلك حتى يبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم» [2].

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ تعليل للأمر بتركه رهوا ، أى : اترك البحر على حاله ، فإن أعداءك سيغرقون فيه إغراقا يدمرهم ويهلكهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء مآلهم فقال : ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ و ﴿كَمْ﴾ هنا خبرية للتكثير والتهويل ، أى : ما أكثر ما ترك هؤلاء المغرقون خلفهم من بساتين ناضرة ، وعيون يخرج منها الماء النمير ..

﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرة متنوعة ﴿وَمَقامٍ كَرِيمٍ﴾ أى : ومحافل ومنازل كانت مزينة بألوان من الزينة والزخرفة ..

﴿وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ﴾ أى : وتنعم وترفه كانوا فيه يتلذذون ، بما بين أيديهم من رغد العيش. وكثرة الفاكهة ..

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٠٤.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٤٥٣.

والنعمة ـ بفتح النون ـ بمعنى التنعم والتلذذ ، والنعمة ـ بالكسر ـ المنة والإنعام بالشيء وتطلق على الجنس الصادق بالقليل والكثير.

وقوله : ﴿كَذلِكَ﴾ في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر كذلك.

قال الجمل ما ملخصه : «قوله : ﴿كَذلِكَ ..﴾ خبر مبتدأ محذوف. أى : الأمر كذلك. فالوقف يكون على هذا اللفظ ، وتكون الجملة اعتراضية لتقرير وتوكيد ما قبلها ... ويبتدأ بقوله : ﴿وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ﴾ وهو معطوف على ﴿كَمْ تَرَكُوا ..﴾ أى : تركوا أمورا كثيرة وأورثناها قوما آخرين ، وهم بنو إسرائيل».

وقال الزمخشري : الكاف في محل نصب ، على معنى : مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ﴿وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ﴾ ليسوا منهم.

فعلى هذا يكون قوله ﴿وَأَوْرَثْناها﴾ معطوفا على تلك الجملة الناصبة للكاف ، فلا يجوز الوقف على ﴿كَذلِكَ﴾ حينئذ [(١)].

وقال الآلوسى : والمراد بالقوم الآخرين : بنو إسرائيل ، وهم مغايرون للقبط جنسا ودينا. ويفسر ذلك قوله ـ تعالى ـ في سورة الشعراء : ﴿كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ وهو ظاهر في أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر ، بعد هلاك فرعون وملكوها.

وقيل : المراد بالقوم الآخرين غير بنى إسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك فرعون ، لأنه لم يرد في مشهور التواريخ أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر ، ولا أنهم ملكوها قط.

وما في سورة الشعراء من باب قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ﴾ أو من باب : عندي درهم ونصفه. فليس المراد خصوص ما تركوه ، بل نوعه وما يشبهه.

وقيل : المراد من إيراثها إياهم : تمكينهم من التصرف فيها ، ولا يتوقف ذلك على رجوعهم إلى مصر ، كما كانوا فيها أولا [(٢)] ..

والذي نراه ـ كما سبق أن قلنا عند تفسير سورة الشعراء [(٣)] ـ أن الآية صريحة في توريث بنى إسرائيل للجنات والعيون .. التي خلفها فرعون وقومه بعد غرقهم ، بمعنى أنهم عادوا إلى مصر بعد غرق فرعون ومن معه ، ولكن عودتهم كانت لفترة معينة ، خرجوا بعدها إلى الأرض المقدسة التي دعاهم موسى ـ عليه‌السلام ـ لدخولها كما جاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا قَوْمِ

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٠٥.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١٢٣.

(٣) راجع تفسيرنا لسورة الشعراء. ص ٢٥١ ـ المجلد العاشر.

ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ. وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ ..﴾.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن فرعون وقومه بعد أن غرقوا ، لم يحزن لهلاكهم أحد ، فقال :

﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ﴾.

أى : أن هؤلاء المغرقين ، الذين كانوا ملء السمع والبصر ، وكانوا يذلون غيرهم ، وكانوا يملكون الجنات والعيون ... هؤلاء الطغاة ، لم يحزن لهلاكهم أحد من أهل السموات أو أهل الأرض ، ولم يؤخر عذابهم لوقت آخر في الدنيا أو في الآخرة ، بل نزل بهم الغرق والدمار بدون تأخير أو تسويف ..

فالمقصود من الآية الكريمة بيان هوان منزلة هؤلاء المغرقين ، وتفاهة شأنهم ، وعدم أسف أحد على غرقهم ، لأنهم كانوا ممقوتين من كل عاقل ..

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : كان العرب إذا مات فيهم رجل خطير قالوا في تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس ..

قال جرير في رثاء عمر بن العزيز :

نعى النعاة أمير المؤمنين لنا ... يا خير من حج بيت الله واعتمرا

حملت أمرا عظيما فاصطبرت له ... وقمت فيه بأمر الله يا عمرا

الشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

وقالت ليلى بنت طريف الخارجية ، ترثى أخاها الوليد :

أيا شجر الخابور مالك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه ..

وفي الآية تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده ، فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض. يعنى فما بكى عليهم أهل السماء والأرض ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين .. (١).

وقال الإمام أبن كثير : قوله : ﴿فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ ..﴾ أى : لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكى على فقدهم ، ولا لهم بقاع في أرض عبدوا الله فيها ففقدتهم فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا ..

ثم ساق ـ رحمه‌الله ـ جملة من الأحاديث منها ما أخرجه ابن جرير عن شريح بن عبيد الحضرمي قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا ، ألا

(١) تفسير الكشاف وحاشيته ج ٤ ص ٢٧٦.

لا غربة على مؤمن. ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه. إلا بكت عليه السماء والأرض. ثم قرأ ﷺ هذه الآية. ثم قال : إنهما لا يبكيان على كافر [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من نعمه على بنى إسرائيل فقال : ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾.

أى : والله لقد نجينا ـ بفضلنا ورحمتنا ـ بنى إسرائيل من العذاب المهين ، الذي كان ينزله بهم أعداؤهم ، كقتلهم للذكور ، واستبقائهم للإناث ..

وقوله : ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من العذاب على حذف المضاف ، والتقدير : من عذاب فرعون .. أو على المبالغة كأن فرعون نفس العذاب ، لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ حال فرعون فقال : ﴿إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أى : نجيناهم من فرعون الذي كان متكبرا متجبرا ، ومن المسرفين في فعل الشرور ، وفي ارتكاب القبائح ..

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا آخر من إكرامه لبنى إسرائيل فقال : ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾.

والاختيار : الاصطفاء على سبيل التشريف والتكريم ، أى : ولقد اصطفينا بنى إسرائيل على عالمي زمانهم ، ونحن عالمون بذلك علما اقتضته حكمتنا ورحمتنا.

فقوله ﴿عَلى عِلْمٍ﴾ في موضع الحال من الفاعل ، والمراد بالعالمين : أهل زمانهم المعاصرين لهم ، بدليل قوله ـ تعالى ـ في الأمة الإسلامية : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ..﴾.

وهذا الاصطفاء والاختيار ، إنما مرده إلى من يعمل منهم عملا صالحا ، أما الذين لم يعملوا ذلك فلا مزية لهم ولا فضل ، ولذا نجد كثيرا من الآيات تذم من يستحق الذم منهم.

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ. كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [2].

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض المعجزات التي جاءتهم على أيدى رسلهم فقال : ﴿وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ﴾.

أى : وأعطيناهم من المعجزات الدالة على صدق رسلهم كموسى وعيسى وغيرهما ، ما فيه بلاء مبين.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٣٩.

(٢) سورة المائدة الآية ٧٨. ٧٩.

أى : ما فيه اختبار وامتحان ظاهر ، ليتميز الخبيث من الطيب ، والكافر من المؤمن.

ومن هذه الآيات : فلق البحر بالنسبة لموسى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، بالنسبة لعيسى.

ومن هذه الآيات الكريمة نرى جانبا من قصة موسى ـ عليه‌السلام ـ ، وكيف أنه بلغ رسالة ربه على أكمل وجه ، وسلك مع فرعون وقومه أحكم السبل في الدعوة إلى الحق ..

كما نرى فيها فضل الله ـ تعالى ـ على نبيه ، وعلى بنى إسرائيل ، حيث نجاهم من ظلم فرعون وطغيانه ، وأهلكه ومن معه أمام أعينهم ، وأورثهم كنوز أعدائهم ..

* * *

وبعد هذا الحديث عن موسى ـ عليه‌السلام ـ وعن قومه ، وعن فرعون وشيعته .. بعد كل ذلك انتقلت السورة ، للحديث عن موقف المشركين من قضية البعث والنشور ، وردت عليهم بما يدل على إمكانية البعث وصحته. وأنه واقع لا محالة ، وبينت سوء عاقبة من ينكر ذلك ، ومن يصر على كفره وجحوده فقال الله ـ تعالى ـ :

(إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (٣٨) ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ

صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ (٥٠)

واسم الإشارة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ﴾ يعود إلى مشركي مكة ، الذين سبق الحديث عنهم في قوله ـ تعالى ـ : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ إلخ.

وذكر ـ سبحانه ـ قصة فرعون وقومه في الوسط ، للإشارة إلى التشابه بين الفريقين في التكذيب للحق ، وفي الإصرار على الضلال.

وكانت الإشارة للقريب ، لتحقيرهم والتهوين من شأنهم.

و ﴿إِنْ﴾ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى ...﴾ نافية. أى : إن هؤلاء الكافرين ليقولون على سبيل الجزم والتكذيب للبعث : ما الموتة التي نموتها في نهاية حياتنا الدنيوية ، إلا الموتة النهائية لا حياة بعدها ولا بعث ولا نشور.

ومرادهم من الأولى : السابقة المتقدمة على الموعد الذي يوعدونه للبعث والنشور.

قال بعض العلماء : وذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين.

الأولى منهما الموت ، والأخرى حياة البعث ، أثبتوا الحالة الأولى وهي الموت ، ونفوا ما بعدها.

وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أنه لا شيء بعدها ، لأنهم نزلوا جحدهم على الإثبات فجعلوها أولى على ما ذكرت لهم .. [(١)].

وقوله : ﴿وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ تأكيد لما سبقه. أى : قالوا ليس هنا من موت سوى الموت المزيل لحياتنا ، ثم لا بعث ولا حساب ولا نشور بعد ذلك.

يقال : أنشر الله ـ تعالى ـ الموتى نشورا ، إذا أحياهم بعد موتهم ، فهم منشرون.

ثم بين ـ سبحانه ـ مطالبهم المتعنتة ، وأدلتهم الباطلة فقال : ﴿فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾.

والفاء للإفصاح ، والخطاب للرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم وللمؤمنين الذين كانوا يؤمنون بالبعث.

أى : إن هؤلاء الكافرين قالوا ـ أيضا ـ للرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم وللمؤمنين : إن كان الأمر

---

(١) راجع تفسير الكشاف وحاشيته ج ٤ ص ٣٧٩.

كما تقولون من أن هناك بعثا وحسابا .. فأعيدوا الحياة إلى آبائنا الأولين ، واجعلوهم يخرجون إلينا مرة لنراهم.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ...﴾ تهديد لهم على جهالاتهم وإصرارهم على كفرهم.

والمراد بتبع : أبو كريب أسعد بن مليك ، ويسمى بتبع الحميرى. وهو أحد ملوك حمير.

وكان مؤمنا ، وقومه كانوا كافرين فأهلكهم الله. وإليه ينسب الأنصار ، ولفظ ﴿تُبَّعٍ﴾ يعد لقبا لكل ملك من ملوك اليمن ، كما أن لقب فرعون يعد لقبا لمن ملك مصر كافرا .. [1].

أى : إن هؤلاء الكافرين المعاصرين لك ـ أيها الرسول الكريم ـ ليسوا خيرا من قوم تبع ، الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا ، فلما لجوا في طغيانهم أهلكهم الله ـ تعالى ـ وإن مصير هؤلاء المشركين ـ إذا ما استمروا في عنادهم ـ سيكون كمصير قوم تبع ..

فالمقصود من الآية الكريمة تحذير الكافرين من التمادي في الضلال ، لأن هذا التمادي سيؤدي بهم الى الخسران ، كما هو حال قوم تبع الذين لا يخفى أمرهم عليهم.

والمراد بمن قبلهم في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ﴾ : الأقوام السابقون على قوم تبع ، كقوم عاد وثمود وغيرهم. أو على هؤلاء الكافرين المعاصرين للنبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم.

أى : والذين من قبل قوم تبع أو من قبل قومك من الظالمين ، أهلكناهم لأنهم كانوا قوما مجرمين.

ثم لفت ـ سبحانه ـ أنظار الناس إلى التفكر في خلق السموات والأرض فقال : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما ..﴾ من مخلوقات لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ ما خلقنا ذلك ﴿لاعِبِينَ﴾ أى : عابثين أو لغير غرض صحيح.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال.

أى : ما خلقناهما إلا خلقا ملتبسا بالحق مؤيدا بالحكمة ..

﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ، لانطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وسيحكم ـ سبحانه ـ في هذا اليوم بين الناس بحكمه العادل فقال : ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة الذي يفصل فيه الله

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٤٢.

ـ عَزَّوَجَلَّ ـ بين المحق والمبطل ، وبين المهتدى والضال ..

هذا اليوم ﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى : وقت اجتماعهم للحساب جميعا دون أن يتخلف منهم أحد.

ثم وصف ـ سبحانه ـ هذا اليوم بقوله : ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.

وقوله : ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي ...﴾ بدل من يوم الفصل. والمولى : يطلق على القريب والصديق والناصر ..

أى : في هذا اليوم ، وهو يوم الفصل ، لن يستطيع قريب أن ينفع قريبه ، أو صديق أن ينفع صديقه شيئا من النفع ، ولا هم ينصرون من عذاب الله ـ تعالى ـ إذا ما أراد ـ سبحانه ـ إنزال عذابه بهم.

وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ ...﴾ في محل رفع على أنه بدل من ضمير ﴿يُنْصَرُونَ﴾. أو في محل نصب على الاستثناء منه أى : لا يستطيع صديق أن يدفع العذاب عن صديقه ، ولا قريب أن ينفع قريبه أو ينصره ، إلا من رحمه الله ـ تعالى ـ ، وذلك بأن يعفو ـ سبحانه ـ عنه ، أو يقبل شفاعة غيره فيه.

﴿إِنَّهُ﴾ ـ سبحانه ـ هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء.

ثم بين ـ سبحانه ـ طعام أهل النار وحالهم يوم القيامة فقال : ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ. طَعامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ..﴾.

والمراد بشجرة الزقوم : الشجرة التي خلقها الله ـ تعالى ـ في جهنم ، وسماها الشجرة الملعونة ، ليكون طعام أهل النار منها.

ولفظ الزقوم : اسم لتلك الشجرة ، أو من الزقم بمعنى الالتقام والابتلاع للشيء.

والأثيم : الكثير الآثام والسيئات. والمراد به الكافر لدلالة ما قبله عليه.

والمهل : هو النحاس المذاب ، أو رديء الزيت الحار.

أى : إن الشجرة الملعونة التي هي شجرة الزقوم ، خلقها الله ـ تعالى ـ لتكون طعاما للإنسان الكافر ، الكثير الآثام والجرائم ..

فتنزل في بطنه كما ينزل النحاس الحار المذاب ، فيغلي فيها كغلي الماء البالغ نهاية الحرارة.

فقوله : ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ نعت لمصدر محذوف. أى : غليا كغلي الحميم.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ ، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ...﴾ مقول لقول محذوف ، هذا القول موجه من الله ـ تعالى ـ لملائكة العذاب.

وقوله ـ سبحانه ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ من العتل وهو الأخذ بمجامع الشيء ، وجره بغلظة وقهر.

يقال : عتل فلان فلانا يعتله عتلا ، إذا جذبه جذبا شديدا ، وسار به إلى ما يكره السير إليه.

أى : يقول الله ـ تعالى ـ لملائكة العذاب في هذا اليوم العسير : خذوا هذا الكافر الأثيم ، فجروه بغلظة ، وسوقوه بشدة ﴿إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ﴾ أى : إلى وسطها.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ﴾ على سبيل التنكيل به ﴿مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ﴾ صبا يذله ويوجعه ويجعل رأسه تغلى من شدة حرارة هذا الماء.

ثم قولوا له بعد ذلك على سبيل التهكم به ، والتقريع له : ﴿ذُقْ﴾ أى : تذوق شدة هذا العذاب فالأمر للإهانة.

﴿إِنَّكَ﴾ كنت تزعم في الدنيا ، بأنك ﴿أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات بقوله : ﴿إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أى : إن هذا العذاب الذي نزل بكم أيها الكافرون ، هو ما كنتم بشأنه تجادلون وتخاصمون في الدنيا ، فمنكم من كان ينكره ، ومنكم من كان يشكك في صحته. فها هو ذا قد أصبح حقيقة واقعة فوق رءوسكم.

وهكذا نجد الآيات الكريمة ، قد وضحت أن يوم القيامة حق لا ريب فيه ، وأن الكافرين به سيصيبهم عذاب شديد يذلهم ويخزيهم.

* * *

وبعد هذا الحديث عن الكافرين وسوء مصيرهم ، ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بالحديث عن المتقين وحسن عاقبتهم فقال ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (٥٣)

كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ (٥٩)

أى : إن الذين اتقوا الله ـ تعالى ـ وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه سيكونون يوم القيامة ﴿فِي مَقامٍ أَمِينٍ﴾ أى : في مكان يأمن معه صاحبه من كل خوف.

فالمراد بالمقام ـ بالفتح ـ موضع القيام ، أى : الثبات والملازمة. وقرأ ابن عامر ونافع ، ﴿مَقامٍ﴾ ـ بضم الميم ـ أى : موضع الإقامة. والمراد أنهم في مكان أو مجلس لا خوف فيه ولا مكروه.

وقوله : ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من ﴿مَقامٍ أَمِينٍ﴾ بإعادة حرف الجر أى : هم في مكان آمن ، تتوسطه وتحيط به البساتين الناضرة ، وعيون الماء المتفجرة.

﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ﴾ والسندس هو أجود أنواع الحرير وأرقه ، واحده سندسة.

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما كان سميكا من الديباج والحرير.

﴿مُتَقابِلِينَ﴾ أى : يجلسون في مجالس متقابلة ، بحيث ينظر بعضهم إلى بعض.

﴿كَذلِكَ﴾ أى : الأمر كذلك. من أن المتقين لهم كل هذا النعيم.

﴿وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى : وزوجناهم بنساء يحار الطرف فيهم لجمالهن وحسنهن ، والحور : جمع حوراء .. وهي التي يحار الطرف فيها لفرط جمالها. والعين : جمع عيناء. وهي التي اتسعت عينها في حسن وجمال.

﴿يَدْعُونَ فِيها﴾ أى : في الجنات ﴿بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾.

أى : يطلبون ويأمرون غيرهم بأن يحضر لهم كل ما يشتهونه من فاكهة أو غيرها ، فيلبي طلبهم وهم آمنون في أماكنهم من كل خوف أو ضرر.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن بقاءهم في تلك الجنات بقاء دائم فقال : ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى ، وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾.

أى : هم باقون بقاء دائما في تلك الجنات ، بحيث لا يموتون فيها أبدا ، إلا الموتة الأولى التي ذاقوها عند نهاية آجالهم في الدنيا ، ووقاهم ـ سبحانه ـ بعدها عذاب الجحيم ، الذي حل بالكافرين.

قال الآلوسى : وقوله : ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى﴾ جملة مستأنفة أو حالية ، وكأنه أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة ، فوضع الموتة الأولى موضع ذلك ، لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال ، كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها. ونظيره قول القائل لمن يستسقيه : لا أسقيك إلا الجمر ، وقد علم أن الجمر لا يسقى [1].

وقوله ﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ﴾ أى : أعطوا كل ذلك فضلا من ربك ، فقوله ﴿فَضْلاً﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف. أو على أنه مفعول لأجله. أى : لأجل الفضل منه ـ سبحانه ..

﴿ذلِكَ﴾ الذي أعطيناهم إياه ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا يدانيه ولا يساميه فضل.

﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ﴾ أى : فإنما أنزلنا عليك ـ يا محمد ـ هذا القرآن ، وجعلناه بلغتك ولغة قومك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما فيه من هدايات ويعتبرون بما اشتمل عليه من عبر وعظات.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بقوله : ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾.

أى : فعلنا ذلك لعلهم يتذكرون ، فإن لم يتذكروا ويتعظوا ويؤمنوا بما جئتهم به. فارتقب وانتظر ما يحل بهم من عذاب ، وما وعدناك به من النصر عليهم ، إنهم ـ أيضا ـ منتظرون ومرتقبون ما يحل بك من موت أو غيره.

ونحن بفضلنا ورحمتنا سنحقق لك ما وعدناك به ، وسنخيب ظنونهم وآمالهم.

وبعد فهذا تفسير وسيط لسورة «الدخان». نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١٣٦.

تفسير

سورة الجاثية

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة وتمهيد

١ ـ سورة «الجاثية» هي السورة الخامسة والأربعون في ترتيب المصحف. وكان نزولها بعد سورة «الدخان». وعدد آياتها سبع وثلاثون آية في المصحف الكوفي ، وست وثلاثون في غيره ، لاختلافهم في قوله ـ تعالى ـ ﴿حم﴾ ، هل هو آية مستقلة أولا.

٢ ـ وقد افتتحت هذه السورة بالثناء على القرآن الكريم ، وبدعوة الناس إلى التدبر والتأمل في هذا الكون العجيب ، وما اشتمل عليه من سموات وأرض ، ومن ليل ونهار ، ومن أمطار ورياح .. فإن هذا التأمل من شأنه أن يهدى إلى الحق ، وإلى أن لهذا الكون إلها واحدا قادرا حكيما ، هو الله رب العالمين.

قال ـ تعالى ـ : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٣ ـ ثم توعد ـ سبحانه ـ بعد ذلك الأفاكين بأشد أنواع العذاب ، لإصرارهم على كفرهم ، واتخاذهم آيات الله هزوا.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها ، فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ. وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾.

٤ ـ ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان جانب من نعم الله ـ تعالى ـ على خلقه ، تلك النعم التي تتمثل في البحر وما اشتمل عليه من خيرات ، وفي السموات والأرض وما فيهما من منافع.

قال ـ سبحانه ـ : ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٥ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ موقف بنى إسرائيل من نعم الله ـ تعالى ـ ، وكيف أنهم قابلوا

ذلك بالاختلاف والبغي ، ونهى ـ سبحانه ـ نبيه ﷺ عن الاستماع إليهم ، وبين أنه لا يستوي عنده ـ عزّ وجلّ ـ الذين اجترحوا السيئات ، والذين عملوا الصالحات.

فقال ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ ، أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ. وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

ثم حكى بعض الأقوال الباطلة التي تفوه بها الكافرون ، ورد عليها بما يزهقها ويثبت كذبها ، قال ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ. وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

٦ ـ ثم أخذت السورة الكريمة في أواخرها ، في بيان أهوال يوم القيامة ، وفي بيان عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار.

قال ـ تعالى ـ : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ، أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ ، فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾.

٧ ـ ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بالثناء على ذاته بما هو أهله ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ ، رَبِّ الْعالَمِينَ ، وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

هذا ، والمتدبر في هذه السورة الكريمة ، يراها تدعو الناس إلى التفكر فيما اشتمل عليه هذا الكون من آيات دالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وكمال قدرته ، كما أنه يراها تحكى بشيء من التفصيل أقوال المشركين وترد عليها ، وتبين سوء عاقبتهم كما يراها تسوق ألوانا من نعم الله على خلقه ، وتدعو المؤمنين إلى التمسك بكتاب ربهم ، وتبشرهم بأنهم متى فعلوا ذلك ظفروا برضوان الله تعالى وثوابه.

فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ، ذلك هو الفوز المبين ، كما يراها تهتم بتفصيل الحديث عن أهوال يوم القيامة ، لكي يفيء الناس إلى رشدهم ، ويستعدوا لاستقبال هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ

ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن ينجينا من أهوال هذا اليوم ، وأن يحشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليما.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال الله ـ تعالى ـ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٥)

سورة «الجاثية» من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجي ، وقد سبق أن قلنا ، إن هذه الحروف الرأى الراجح في معناها ، أنها سيقت للتنبيه على إعجاز القرآن ، وعلى أنه من عند الله ـ عزّ وجلّ ـ ..

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ بيان لمصدر هذا القرآن ، وأنه من عند الله ـ تعالى ـ لا من عند غيره.

أى : هذا القرآن من الله ـ تعالى ـ صاحب العزة التي لا عزة سواها ، وصاحب الحكمة التي لا تقاربها حكمة ، فهو ـ سبحانه ـ القاهر فوق عباده وهو الحكيم في كل تصرفاته.

ثم ساق ـ سبحانه ـ ستة أدلة على وحدانيته ، وكمال قدرته ، وجلال عظمته ويتمثل الدليل الأول في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى : إن في خلق هذه السموات المزينة بالمصابيح ، والتي لا ترى فيه من تفاوت ، والمرفوعة بغير عمد ... وفي خلق الأرض الممهدة المفروشة المثبتة بالجبال .. في كل ذلك لبراهين ساطعة للمؤمنين ، على أن الخالق لهما هو الله ـ تعالى ـ وحده ، المستحق للعبادة والطاعة.

فالمراد بقوله - تعالى - : ﴿إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ أى : إن في خلقهما ، كما صرح - سبحانه - بذلك في آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ (١).

والمراد بالآيات : الدلائل والبراهين الدالة على قدرته - سبحانه - ووحدانيته.

والدليل الثاني والثالث قوله - تعالى - : ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

قوله : ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ جار ومجرور خبر مقدم ، وقوله : ﴿آياتٌ﴾ مبتدأ مؤخر.

أى : وفي خلقكم - أيها الناس - من نطفة ، فعلقة ، فمضغة .. إلى أن نخرجكم من بطون أمهاتكم .. وفيما نبثه وننشره ونوجده من دواب لا تعد ولا تحصى على ظهر الأرض.

في كل ذلك ﴿آياتٌ﴾ بينات ، وعلامات واضحات ، على كمال قدرتنا ، لقوم يوقنون بأن القادر على هذا الخلق ، إنما هو الله - تعالى - وحده.

والدليل الرابع قوله - تعالى - : ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ..﴾ والمراد باختلافهما : تفاوتهما طولا وقصرا ، وتعاقبهما دون أن يسبق أحدهما الآخر كما قال - تعالى - : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٢).

وكون الليل والنهار يسيران على هذا النظام الدقيق المطرد الذي لا ينخرم ، دليل على أن هذا الاختلاف ، تدبير من إله قادر حكيم ، لا يدخل أفعاله تفاوت أو اختلال.

والدليل الخامس قوله - تعالى - : ﴿وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾.

وقوله : ﴿وَما أَنْزَلَ اللهُ ..﴾ معطوف على ﴿اخْتِلافِ﴾ ، والمراد من السماء : جهة العلو.

والمراد بالرزق : المطر الذي ينزل من السحاب ، وسمى رزقا لأن المطر سبب لأرزاق العباد.

أى : ومن الآيات الدالة على قدرته - سبحانه - : إنزاله المطر من السماء فينزل على الأرض ، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، بعد أن كانت جدباء هامدة.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٠.

(٢) سورة يس الآية ٤٠.

وأما الدليل السادس فهو قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ﴾ : والمراد بتصريفها : تقليبها في الجهات المختلفة ، ونقلها من حال إلى حال ، وتوجيهها على حسب مشيئته ـ سبحانه ـ ، فتارة تراها حارة ، وتارة تراها باردة.

أى : ومن الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، تقليبه ـ سبحانه ـ للرياح كما يشاء ويختار.

وفي ذلك الذي بيناه لكم ﴿آياتٌ﴾ واضحات على قدرتنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ذلك.

قال الجمل في حاشيته : وحاصل ما ذكر هنا من الدلائل ستة ، على ثلاث فواصل : الأولى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، والثانية ﴿يُوقِنُونَ﴾ ، والثالثة ، ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

ووجه التغاير بينها ، أن المنصف من نفسه إذا نظر في السموات والأرض وأنه لا بد لهما من صانع آمن ، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ، ازداد إيمانا فأيقن. وإذا نظر في سائر الحوادث عقل واستحكم علمه ، فاختلاف الفواصل الثلاث ، لاختلاف الآيات في الدقة والظهور (١).

وما ذكر في هذه الآيات الكريمة من أدلة ساطعة على قدرة الله ووحدانيته جاء في آيات كثيرة ، من أجمعها قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢).

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ هذه الأدلة الكونية الساطعة التي تحمل الناس على إخلاص العبادة له وحده ، أتبع ذلك بتهديد الذين عموا عنها ، والذين اتخذوا آيات الله هزوا .. فقال ـ تعالى ـ :

﴿تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ(٨)

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١١٢.

(٢) راجع تفسيرنا لهذه الآية في سورة البقرة ص ٣٢٩ وما بعدها.

وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠) هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ (١١)

والمراد بالآيات في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ..﴾ آيات القرآن الكريم ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [1].

و ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ ، و ﴿آياتُ اللهِ﴾ خبر و ﴿نَتْلُوها عَلَيْكَ﴾ حال عاملها ما دل عليه ﴿تِلْكَ﴾ من معنى الإشارة.

وقوله ﴿بِالْحَقِ﴾ حال من فاعل ﴿نَتْلُوها﴾ أو من مفعوله ، أى : نتلوها محقين ، أو ملتبسة بالحق.

أى : تلك ـ أيها الرسول الكريم ـ آيات الله ـ تعالى ـ المنزلة إليك ، نتلوها عليك تلاوة ملتبسة بالحق الذي لا يحوم حوله باطل.

وكانت الإشارة للبعيد ، لما في ذلك من معنى الاستقصاء للآيات ، ولعلو شأنها ، وكمال معانيها ، والوفاء في مقاصدها.

وأضاف ـ سبحانه ـ الآيات إليه ، لأنه هو الذي أنزلها على نبيه صلى‌الله‌عليه‌وسلم ، وفي هذه الإضافة ما فيها من التشريف لها ، والسمو لمنزلتها.

وجعل ـ سبحانه ـ تلاوة جبريل للقرآن تلاوة له ، للإشعار بشرف جبريل ، وأنه ما خرج في تلاوته عما أمره الله ـ تعالى ـ به ، فهو رسوله الأمين ، إلى رسله المكرمين.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ تعجيب من حالهم ، حيث أصر هؤلاء الكافرون على كفرهم ، مع وضوح البراهين والأدلة على بطلان ذلك.

أى : فبأى حديث بعد آيات الله المتلوة عليك يؤمن هؤلاء الجاهلون؟ إن عدم إيمانهم بعد

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٢.

ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، دليل على انطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد والجحود على قلوبهم.

قال الآلوسى : وقوله : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ هو من باب قولهم : أعجبنى زيد وكرمه ، يريدون أعجبنى كرم زيد ، إلا أنهم عدلوا عنه للمبالغة في الإعجاب.

أى : فبأى حديث بعد هذه الآيات المتلوة بالحق يؤمنون ، وفيه دلالة على أنه لا بيان أزيد من هذا البيان ، ولا آية أدل من هذه الآية.

وقال الواحدي : فبأى حديث بعد حديث الله ، أى : القرآن ، وقد جاء إطلاقه عليه في قوله ـ تعالى ـ : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ..﴾ وحسن الإضمار لقرينة تقدم الحديث.

وقوله ﴿وَآياتِهِ﴾ عطف عليه لتغايرهما إجمالا وتفصيلا .. والفاء في جواب شرط مقدر ، والظرف صفة ﴿حَدِيثٍ﴾ (1).

ثم هدد ـ تعالى ـ هؤلاء المشركين بقوله : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

والويل : لفظ يدل على الشر أو الهلاك. وهو مصدر لا فعل له من لفظه ، وقد يستعمل بدون حرف النداء كما هنا ، وقد يستعمل معه كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا﴾.

والأفاك : هو الإنسان الكثير الإفك وهو أشنع الكذب وأقبحه.

والأثيم : هو الإنسان المرتكب للذنوب والآثام بقلبه وجوارحه ، فهو سيئ الظاهر وسيئ الباطن.

أى : هلاك وعذاب وحسرة يوم القيامة لكل إنسان ينطق بأقبح الأكاذيب ويفعل أسوأ السيئات.

هذا الإنسان ـ أيضا ـ من صفاته أنه ﴿يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلى عَلَيْهِ﴾ صباح مساء.

﴿ثُمَ﴾ بعد ذلك ﴿يُصِرُّ﴾ على كفره ﴿مُسْتَكْبِراً﴾ أى : متكبرا عن الإيمان.

﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها﴾ أى : كأنه لم يسمع هذه الآيات ، لأنها لم توافق هواه أو شهواته. والتعبير بقوله : ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً﴾ للتعجيب من حاله ، حيث يصر على كفره ، بعد سماع ما يدعو إلى التخلي عن الكفر ، ويحمل على الدخول في الإيمان.

---

(1) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١٤٢.

والإصرار على الشيء : ملازمته ، وعدم الانفكاك عنه ، مأخوذ من الصر . بفتح الصاد . وهو الشد ، ومنه صرة الدراهم ، لأنها مشدودة على ما بداخلها.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله : ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً﴾؟

قلت : كمعناه في قول القائل ، يرى غمرات الموت ثم يزورها.

وذلك أن غمرات الموت خليقة بأن ينجو رائيها بنفسه ، ويطلب الفرار عنها.

وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها ، فأمر مستبعد ، فمعنى ﴿ثُمَّ﴾ : الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعد ما رآها وعاينها ، شيء يستبعد في الغايات والطباع.

وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق ، من تليت عليه وسمعها : كان مستبعدا في العقول إصراره على الضلالة عندها ، واستكباره عن الإيمان بها (١).

وقوله . تعالى . : ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ تهكم بهذا الأفاك الأثيم .. واستهزاء به ، لأن البشارة في الأصل إنما تكون من أجل الخبر السار ، الذي تتهلل له البشرة.

أى : فبشره بعذاب أليم ، بسبب إصراره على كفره ، واستحبابه العمى على الهدى.

ثم بين . سبحانه . صفة أخرى من صفات هذا الأفاك الأثيم فقال : ﴿وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً﴾.

أى : وإذا بلغ هذا الإنسان شيء من آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، بادر إلى الاستهزاء بها والسخرية منها ، ولم يكتف بالاستهزاء بما سمعه ، بل استهزأ بالآيات كلها لرسوخه في الكفر والجحود.

والتعبير بقوله : ﴿وَإِذا عَلِمَ﴾ زيادة في تحقيره وتجهيله ، لأن اتخاذه الآيات هزوا بعد علمه بمصدرها ، يدل على إيغاله في العناد والضلال.

وقوله : ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ بيان لسوء عاقبته. أى : أولئك الذين يفعلون ذلك لهم في الآخرة عذاب يهينهم ويذلهم ، ويجعلهم محل سخرية العقلاء واحتقارهم. ﴿مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى : من قدامهم جهنم لأنهم يوجهون إليها بعد موتهم ، أو هي من خلفهم لأنهم معرضون عنها ، ومهملون لما يبعدهم عن دخولها.

والوراء : اسم يستعمل بمعنى الأمام والخلف ، لأنه يطلق على الجهة التي يواريها الشخص ، فتعم الخلف والأمام.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٨٦.

﴿وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً﴾ أى : ولا يدفع عنهم ما كسبوه في الدنيا من أموال شيئا من العذاب ، ولو كان هذا الشيء يسيرا ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

فقوله ﴿وَلا يُغْنِي﴾ من الغناء ـ بفتح الغين ـ بمعنى الدفع والنفع ، ومنه قول الشاعر :

وقل غناء عنك مال جمعته ... إذا صار ميراثا وواراك لاحد

﴿وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ﴾ أى : ولا يغنى عنهم ـ أيضا ـ ما اتخذوه من دون الله ـ تعالى ـ من معبودات باطلة.

و ﴿ما﴾ في قوله ﴿ما كَسَبُوا﴾ و ﴿مَا اتَّخَذُوا﴾ موصولة والعائد محذوف. ويصح أن تكون في الموضعين مصدرية.

﴿وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعلم مقدار شدته وهوله إلا الله ـ تعالى ـ وحده.

والإشارة في قوله ـ تعالى ـ ﴿هذا هُدىً﴾ تعود إلى القرآن الكريم. والهدى مصدر هداه إلى الشيء إذا دله وأرشده إليه.

أى. هذا القرآن الذي أوحيناه إليك يا محمد ، في أعلى درجات الهداية وأكملها.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على وجوب إخلاص العبادة له.

﴿لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ والرجز : يطلق على أشد أنواع العذاب ..

أى : لهم أشد أنواع العذاب ، وأكثره إيلاما وإهانة.

وجمهور القراء قرأ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالخفض على أنه نعت لقوله ﴿رِجْزٍ﴾ وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع ، على أنه صفة لعذاب.

وهذه الآيات تهديد لكل من كانت فيه هذه الصفات التي منها : كثرة الكذب ، وكثرة اقتراف السيئات ، والإصرار على الباطل .. ويدخل في هذا التهديد دخولا أوليا ، النضر بن الحارث ، الذي كان يشترى أحاديث الأعاجم ليشغل بها الناس عن سماع القرآن ، والذي قيل إن هذه الآيات قد نزلت فيه.

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد هذا التهديد الشديد للأفاكين .. إلى بيان جانب من النعم التي أنعم بها ـ سبحانه ـ على عباده ، ودعت المؤمنين إلى الصبر والصفح ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ(١٤) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥)

وقوله ـ تعالى ـ ﴿سَخَّرَ﴾ من التسخير بمعنى التذليل والتيسير. يقال : سخر الله ـ تعالى ـ الإبل للإنسان ، إذا ذللها له ، وجعلها منقادة لأمره.

أى : الله ـ تعالى ـ وحده ، هو الذي بقدرته ورحمته ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بأن جعلكم متمكنين من الانتفاع بخيراته ، وبأن جعله على هذه الصفة التي تستطيعون منها استخراج ما فيه من خيرات.

وقوله : ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ..﴾ بيان لبعض الأسباب التي من أجلها سخر الله ـ تعالى ـ البحر على هذه الصفة.

أى : جعل لكم البحر على هذه الصفة ، لكي تتمكن السفن من الجري فيه بأمره ـ تعالى ـ وقدرته ، ولتطلبوا ما فيه من خيرات ، تارة عن طريق استخراج ما فيه من كنوز ، وتارة عن طريق التجارة فيها .. وكل ذلك بتيسير الله ـ تعالى ـ وفضله ورحمته بكم.

وقوله : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ متعلق بمحذوف. أى : أعطاكم ما أعطاكم من النعم ، وجعل البحر على صفة تتمكنون معها من الجري فيه وأنتم في سفنكم ، ومن استخراج ما فيه من خيرات .. لعلكم بعد ذلك تشكرون الله ـ تعالى ـ على هذه النعم ، وتستعملونها فيما خلقت من أجله.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ..﴾ تعميم بعد تخصيص.

أى : يسر لكم الانتفاع بما في البحر من خيرات ، ويسر لكم ـ أيضا ـ الانتفاع بكل

ما في السموات والأرض من نعم لا تعد ولا تحصى ، وكلها منه ـ تعالى ـ وحده ، لا من أحد سواه.

فقوله : ﴿جَمِيعاً﴾ حال من ﴿وَما فِي الْأَرْضِ﴾ ، أو تأكيد له. والضمير في قوله ـ تعالى ـ ﴿مِنْهُ﴾ يعود إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ ، والجار والمجرور حال من ﴿ما﴾ أيضا ، أى : جميعا كائنا منه ـ تعالى ـ لا من غيره.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى ﴿مِنْهُ﴾ في قوله : ﴿جَمِيعاً مِنْهُ﴾؟ وما موقعها من الإعراب؟.

قلت : هي واقعة موقع الحال. والمعنى : أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده. يعنى أنه مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ، ثم سخرها لخلقه. ويجوز أن يكون خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هي جميعا منه [1].

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ المذكور من تسخير البحر وما في السموات والأرض لكم ﴿لَآياتٍ﴾ ساطعات ، وعلامات واضحات ، ودلائل بينات ، على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته وفضله ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في هذه النعم ، ويحسنون شكرها.

وخص المتفكرين بالذكر ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما بين أيديهم من نعم ، إذ بالتفكر السليم ينتقل العاقل من مرحلة الظن ، إلى مرحلة اليقين ، التي يجزم معها بأن المستحق للعبادة والحمد ، إنما هو الله رب العالمين.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه صلّى الله عليه وسلّم أن يحض المؤمنين على التجاوز والصفح ، عما يصدر من المشركين من كلمات بذيئة ، ومن أفعال قبيحة ، حتى يأتى الله بأمره .. فقال ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما روى عن ابن عباس أنها نزلت في عمر بن الخطاب ، شتمه مشرك بمكة قبل الهجرة فهمّ أن يبطش به ، فنزلت [2].

ومقول القول محذوف لأن الجواب دال عليه. والرجاء هنا : بمعنى الخوف. والمراد بأيام الله : وقائعه بأعدائه.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لأتباعك المؤمنين ، على سبيل النصح والإرشاد ، قل

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٨٨.

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١٤٦.

لهم : اغفروا يغفروا للمشركين الذين لا يخافون من وقائع الله ونقمته بأعدائه ، ولا يتوقعون أن هناك عذابا شديدا سينتظرهم ، وأن هناك ثوابا عظيما سينتظر المؤمنين.

فالآية الكريمة توجيه حكيم للمؤمنين إلى التسامح والصبر على كيد أعدائهم ، حتى يأتى الله ـ تعالى ـ بأمره ، الذي فيه النصر للمؤمنين ، والخسران للكافرين.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ علة للأمر بالصفح والمغفرة ، وهو متعلق بما قبله ، والمراد بالقوم : المؤمنون الذين أمروا بالتسامح والعفو .. والتنكير في لفظ ﴿قَوْماً﴾ للتعظيم.

أى : أمر الله المؤمنين بذلك ، ليجزيهم يوم القيامة بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الصالحة ، التي منها الصبر على أذى أعدائهم ، والإغضاء عنهم ، واحتمال المكروه منهم.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً﴾ تعليل للأمر بالمغفرة أى إنما أمروا بأن يغفروا ، لما أراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة.

فإن قلت : قوله : ﴿قَوْماً﴾ ما وجه تنكيره ، وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟

قلت : هو مدح لهم وثناء عليهم ، كأنه قيل : ليجزي أيما قوم. أو قوما مخصوصين ، لصبرهم وإغضائهم على أعدائهم من الكفار ، وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص [1].

ثم عقب ـ سبحانه ـ على ذلك بما يؤكد عدالة الجزاء ، واحتمال كل نفس لما تعمله فقال : ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾.

أى : من عمل عملا صالحا ، فثواب هذا العمل يعود إلى نفسه ، ومن عمل عملا سيئا فعقاب هذا العمل يعود عليها ـ أيضا ..

﴿ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فترون ذلك رأى العين ، وتشاهدون أن كل إنسان سوف يجازى على حسب عمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعم الله ـ سبحانه ـ على بنى إسرائيل ، وعن موقفهم منها ، وأمرت النبي ﷺ أن يتمسك بالشريعة التي أنزلها الله ـ سبحانه ـ عليه .. فقال :

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٨٨.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٦) وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢٠)

والمراد بإسرائيل : يعقوب ـ عليه‌السلام ـ وببنيه : ذريته من بعده. والمراد بالكتاب : التوراة ، أو جنس الكتاب فيشمل التوراة والإنجيل والزبور.

أى : والله لقد أعطينا بنى إسرائيل ﴿الْكِتابَ﴾ ليكون هداية لهم ، وآتيناهم ـ أيضا ـ ﴿الْحُكْمَ﴾ أى : الفقه والفهم للأحكام حتى يتمكنوا من القضاء بين الناس ، وأعطيناهم كذلك ﴿النُّبُوَّةَ﴾ بأن جعلنا عددا كبيرا من الأنبياء فيهم ومنهم.

وهكذا منحهم ـ سبحانه ـ نعما عظمى تتعلق بدينهم ، أما النعم التي تتعلق بدنياهم فقد بينها ـ سبحانه ـ في قوله : ﴿وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ أى : ورزقناهم من المطاعم والمشارب الطيبات التي جعلناها حلالا لهم.

وقوله : ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ بيان لنعمة أخرى. وللمفسرين في معنى هذه الجملة اتجاهان : أحدهما : أن المقصود بها فضلناهم على العالمين بأمور معينة حيث جعلنا عددا من الأنبياء منهم ، وأنزلنا المن والسلوى عليهم.

قال الآلوسى : قوله : ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم من فلق البحر ، وإضلال الغمام ، ونظائرهما ، فالمراد تفضيلهم على العالمين مطلقا من بعض

الوجوه ، لا من كلها ، ولا من جهة المرتبة والثواب فلا ينافي ذلك تفضيل أمة محمد ﷺ عليهم من وجه آخر ، ومن جهة المرتبة والثواب [1].

والثاني : أن المقصود بها : فضلناهم على عالمي زمانهم.

قال الإمام الرازي ، ما ملخصه : فإن قيل إن تفضيلهم على العالمين ، يقتضي تفضيلهم على أمة محمد ﷺ وهذا باطل ، فكيف الجواب؟

قلنا : الجواب من وجوه أقربها إلى الصواب أن المراد : فضلتكم على عالمي زمانكم ، وذلك لأن الشخص الذي سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود ، لم يكن من جملة العالمين حال عدمه ، وأمة محمد ﷺ لم تكن موجودة في ذلك الوقت ، فلا يلزم من كون بنى إسرائيل أفضل العالمين في ذلك الوقت ، أنهم أفضل من الأمة الإسلامية. [2].

وقال الشيخ الشنقيطى ما ملخصه : قوله . تعالى . : ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾.

ذكر . سبحانه . في هذه الآية أنه فضل بنى إسرائيل على العالمين ، كما ذكر ذلك في آيات أخرى .. ولكن الله . تعالى . بين أن أمة محمد ﷺ خير من بنى إسرائيل ، وأكرم على الله ، كما صرح بذلك في قوله : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

فخير صيغة تفضيل ، والآية نص صريح في أنهم خير من جميع الأمم ، بنى إسرائيل وغيرهم.

ويؤيد ذلك من حديث معاوية بن حيدة القشيري ، أن النبي ﷺ قال في أمته : أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله ، وقد رواه عنه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم وهو حديث مشهور.

واعلم أن ما ذكرنا من كون الأمة الإسلامية أفضل من بنى إسرائيل وغيرهم ، لا يعارض ما ورد من آيات في تفضيل بنى إسرائيل.

لأن ذلك التفضيل الوارد في بنى إسرائيل ، ذكر فيهم حال عدم وجود أمة محمد ﷺ والمعدوم في حال عدمه ليس بشيء حتى يفضل على غيره ، أو يفضل غيره عليه.

ولكنه . تعالى . بعد وجود الأمة الإسلامية صرح بأنها خير الأمم ، فثبت أن كل ما جاء في القرآن من تفضيل بنى إسرائيل ، إنما يراد به ذكر أحوال سابقة [3].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١٤٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ٣٥٥.

(٣) راجع تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ٢٥١.

وهذا الاتجاه الثاني هو الذي نرجحه ، لأن المقصود بالآية الكريمة وأمثالها تذكير بنى إسرائيل المعاصرين للنبي ﷺ بنعم الله عليهم وعلى آبائهم ، حتى يشكروه عليها.

ومن مظاهر هذا الشكر ـ بل على رأسه ـ إيمانهم بما جاءهم به النبي ﷺ.

ولكن بنى إسرائيل لم يقابلوا تلك النعم بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والحسد للنبي ﷺ على ما آتاه الله ـ تعالى ـ من فضله ، فكانت نتيجة ذلك أن لعنهم الله وغضب عليهم ، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت.

ولقد سبق أن قلنا عند تفسيرنا لقوله ـ تعالى ـ في سورة البقرة : ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾.

والعبرة التي نستخلصها من هذه الآية وأمثالها : أن الله ـ تعالى ـ فضل بنى إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة على الأمة الإسلامية ، ومنحهم الكثير من النعم ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر .. فسلب الله عنهم ما حباهم به من نعم. ووصفهم في كتابه بنقض العهد ، وقسوة القلب.

وهذا مصير كل أمة بدلت نعمة الله كفرا ، لأن الميزان عند الله للتقوى والفعل الصالح ، وليس للجنس أو اللون أو النسب (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ نعمة أخرى من النعم التي أنعم بها على بنى إسرائيل فقال : ﴿وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ والبينات جمع بينة ، وهي الدليل الواضح الصريح. و ﴿مِنَ﴾ بمعنى في.

أى : وأعطيناهم ـ فضلا عن كل ما سبق ـ دلائل واضحة ، وشرائع بينة تتعلق بأمر دينهم ، بأن فصلنا لهم الحلال والحرام ، والحسن والقبيح ، والحق والباطل ، فصاروا بذلك على علم تام بشريعتهم ، بحيث لا يخفى عليهم شيء مما اشتملت عليه من أوامر أو نواه ، أو حلال أو حرام.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة أن الله ـ تعالى ـ قد أعطاهم شريعة واضحة لا غموض فيها ولا التباس ، ولا عوج فيها ولا انحراف.

بل إن شريعتهم قد أخبرتهم عن طريق رسلهم بمبعث النبي ﷺ وبوجوب إيمانهم به عند ظهوره ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ، مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة البقرة ص ١١٥.

أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١).

ثم بين ـ سبحانه ـ الموقف القبيح الذي وقفه بنو إسرائيل من نعم الله عليهم فقال :

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾.

والبغي : تجاوز الحق إلى الباطل في كل شيء. يقال بغت المرأة إذا أتت مالا يحل لها. وبغى فلان على فلان إذا اعتدى عليه ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ﴾.

والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أو الأوقات ، وقوله : ﴿بَغْياً﴾ مفعول لأجله.

أى : أن بنى إسرائيل أنعمنا عليهم بتلك النعم الدينية والدنيوية ، فما اختلفوا في أمور دينهم التي وضحناها لهم ، إلا عن علم لا عن جهل ، ولم يكن خلافهم في حال من الأحوال إلا من أجل البغي والحسد فيما بينهم ، لا من أجل الوصول إلى الحق.

فأنت ترى أن الجملة الكريمة توبخ بنى إسرائيل توبيخا شديدا ، لأنها بينت أن خلافهم لم يكن عن جهل ، وإنما كان عن علم ، والاختلاف بعد العلم بالحق أقبح وأشنع ، وأن اختلافهم لم يكن من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما كان سببه البغي والحسد.

فهم قد اختلفوا في الحق مع علمهم به ، لأن العلم كالمطر ، لا تستفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية ، وكذلك لا يستفيد من العلم إلا أصحاب النفوس الصافية ، والقلوب الواعية .. والنفوس عند ما يستولى عليها الهوى ، تحول المقتضى إلى مانع.

ورحم الله الإمام الرازي فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : والمقصود من هذه الجملة ، التعجب من أحوالهم ، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف. وهاهنا صار مجيء العلم سببا لحصول الاختلاف ، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم ، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والبغي (٢).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ بيان لحكم الله العادل فيهم.

أى : إن ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ يقضى بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة ، بقضائه العادل ، بأن ينزل بهم العقاب الذي يستحقونه بسبب ما كانوا يختلفون فيه من أمر الدين ، الذي جعل الله أحكامه واضحة لهم ، ولا تحتمل الاختلاف أو التنازع.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يتمسك بالدين الذي أوحاه إليه ، فقال :

---

(١) سورة الصف الآية ٦.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٤٦٧.

﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها﴾.

والشريعة في الأصل تطلق على المياه والأنهار التي يقصدها الناس للشرب منها ، والمراد بها هنا : الدين والملة ، لأن الناس يأخذون منهما ما تحيا به أرواحهم ، كما يأخذون من المياه والأنهار ما تحيا به أبدانهم.

قال القرطبي : الشريعة في اللغة : المذهب والملة. ويقال لمشرعة الماء ـ وهي مورد الشاربة ـ شريعة. ومنه الشارع لأنه طريق إلى المقصد. فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ، والجمع الشرائع والشرائع في الدين المذاهب التي شرعها الله ـ تعالى ـ لخلقه [1].

أى : ثم جعلناك ـ أيها الرسول الكريم ـ على شريعة ثابتة ، وسنة قويمة ، وطريقة حميدة ، من أمر الدين الذي أوحيناه إليك ، ﴿فَاتَّبِعْها﴾ اتباعا تاما لا انحراف عنه ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ من أهل الكفر والضلال والجهل.

وقد ذكروا أن كفار قريش قالوا للنبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ارجع إلى دين آبائك ، فإنهم كانوا أفضل منك ، فنزلت هذه الآية.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ تعليل للنهى عن اتباع أهوائهم.

أى : إنك ـ أيها الرسول الكريم ـ إن اتبعت أهواء هؤلاء الضالين ، صرت مستحقا لمؤاخذتنا ، ولن يستطيع هؤلاء أو غيرهم ، أن يدفع عنك شيئا مما أراده الله ـ تعالى ـ بك.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ أى : بعضهم نصراء بعض في الدنيا ، أما في الآخرة فولايتهم تنقلب إلى عداوة.

﴿وَاللهُ﴾ ـ تعالى ـ هو ﴿وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين أنت إمامهم وقدوتهم ، فاثبت على شريعتنا التي أوحيناها إليك ، لتنال ما أنت أهله من رضانا وعطائنا.

ثم أثنى ـ سبحانه ـ على القرآن الكريم الذي أنزله على نبيه صلى‌الله‌عليه‌وسلم فقال : ﴿هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

والبصائر : جمع بصيرة ـ وهي للقلب بمنزلة البصر للعين. فهي النور الذي يبصر به القلب هدايته ، كما أن البصر هو النور الذي تبصر به العين طريقها.

وقوله : ﴿هذا﴾ مبتدأ ، وبصائر خبره ، وجمع الخبر باعتبار ما في القرآن من تعدد الآيات والبراهين.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ١٦٣.

أى هذا القرآن الذي أنزلناه إليك ـ أيها الرسول الكريم ـ ﴿بَصائِرُ لِلنَّاسِ﴾ لأن ما فيه من حجج وبراهين ، تكشف للقلب طريق الحق ، كما تكشف العين للإنسان مساره وهو ـ أيضا ـ ﴿هُدىً﴾ أى : هداية عظيمة إلى الرشاد والسعادة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ واسعة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى : لقوم من شأنهم الإيقان بأنه من عند الله ـ تعالى ـ ، وبأنك ـ أيها الرسول الكريم ـ صادق فيما تبلغه عن ربك.

وخص الموقنين بالذكر ، لأنهم هم الذين ينتفعون بحجج القرآن الكريم ، وبهداياته ، أما الذين في قلوبهم مرض أوشك ، فإنهم لا ينتفعون بذلك.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ .. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ﴾ (١).

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ ، وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ (٢).

ثم فرقت السورة الكريمة بين حال الذين يجترحون السيئات ، وحال الذين يعملون الصالحات ، وحكت جانبا من أقوال المشركين ، وردت عليهم بما يبطلها ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) سورة فصلت الآية ٤٤.

إِلاَّ الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦)

و ﴿أَمْ﴾ في قوله . تعالى . : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ﴾ منقطعة ، وتقدر ببل والهمزة ، وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثاني ، والهمزة لإنكار الحسبان.

والاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجارحة للأعضاء التي يكتسب بها كالأيدى. ويقال : فلان جارحة أهله ، أى : هو الذي يكتسب لهم أرزاقهم.

وحسب : فعل ماض ، والذين فاعله ، وجملة ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ﴾ ساد مسد المفعولين.

والمعنى : بل أحسب الذين اكتسبوا ما يسوء من الكفر والمعاصي ، أن نجعلهم متساوين مع الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات في دار الدنيا أو في الدار الآخرة؟

كلا!! لا يستوون فيهما ، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يحيون في الدنيا حياة طيبة لا مكان فيها للهموم والأحقاد والإحن ببركة إيمانهم ، وفي الآخرة ينالون رضا الله . تعالى . وحسن ثوابه.

أما الذين اجترحوا السيئات فهم في شقاء في الدنيا وفي الآخرة.

قال الشوكانى قرأ الجمهور ﴿سَواءً﴾ بالرفع على أنه خبر مقدم. والمبتدأ محياهم ومماتهم. والمعنى إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم سواء.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿سَواءً﴾ بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور في قوله : ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ أو على أنه مفعول ثان لحسب [(١)].

وقوله : ﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ أى بئس حكما حكمهم هذا الذي زعموا فيه تسويتنا بين

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٨.

الذين اجترحوا السيئات ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة ، توبيخهم على أحكامهم الباطلة ، وأفكارهم الفاسدة.

قال الآلوسى : قوله : ﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ أى : ساء حكمهم هذا ، وهو الحكم بالتساوي ، فما مصدرية ، والكلام إخبار عن قبح حكمهم المعهود.

ويجوز أن يكون لإنشاء ذمهم على أن ﴿ساءَ﴾ بمعنى بئس ، فتكون كلمة ﴿ما﴾ نكرة موصوفة ، وقعت تمييزا مفسرا لضمير الفاعل المبهم والمخصوص بالذم محذوف أى : بئس شيئا حكموا به ذلك [1].

ثم أكد ـ سبحانه ـ عدم المساواة بين الفريقين فقال : ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ﴾ أى خلقهما خلقا ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل.

وقوله ﴿وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ معطوف على مقدر يفهم من سياق الكلام.

أى : خلقهما بالحق ليبرهن بذلك على وحدانيته وقدرته. ولتجزى كل نفس يوم القيامة بسبب ما اكتسبته من أعمال.

ويصح أن يكون معطوفا على قوله ﴿بِالْحَقِ﴾. أى : خلقهما بالحق المقتضى للعدل بين العباد ، ولتجزى كل نفس بما كسبت ، فهو من عطف المسبب على السبب.

﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى : الخلائق المدلول عليهم بقوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ لا يلحقهم شيء من الظلم يوم القيامة ، لأن الله ـ تعالى ـ قد كتب على نفسه أنه لا يظلم أحدا.

والاستفهام في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ﴾ للتعجب من حال هؤلاء المشركين ، ولتسلية النبي ﷺ عما أصابه منهم من أذى.

والمراد بهواه : ما يستحسنه من تصرفات ، حتى ولو كانت تلك التصرفات في نهاية القبح والشناعة والجهالة.

والمعنى : انظر وتأمل ـ أيها الرسول الكريم ـ في أحوال هؤلاء الكافرين فإنك لن ترى جهالة كجهالاتهم ، لأنهم إذا حسن لهم هواهم شيئا اتخذوه إلها لهم ، مهما كان قبح تصرفهم ، وانحطاط تفكيرهم ، وخضعوا له كما يخضع العابد لمعبوده.

قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا. فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ١٥١.

وقوله : ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ﴾ أى : وأضل الله ـ تعالى ـ هذا الشقي ، بأن خلق فيه الضلالة ، على علم منه ـ سبحانه ـ بأن هذا الشقي أهل لذلك لاستحبابه العمى على الهدى.

فيكون قوله ﴿عَلى عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل ، أى أضله ـ سبحانه ـ حالة كونه عالما بأنه من أهل الضلال.

ويصح أن يكون حالا من المفعول ، أى : وأضل الله ـ تعالى ـ هذا الشقي ، والحال أن هذا الشقي عالم بطريق الإيمان ، ولكنه استحب الغي على الرشد.

وقوله ﴿وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ والختم : الوسم بطابع ونحوه ، مأخوذ من وضع الخاتم على الشيء ، وطبعه فيه للاستيثاق ، لكي لا يخرج منه ما بداخله ولا يدخله ما هو خارج عنه.

أى : وطبع على سمعه وقلبه ، فجعله لا يسمع سماع تدبر وانتفاع ، ولا يفقه ما فيه هدايته ورشده.

﴿وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً﴾ أى : وجعل على بصره غطاء ، يحجب عنه الرؤية السليمة للأشياء وأصل الغشاوة ما يغطى به الشيء ، من غشاه إذا غطاه.

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ للإنكار والنفي.

أى : لا أحد يستطيع أن يهدى هذا الإنسان الذي اتخذ إلهه هواه من بعد أن أضله الله ـ عزوجل ـ ..

﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أى : أفلا تتفكرون وتتأملون فيما سقت لكم من مواعظ وعبر ، تفكرا يهديكم إلى الرشد ، ويبعثكم على الإيمان.

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، تسلية للرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم عما أصابه من المشركين ، وتعجيب من أحوالهم التي بلغت الغاية في الجهالة والضلالة. ودعوة لهم إلى التذكر والاعتبار ، لأن ذلك ينقلهم من الكفر إلى الإيمان.

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من أقوالهم الباطلة فقال : ﴿وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

أى : وقال هؤلاء المشركون على سبيل الجهل والعناد والجحود للحق ، ما الحياة إلا هذه الحياة الدنيوية التي نحياها فيها ، وليس هناك حياة سواها ، فنحن نموت ثم يحيا أولادنا من

بعدنا أو يموت بعضنا ويحيا البعض الآخر إلى زمن معين ، أو نكون أمواتا في أصلاب آبائنا ، ثم نحيا بعد ذلك عند الولادة.

﴿وَما يُهْلِكُنا﴾ عند انتهاء آجالنا ﴿إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أى : إلا مرور الزمان ، وكر الأعوام وتقلب الشهور والأيام.

قال ابن كثير ما ملخصه «يخبر ـ تعالى ـ عن قول الدهرية من الكفار ، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد : ﴿وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا ...﴾ أى : ما ثمّ إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثمّ معاد ولا قيامة ...

ولهذا قالوا : ﴿وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ـ أى : إلا مرور الأيام والليالى ـ فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ...

وفي الحديث الصحيح ـ الذي رواه الشيخان وغيرهما ـ عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله ـ تعالى ـ : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب ليله ونهاره.

والمقصود من هذا الحديث النهى عن سب الدهر ، لأن الله ـ تعالى ـ هو الخالق له ، فمن يسب الدهر ، فكأنما سب الله ـ تعالى ـ لأنه ـ سبحانه ـ هو الذي يقلب الليالى والأيام.

وقد كان العرب في الجاهلية إذا ما أصابتهم شدة أو نكبة ، قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال والمصائب إلى الدهر ويسبونه [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ رد عليهم فيما قالوه من أقوال باطلة تتعلق بإنكارهم للبعث والحساب.

أى : وليس لهم فيما زعموه من إنكارهم للبعث من علم مستند إلى نقل أو عقل ، إن هم إلا يظنون ظنا مبنيا على الوهم والضلال.

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ﴾ أى : وإذا تليت عليهم آيات القرآن ، الواضحة في دلالتها على أن يوم القيامة حق ، وأن الحساب حق.

﴿ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أى : ما كان ردهم على من يذكرهم بالبعث إلا أن قالوا لهم : أعيدوا إلينا آباءنا الذين ماتوا إن كنتم صادقين في قولكم : إن هناك بعثا وحسابا وثوابا وعقابا.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٥٣.

وقوله ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ . بالنصب . خبر كان ، واسمها قوله : ﴿إِلَّا أَنْ قالُوا﴾.

وسمى . سبحانه . أقوالهم مع بطلانها حجة ، على سبيل التهكم بهم ، والاستهزاء بهذه الأقوال.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم سمى قولهم حجة وليس بحجة؟

قلت : لأنهم أدلوا به كما يدلى المحتج بحجته ، وساقوه مساقها ، فسميت حجة على سبيل التهكم ، أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة ، أو لأنه في أسلوب قول القائل :

تحية بينهم ضرب وجيع .. كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة.

والمراد : نفى أن تكون لهم حجة ألبتة [1].

ثم ختم . سبحانه . هذه الآية بأمر النبي ﷺ بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أى : وأنتم في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم في الدنيا ، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ بأن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء ، وهذا اليوم وهو يوم القيامة آت ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شك في حدوثه.

﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ، لاستيلاء الهوى والشيطان على قلوبهم ، ولو عقلوا لعلموا أن من أنشأ الإنسان من العدم ، قادر على إعادته بعد موته من باب أولى.

ثم أخذت السورة الكريمة في أواخرها في تذكير الناس بأهوال يوم القيامة لكي يستعدوا للقاء هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح ، فذكرتهم بأحوال الأخيار والأشرار في هذا اليوم العصيب ، وبينت لهم أن الندم لن ينفع في هذا اليوم .. فقال . تعالى . :

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧)
وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هذا كِتابُنا
يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحاتِ

---

(١) تفسير الكشاف ج ٧ ص ٢٩١.

فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٣٤) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧)

قال الإمام الرازي : قوله : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ : أنه ـ تعالى ـ لما احتج بكونه قادرا على الإحياء في المرة الأولى ، وعلى كونه قادرا على الإحياء في المرة الثانية في الآيات المتقدمة ، عمم بعد ذلك الدليل فقال : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : لله ـ تعالى ـ القدرة على جميع الممكنات سواء أكانت من السموات أم من الأرض [1].

أى : ﴿لِلَّهِ﴾ ـ تعالى ـ وحده ﴿مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقا وتصرفا وإحياء وإماتة لا راد لقضائه. ولا معقب لحكمه.

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة الكافرين يوم القيامة فقال : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾.

أى : ولله ـ تعالى ـ ملك السموات والأرض ، وله ـ أيضا ـ ملك وقت قيام الساعة ،

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٤٧٣.

لأنه لا يستطيع أحد أن يعلم وقت قيامها ، أو يتصرف فيه ، إلا هو . عَزَّوَجَلَّ . وفي اليوم الذي تقوم فيه الساعة يخسر المبطلون ، أنفسهم وأهليهم ، ويصيرون في حال شديدة من الهم والغم والكرب ، لأنهم كذبوا بهذا اليوم ، وكفروا به وقالوا : ﴿ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

قال الشوكاني وقوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أى : المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل ، يظهر في ذلك اليوم خسرانهم لأنهم يصيرون إلى النار ، والعامل في ﴿يَوْمَ﴾ هو الفعل ﴿يَخْسَرُ﴾ ويومئذ بدل منه ، والتنوين للعوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه ، فيكون التقدير : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يوم تقوم الساعة ، فيكون بدلا توكيديا.

والأحسن أن يكون العامل في ﴿يَوْمَ﴾ هو ﴿مُلْكُ﴾ . أى : ما يدل عليه هذا اللفظ. أى : ولله . تعالى . ملك السموات والأرض . وملك يوم تقوم الساعة ، ويكون قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ معمولا ليخسر .. [1].

وشبيه بهذه الآية قوله . تعالى . : ﴿فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [2].

ثم يعرض . سبحانه . مشهدا من مشاهد هذا اليوم الهائل الشديد فيقول : ﴿وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً﴾.

وقوله : . سبحانه . : ﴿جاثِيَةً﴾ من الجثو وهو الجلوس على الركب بتحفز وترقب وخوف.

يقال : جثا فلان على ركبتيه يجثو جثوا وجثيا ، إذا برك على ركبتيه وأنامله في حالة تحفز ، كأنه منتظر لما يكرهه.

أى : وترى . أيها العاقل . في هذا اليوم الذي تشيب من هوله الولدان ، كل أمة من الأمم متميزة عن غيرها ، وجاثية على ركبها ، مترقبة لمصيرها في تلهف وخوف فالجملة الكريمة تصور أهوال هذا اليوم ، وأحوال الناس فيه ، تصويرا بليغا مؤثرا ، يبعث على الخوف الشديد من هذا اليوم ، وعلى تقديم العمل الصالح الذي ينفع صاحبه ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ١٠.

(٢) سورة غافر الآية ٨٧.

وقوله ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾ خبره. أى : كل أمة تدعى إلى سجل أعمالها الذي أمر الله ـ تعالى ـ ملائكته بكتابته لتحاسب عليه.

وقوله : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مقول لقول مقدر. أى : ويقال لهم جميعا في هذا الوقت : اليوم تجدون جزاء أعمالكم التي كنتم تعملونها في الدنيا من خير أو شر.

ويقال لهم ـ أيضا ـ : ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ﴾.

أى : هذا كتابنا الذي سجلته عليكم الملائكة ، يشهد عليكم بالحق ، لأنه لا زيادة فيما كتب عليكم ولا نقصان ، وإنما هي أعمالكم أحصيناها عليكم.

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : ﴿هذا كِتابُنا﴾ قيل من قول الله لهم. وقيل من قول الملائكة.

﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ﴾ أى : يشهد. وهو استعارة ، يقال : نطق الكتاب بكذا ، أى : بين. وقيل : إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا ، فكأنه ينطق عليهم.

دليله قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها﴾ وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

وقوله : ﴿يَنْطِقُ﴾ في موضع الحال من الكتاب» [١].

وقال الجمل في حاشيته : فإن قيل : كيف أضيف الكتاب إليهم في قوله : ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا﴾.

وأضيف هنا إلى الله ـ تعالى ـ فقال : ﴿هذا كِتابُنا﴾؟

فالجواب أنه لا منافاة بين الأمرين ، لأنه كتابهم بمعنى أنه مشتمل على أعمالهم ، وكتاب الله ، بمعنى أنه ـ سبحانه ـ هو الذي أمر الملائكة بكتابته [٢].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليل للنطق بالحق ، أى : إنا كنا نأمر ملائكتنا بنسخ أعمالكم ، أى : بكتابتها وتثبيتها عليكم في الصحف ، حسنة كانت أو سيئة ، فالمراد بالنسخ هنا : الإثبات لا الإزالة.

ثم فصل ـ سبحانه ـ ما يترتب على ما سبق من أحكام فقال : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أى : فيدخلهم ـ سبحانه ـ في جنته ورضوانه.

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ١٧٤.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٢٠.

﴿ذلِكَ﴾ العطاء الجزيل ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ الذي لا يدانيه فوز.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع والزجر :

﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ﴾ أى : أفلم تأتكم رسلي بآياتى الدالة على وحدانيتي وعلى صدقهم فيما يبلغونه عنى؟ بلى لقد جاءكم رسلي بآياتى.

﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الاستماع إليهم ، وعن الاستجابة لهم ، واتباع دعوتهم.

﴿وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ أى : وكنتم في الدنيا قوما عادتكم الإجرام ، واجتراح السيئات ، واقتراف المنكرات.

﴿وَإِذا قِيلَ﴾ لكم في الدنيا ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ أى : إن ما وعد الله ـ تعالى ـ به من البعث والحساب حق وصدق ﴿وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها﴾ أى : لا شك فيها.

﴿قُلْتُمْ﴾ على سبيل العناد والجحود ﴿ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أى : قلتم على سبيل الإنكار لها ، والاستبعاد لحصولها : لا نعرف أن هناك شيئا اسمه الساعة ، ولا نعترف بها اعترافا يدل على إيماننا بها.

﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أى : كنتم في الدنيا تقولون : لا نوقن ولا نؤمن بحدوث الساعة ، ولكنا نظن ونتوهم أن هناك شيئا اسمه الساعة ، وما نحن بمستيقنين بإتيانها.

ولعل هذا الكلام الذي حكاه القرآن الكريم عنهم ، هو كلام الشاكين المتحيرين من الكافرين أما الجاحدون منهم فهم الذين حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : ﴿ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ ..﴾.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما ترتب على هذه الأقوال الباطلة من نتائج فقال : ﴿وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا﴾ أى : وظهر لهؤلاء الكافرين سيئات أعمالهم على حقيقتها التي كانوا لا يتوقعونها.

﴿وَحاقَ بِهِمْ﴾ أى : وأحاط ونزل بهم ﴿ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أى : في الدنيا ، فقد كانوا في الدنيا ينكرون البعث والحساب والجزاء ويستهزئون بمن يحدثهم عن ذلك. فنزل بهم العذاب المهين ، جزاء استهزائهم وإنكارهم.

﴿وَقِيلَ﴾ لهم على سبيل التأنيب والزجر ﴿الْيَوْمَ نَنْساكُمْ﴾ أى : نهملكم ونترككم في النار ﴿كَما نَسِيتُمْ﴾ أنتم في الدنيا وأنكرتم ﴿لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا﴾ وهو يوم القيامة ﴿وَمَأْواكُمُ النَّارُ﴾ أى : ومسكنكم الذي تأوون إليه النار وبئس القرار.

﴿وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ أى : وليس لكم من ناصرين ينصرونكم ، ويخففون عنكم هذا العذاب الذي حل بكم.

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التي أدت بهم إلى هذا المصير السيئ فقال : ﴿ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً﴾.

أى : ذلكم العذاب المبين الذي نزل بكم سببه أنكم استهزأتم بآيات القرآن الكريم ، وسخرتم منها ، وكذبتم من جاء بها.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ أى : وخدعتكم الحياة الدنيا بزخارفها ومتعها وشهواتها.

﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها﴾ أى : من النار.

﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى : ولا هم يطلب منهم أن يرضوا ربهم ، بأن يتوبوا إليه مما كان منهم من كفر وفسوق في الدنيا ، لأن التوبة قد فات أوانها.

فقوله : ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من العتب ـ بفتح العين وسكون التاء ـ وهي الموجدة. يقال : عتب عليه يعتب ، إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه ، قيل : عاتبه.

والمقصود من الآية الكريمة أن هؤلاء الكافرين لا يقبل منهم في هذا اليوم عذر أو توبة.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بقوله : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ أى : فلله ـ تعالى ـ وحده الحمد والثناء ﴿رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ لا رب سواه ولا خالق غيره.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِياءُ﴾ أى : العظمة والسلطان والجلال ﴿فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قال ابن كثير : أى : هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه. فقير إليه وفي الحديث الصحيح يقول الله ـ تعالى ـ : «العظمة إزارى ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعنى واحدا منهما أسكنته ناري».

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى : الذي لا يغالب ولا يمانع ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله (١).

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٢٥٧.

وبعد فهذا تفسير محرر لسورة «الجاثية» نسأل الله . تعالى . أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير

سورة الأحقاف

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة وتمهيد

١ ـ سورة «الأحقاف» هي السورة السادسة والأربعون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول فقد كان بعد سورة «الجاثية».

والذي يراجع ما كتبه العلماء في ترتيب سور القرآن الكريم ، يجد أن الحواميم قد نزلت مرتبة كترتيبها في المصحف.

٢ ـ وسورة «الأحقاف» عدد آياتها خمس وثلاثون آية في المصحف الكوفي ، وأربع وثلاثون آية في غيره ، وهي من السور المكية.

قال الآلوسى : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة ، فأطلق غير واحد القول بمكيتها من غير استثناء ..

واستثنى بعضهم قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَكَفَرْتُمْ بِهِ ، وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ﴾.

واستثنى بعضهم قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ...﴾ إلى قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾.

٣ ـ وقد افتتحت السورة الكريمة بالثناء على القرآن الكريم ، وبيان جانب من مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ ، وبتلقين النبي صلى الله عليه وسلم الجواب السديد الذي يرد به على المشركين ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ. أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ، ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا ، أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾.

ثم تحكى السورة الكريمة بعض الأعذار الزائفة التي اعتذر بها الكافرون وردت عليهم بما يبطلها ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ...﴾.

٤ ـ ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن حسن عاقبة الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، وعن الوصايا الحكيمة التي أوصى الله ـ تعالى ـ بها الأبناء نحو آبائهم ، وعن حسن عاقبة

الذين يعملون بتلك الوصايا ، فقال . تعالى . : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا ، وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ ، وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾.

كما بينت السورة الكريمة سوء عاقبة الكافرين ، الذين أعرضوا عن دعوة الحق ، قال . تعالى . : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ، أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا ، وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

٥ . ثم حذرت السورة المشركين من الإصرار على شركهم ، وذكرتهم بما حل بالمشركين من قبلهم كقوم عاد وثمود ... وبينت لهم أن هؤلاء الكافرين لم تغن عنهم أموالهم ولا قوتهم شيئا ، عند ما حاق بهم عذاب الله . تعالى . ، فقال . سبحانه . : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللهِ ، وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ. وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى ، وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٦ . ثم أخذت السورة الكريمة في أواخرها ، في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وفي إدخال السرور على قلبه بأن ذكرته بحضور نفر من الجن إليه ، للاستماع إلى القرآن الكريم ، وكيف أنهم عند ما استمعوا إليه أوصى بعضهم بعضا بالإنصات وحسن الاستماع ، وكيف أنهم عند ما عادوا إلى قومهم دعوهم إلى الإيمان بالحق الذي استمعوا إليه ، وبالنبي الذي جاء به ، فقال . تعالى . حكاية عنهم : ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾.

ثم ختمت السورة الكريمة بأمره صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه ، فقال . تعالى . : ﴿فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ. كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ ، بَلاغٌ ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ﴾.

٧ . والمتأمل في سورة «الأحقاف» يراها ، قد أقامت الأدلة على وحدانية الله . تعالى . ، وعلى كمال قدرته. وعلى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، وعلى أن يوم القيامة حق.

أقامت الأدلة على كل ذلك ، بأبلغ الأساليب وأحكمها ، ومن ذلك أنها ساقت ألوانا من مظاهر قدرة الله . تعالى . في خلقه ، كما ذكرت شهادة شاهد من بنى إسرائيل على أن الإسلام هو الدين الحق ، كما طوفت بالناس في أعماق التاريخ لتطلعهم على مصارع الغابرين ، الذين أعرضوا عن دعوة الحق ، كما عقدت عدة مقارنات بين مصير الأخيار ومصير الأشرار ..

وبذلك تكون السورة قد ساقت من الأدلة ما فيه الكفاية والإقناع لأولى الألباب ، على أن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة . مدينة نصر

صباح السبت ١٠ من شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٦ هـ

٢٣ / ١١ / ١٩٨٥ م

كتبة الراجي عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

قال الله . تعالى . :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (٥) وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾ (٦)

سورة «الأحقاف» من السور التي افتتحت ببعض الحروف الهجائية ، وأقرب الأقوال إلى الصواب في معناها أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة قد وردت في افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذي تحدى به الله . تعالى . المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التي يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه في الفصاحة والحكمة مرتبة فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة.

وفضلا عن كل ذلك فإن تصدير بعض السور ، بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار

المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر ، لأنه يطرق أسماعهم في أول التلاوة بألفاظ غير مألوفة في مجاري كلامهم.

وذلك مما يلفت أنظارهم ، ليتبينوا ما يراد منها ، فيسمعوا حكما وحججا ومواعظ من شأنها أنها تهديهم إلى الحق ، لو كانوا يعقلون.

وقد سبق أن بينا . بشيء من التفصيل . آراء العلماء في هذه الحروف المقطعة [1].

وقوله . تعالى . : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ بيان لمصدر هذا القرآن ، وأنه من عند الله . تعالى . ، لا من عند غيره.

أى : أن هذا القرآن منزل من عند الله . تعالى . ﴿الْعَزِيزِ﴾ أى : صاحب العزة الغالبة ، والسلطان القاهر ﴿الْحَكِيمِ﴾ في كل أقواله وأفعاله وتصريفه لشئون خلقه.

ثم بين . سبحانه . أنه لم يخلق هذا الكون عبثا ، فقال : ﴿ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ...﴾.

وقوله : ﴿إِلَّا بِالْحَقِ﴾ استثناء مفرغ من أهم الأحوال ، وهو صفة لمصدر محذوف ، وقوله : ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ معطوف على «الحق» والكلام على تقدير مضاف محذوف.

أى : ما خلقنا هذا الكون بسمائه وأرضه وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله ، ما خلقنا كل ذلك إلا خلقا ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل وبالحكمة التي اقتضتها إرادتنا ومشيئتنا ..

وما خلقنا كل ذلك . أيضا . إلا بتقدير أجل معين ، هو يوم القيامة الذي تفنى عنده جميع المخلوقات.

فالمراد بالأجل المسمى : يوم القيامة الذي ينتهى عنده آجال الناس ، ويقفون بين يدي الله . تعال . للحساب والجزاء.

وشبيه بهذه الآية قوله . تعالى . : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً. ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [2].

وقوله . سبحانه . : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ. ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ ...﴾ [3].

---

(١) راجع تفسيرنا لسور البقرة والأعراف ويونس.

(٢) سورة ص الآية ٢٧.

(٣) سورة الدخان الآيتان ٣٨ ، ٣٩.

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف المشركين من خالقهم فقال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ والإنذار : الإعلام المقترن بتهديد ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذار.

و «ما» في قوله : ﴿عَمَّا أُنْذِرُوا﴾ يصح أن تكون موصولة والعائد محذوف ، ويصح أن تكون مصدرية.

والإعراض عن الشيء : الصدود عنه ، وعدم الإقبال عليه ، وأصله من العرض ـ بضم العين ـ وهو الجانب ، لأن المعرض عن الشيء يعطيه جانب عنقه ، مبتعدا عنه.

أى : نحن الذين خلقنا بقدرتنا وحكمتنا ، السموات والأرض وما بينهما ، بالحق الذي اقتضته مشيئتنا ، وبتقدير أمد معين ، عند انتهائه «تبدل الأرض غير الأرض والسموات ..» ومع كل هذه الدلائل الساطعة الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، فالذين كفروا بالحق ، عن الذي أنذروه من الحساب والجزاء معرضون ، وفي طغيانهم يعمهون ..

فالآية الكريمة قد وضحت أن هذا الكون لم يخلقه الله ـ تعالى ـ عبثا ، وأن لهذا الكون نهاية ينتهى عندها ، وأن الكافرين ـ لجهلهم وعنادهم ـ لم يستجيبوا لمن دعاهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ولم يستعدوا لاستقبال يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يوبخ هؤلاء الكافرين على جهالاتهم وعنادهم ، فقال : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ...﴾.

وقوله : ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ بمعنى أخبرونى ، ومفعوله الأول قوله ﴿ما تَدْعُونَ﴾ وجمله «ماذا خلقوا» سدت مسد مفعوله الثاني.

وجملة : «أرونى» مؤكدة لقوله : ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ لأنها ـ أيضا ـ بمعنى أخبرونى.

والمعنى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين ـ على سبيل التوبيخ والتأنيب ـ : أخبرونى عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دول الله ـ تعالى ـ ، أى شيء في الأرض أوجدته هذه الآلهة؟ إنها قطعا لم تخلق شيئا من الأرض. فالأمر في قوله ﴿أَرُونِي﴾ للتعجيز والتبكيت.

و «أم» في قوله ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ﴾ للإضراب عن أن يكونوا قد خلقوا شيئا ، إلى بيان أنهم لا مشاركة لهم مع الله في خلق السموات أو الأرض أو غيرهما. فقوله : ﴿شِرْكٌ﴾ بمعنى مشاركة ..

أى : بل ألهم مشاركة من الله ـ تعالى ـ في خلق شيء من السموات؟ كلا ، لا مشاركة

لهم في خلق أى شيء ، وإنما الخالق لكل شيء هو الله رب العالمين.

فالاستفهام للتوبيخ والتقريع.

فالمراد من الآية الكريمة نفى استحقاق معبوداتهم لأى لون من ألوان العبادة بأبلغ وجه ، لأن هذه المعبودات لا مدخل لها في خلق أى شيء لا من العوالم السفلية ولا من العوالم العلوية ، وإنما الكل مخلوق لله ـ تعالى ـ وحده.

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ (١).

وبعد أن أفحمهم ـ سبحانه ـ من الناحية العقلية ، أتبع ذلك بإفحامهم بالأدلة النقلية ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا ، أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾.

والأمر في قوله ـ تعالى ـ ﴿ائْتُونِي﴾ للتعجيز والتهكم ـ أيضا ـ كما في قوله : ﴿أَرُونِي﴾.

وقوله : ﴿أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى : بقية من علم يؤثر عن الأولين ، وينسب إليهم.

قال القرطبي : وفي الصحاح : «أو أثارة من علم» أى : بقية منه. وكذلك الأثرة ـ بالتحريك ـ ويقال : سمنت الإبل على أثارة ، أى : على بقية من شحم كان فيها قبل ذلك ..

والأثارة : مصدر كالسماحة والشجاعة ، وأصل الكلمة من الأثر ، وهي الرواية ، يقال : أثرت الحديث آثره أثرا وأثارة وأثرة فأنا آثر ، إذا ذكرته عن غيرك ، ومنه قيل : حديث مأثور ، أى نقله الخلف عن السلف (٢).

أى : هاتوا لي ـ أيها المشركون ـ كتابا من قبل هذا القرآن يدل على صحة ما أنتم عليه من شرك ، فإن لم تستطيعوا ذلك ـ ولن تستطيعوا ـ فأتونى ببقية من علم يؤثر عن السابقين ، ويسند إليهم ، ويشهد لكم بصحة ما أنتم فيه من كفر.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ فيما تزعمونه من أنكم على الحق.

وهكذا أخذ عليهم القرآن الحجة ، وألزمهم ببطلان ما هم عليه من ضلال ، بالأدلة العقلية المتمثلة في شهادة هذا الكون المفتوح ، وبالأدلة النقلية المتمثلة في أنه لا يوجد عندهم كتاب أو ما يشبه الكتاب ـ يستندون إليه في استحقاق تلك المعبودات للعبادة.

---

(١) سورة لقمان الآية ١١.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ١٨٢.

والحق أن هذا الآية الكريمة على رأس الآيات التي تخرس أصحاب الأقوال التي لا دليل على صحتها ، وتعلم الناس مناهج البحث الصحيح الذي يوصلهم إلى الحق والعدل ..

ثم بين . سبحانه . أن هؤلاء المشركين قد بلغوا الذروة في ضلالهم وجهلهم فقال : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾.

أى : لا أحد أشد ضلالا وجهلا من هؤلاء المشركين الذين يعبدون من دون الله . تعالى . آلهة ، هذه الآلهة لا تسمع كلامهم ، ولا تعقل نداءهم ، ولا تشعر بعبادتهم لها منذ أن عبدوها ، إلى أن تقوم الساعة.

فإذا ما قامت الساعة ، تحولت هذه الآلهة . بجانب عدم شعورها بشيء إلى عدوة لهؤلاء العابدين لها.

قال بعض العلماء : وفي قوله : ﴿إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ نكتة حسنة ، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة ، ومن شأن الغاية انتهاء المغيا عندها. لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم في يوم القيامة لا يستجيبون لهم.

فالوجه . والله أعلم . أنها من الغايات المشعرة ، بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها ، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني ، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعا واحدا ، لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده ، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة ، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة ، بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم [1].

ثم أكد . سبحانه . عدم إحساس الأصنام بعابديها فقال : ﴿وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ﴾.

أى : وهذه الأصنام عن عبادة عابديها غافلة ، لا تدرك شيئا ، ولا تحس بمن حولها.

قال صاحب الكشاف : وإنما قيل «من» و «هم» لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة ، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلا وغباوة.

ويجوز أن يريد : كل معبود من دون الله من الجن والإنس والأوثان [2].

ثم بين ما يكون بين العابدين والمعبودين من عداوة يوم القيامة فقال : ﴿وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٩٥.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٩٦.

أى : وإذا جمع الله ـ تعالى ـ الناس للحساب والجزاء يوم القيامة ، صار الكفار مع من عبدوهم من دون الله أعداء ، يلعن بعضهم بعضا ، و ﴿كانُوا﴾ أى : المعبودين ﴿بِعِبادَتِهِمْ﴾ أى بعبادة الكفرة إياهم ﴿كافِرِينَ﴾ أى : جاحدين مكذبين.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ [2].

ثم لقن الله ـ سبحانه ـ نبيه ﷺ أجوبه أخرى ، ليرد بها على الأقوال الزائفة التي تفوه بها المشركون فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠)

---

(١) سورة مريم الآية ٨١ ، ٨٢.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٢٥.

وقوله ﴿تُتْلى﴾ من التلاوة بمعنى القراءة بتمهل وترتيل. أى : وإذا تتلى على هؤلاء الكافرين ، آياتنا الواضحة الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ﴾ أى : قالوا للآيات المتلوة عليهم. والتي اشتملت على الحق الذي يهديهم إلى الصراط المستقيم.

﴿هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أى : قالوا : هذا الذي جئتنا به يا محمد سحر واضح ، وتمويه ظاهر.

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ﴾ : يشعر بأن هؤلاء الجاحدين الجاهلين ، قد بادروا إلى وصف ما جاءهم به الرسول ﷺ بأنه سحر ، بدون تفكر أو تأمل أو انتظار.

وفي وصفهم لما جاءهم به الرسول ﷺ بأنه سحر ، دليل على عجزهم عن الإتيان بمثله ، أو بسورة من مثله.

ثم حكى ـ سبحانه ـ جانبا من أكاذيبهم فقال : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ...﴾ و «أم» هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة ، وتفيد الإضراب والانتقال من حكاية أقوالهم الباطلة السابقة. إلى أقوال أخرى أشد منها بطلانا وكذبا. والاستفهام للإنكار والتعجب من حالهم.

والافتراء : أشنع الكذب. أى : بل أيقول هؤلاء الكافرون لك ـ أيها الرسول الكريم ـ إنك افتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسك؟.

ثم لقن الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ الرد الذي يخرسهم فقال ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾.

أى : قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ في الرد على زعمهم أنك افتريت هذا القرآن : إن كنت على سبيل الفرض والتقدير قد افتريته من عند نفسي ، عاقبني ربي ، ولا تستطيعون أنتم أو غيركم أن تمنعوا عنى شيئا من عذابه وعقابه ، وما دام الأمر كذلك فكيف أفتريه ، وأنا أعلم علم اليقين أن افتراء شيء منه يؤدى إلى عقابي؟

فجواب «إن» في قوله : ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ محذوف ، وتقديره : عاجلني بالعقوبة ، وقوله : ﴿فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ قام مقامه.

قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ. لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ﴾ (١).

---

(١) سورة الحاقة الآيتان من ٤٤ ، ٤٧.

وقوله : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى : الله ـ تعالى ـ الذي زعمتم أنى أفترى عليه الكذب ، هو أعلم منى ومنكم ومن كل المخلوقات ، بما تندفعون فيه من القدح في آياته ، والإعراض عن دعوته ، وسيجازيكم على ذلك بما تستحقونه من عقاب.

فقوله : ﴿تُفِيضُونَ﴾ من الإفاضة ، وهي الأخذ في الشيء باندفاع وعنف ، وأصله من فاض الإناء ، إذا سال بشدة.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ترهيب لهم من الانسياق في كفرهم ، وترغيب لهم في الدخول في الإيمان لينالوا مغفرة الله ـ تعالى ـ ورحمته.

أى : كفى بشهادة الله ـ تعالى ـ بيني وبينكم شهادة ، فهو الذي يعلم أنى صادق فيما أبلغه عنه ، ويعلم أنكم الكاذبون فيما تزعمونه ، وهو ـ سبحانه ـ الواسع المغفرة والرحمة ، لمن تاب إليه وأناب.

ثم أمره الله ـ تعالى ـ أن يبين لهم أن ما جاءهم به من هداية ، قد جاء بها الرسل من قبله لأقوامهم ، وأنه رسول كسائر الرسل السابقين فقال ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ..﴾.

والبدع من كل شيء : أوله ومبدؤه. يقال : فلان بدع في هذا الأمر ، أى : هو أول فيه دون أن يسبقه فيه سابق ، من الابتداع بمعنى الاختراع.

أى : وقل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ إنى لست أول رسول أرسله الله ـ تعالى ـ إلى الناس ، وإنما سبقني كثيرون أنتم تعرفون شيئا من أخبارهم ومن أخبار أقوامهم ، ومادام الأمر كذلك فكيف تنكرون نبوتي ، وتشككون في دعوتي؟.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ ، وَما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بيان لوظيفته ﷺ. أى : وإننى وأنا رسول الله لا أعلم ما سيفعله الله ـ تعالى ـ بي أو بكم في المستقبل من أمور الدنيا ، هل سأبقى معكم في مكة أو سأهاجر منها. وهل سيصيبكم العذاب عاجلا أو آجلا؟ فإنى ما أفعل معكم ، ولا أقول لكم إلا ما أوحاه الله ـ تعالى ـ إليّ ، وما أنا إلا نذير مبين ، أوضح لكم الحق من الباطل ، وأخوّفكم من سوء المصير ، إذا ما بقيتم على كفركم وشرككم.

فالمقصود بقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ أى : في دار الدنيا ، أما بالنسبة للآخرة ، فالله ـ تعالى ـ قد بشره وبشر أتباعه بالثواب العظيم في آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾. وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قال الحسن البصري في قوله : ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ أى : في الدنيا ، أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلي؟ أم أقتل كما قتلوا ، ولا أدرى أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟ أما في الآخرة فمعاذ الله ، قد علم أنه في الجنة.

وهذا القول هو الذي عوّل عليه ابن جرير ، وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ ، فإنه بالنسبة للآخرة ، جازم أنه يصير إلى الجنة ومن اتبعه ، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر المشركين. أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم؟ (١).

والمتدبر في هذه الآية الكريمة ، يراها قد اشتملت على أسمى ألوان الأدب من النبي ﷺ مع خالقه ـ عزّ وجلّ ـ فقد فوّض ﷺ أمره إلى خالقه ، وصرح بأنه لا يتبع إلا ما يوحيه إليه سبحانه ـ وأنه لا علم له بالغيب ، وإنما علم ذلك إلى الله ـ تعالى ـ وحده.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ مرة أخرى ، أن يذكرهم بإيمان العقلاء من أهل الكتاب بهذا الدين ، لعلهم عن طريق هذا التذكير يقلعون عن كفرهم وعنادهم فقال : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الكافرين : أخبرونى إن كان هذا الذي أوحاه الله ـ تعالى ـ إليّ من قرآن ، هو من عنده ـ تعالى ـ وحده ، والحال أنكم كفرتم به ألستم في هذه الحالة تكونون ظالمين لأنفسكم وللحق الذي جئتكم به من عند خالقكم؟ لا شك أنكم في هذه الحالة تكونون ظالمين جاحدين.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ ، فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ...﴾ معطوف على ما قبله على سبيل التأكيد لظلمهم.

أى : أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله ، والحال أنكم قد كفرتم به ، مع أن شاهدا من بنى إسرائيل الذين تثقون بشهادتهم ، قد شهد على مثل القرآن بالصدق. لاتفاق التوراة والقرآن على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى أن البعث حق ، وعلى أن الجزاء حق .. فآمن هذا الشاهد بالقرآن وبمن جاء به وهو الرسول ﷺ واستكبرتم أنتم عن الإيمان ..

ألستم في هذه الحالة تكونون على رأس الظالمين الجاحدين لكل ما هو حق وصدق؟!

فجواب الشرط في الآية محذوف. أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا ومع ذلك لم تؤمنوا فقد

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٦٠.

كفرتم وظلمتم ، والله . تعالى . لا يهدى القوم الذين من شأنهم استحباب الظلم على العدل ، والعمى على الهدى.

وشبيه بهذه الآية قوله . تعالى . : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١).

قال صاحب الكشاف . رحمه‌الله . : جواب الشرط محذوف تقديره. إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ، ألستم ظالمين ، ويدل على هذا المحذوف قوله . تعالى . : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

والشاهد من بنى إسرائيل : عبد الله بن سلام .. وفيه نزل : ﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ ...﴾.

والضمير للقرآن. أى : على مثله في المعنى ، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعانى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك (٢).

وعلى رأى صاحب الكشاف تكون الآية مدنية في سورة مكية ، لأن إيمان عبد الله بن سلام . رضى الله عنه . كان بالمدينة ولم يكن بمكة.

ومن المفسرين من يرى أن الآية الكريمة نزلت في شأن كل من آمن من أهل الكتاب ، وأنها لم تنزل في عبد الله بن سلام بصفة خاصة ..

قال الإمام ابن كثير : وهذا الشاهد اسم جنس ، يعم عبد الله بن سلام وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام ، وهذه كقوله . تعالى . : ﴿وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾.

قال مسروق والشعبي : ليس بعبد الله بن سلام. هذه الآية مكية ، وإسلامه كان بالمدينة ..

وقال مالك عن أبي النضر ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم يقول لأحد يمشى على الأرض : «إنه من أهل الجنة» إلا لعبد الله بن سلام ، قال : وفيه نزلت : ﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ﴾ .. وكذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة .. (٣).

وعلى أية حال فالمقصود من الآية الكريمة إثبات أن هذا القرآن من عند الله . تعالى . ،

(١) سورة فصلت الآية ٥٢.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٩٩.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٦٢.

وأن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه ، وأن العقلاء من أهل الكتاب قد شهدوا بذلك ، وآمنوا بالنبي ﷺ ، فكان من الواجب على المشركين . لو كانوا يعقلون . أن يقلعوا عن عنادهم ، وأن يتبعوا الحق الذي جاءهم به النبي ﷺ .

ثم حكى . سبحانه . بعض الأعذار الفاسدة ، التي اعتذر بها الكافرون عن عدم دخولهم في الإسلام ، ورد عليهم بما يكبتهم ، وبشر المؤمنين الصادقين بما يشرح صدورهم فقال :

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤)

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول قوله . تعالى . : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ روايات منها : أن مشركي مكة حين رأوا أن أكثر المؤمنين من الفقراء ، كعمار ، وبلال ، وعبد الله بن مسعود .. قالوا ذلك.

وسبب قولهم هذا ، اعتقادهم الباطل ، أنهم هم الذين لهم عند الله العظمة والجاه والسبق إلى كل مكرمة ، لأنهم هم أصحاب المال والسلطان ، أما أولئك الفقراء فلا خير فيهم ، ولا سبق لهم إلى خير ..

أى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا . على سبيل السخرية والاستخفاف بهم . ، لو كان هذا الذي أنتم عليه من الإيمان بما جاء به محمد ﷺ حقا وخيرا ، لما سبقتمونا إليه ، ولما سبقنا إليه غيركم من المؤمنين لأننا نحن العظماء الأغنياء .. وأنتم الضعفاء الفقراء ..

فهم . لانطماس بصائرهم وغرورهم . توهموا أنهم لغناهم وجاههم هم المستحقون للسبق

إلى كل خير ، وأن غيرهم من الفقراء لا يعقل ما يعقلونه ، ولا يفهم ما يفهمونه.

ومن الآيات الكريمة التي تشبه هذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا : أَهؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا ..﴾ (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ تعجيب من غرورهم وعنادهم ، ورميهم الحق بما هو برىء منه.

و «إذ» ظرف لكلام محذوف دل عليه الكلام ، أى : وإذ لم يهتدوا بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند ربه ، ظهر عنادهم واستكبارهم وقالوا هذا القرآن كذب قديم من أخبار السابقين ، نسبه محمد صلى الله عليه وسلم إلى ربه.

وشبيه بهذا الآية. قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ..﴾ (٢).

ثم بين ـ سبحانه ـ أن هذا القرآن هو المهيمن على الكتب السماوية التي سبقته فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً ..﴾.

أى : ومن قبل هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان كتاب موسى وهو التوراة ﴿إِماماً﴾ يهتدى به في الدين ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله ـ تعالى ـ لمن آمن به.

وقوله : ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ خبر مقدم ، و ﴿كِتابُ مُوسى﴾ مبتدأ مؤخر ، وقوله : ﴿إِماماً وَرَحْمَةً﴾ حالان من ﴿كِتابُ مُوسى﴾ ..

والمقصود من هذه الجملة الكريمة ، الرد على قولهم في القرآن ﴿هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ فكأنه ـ تعالى ـ يقول لهم : كيف تصفون القرآن بذلك ، مع أنه قد سبقه كتاب موسى الذي تعرفونه ، والذي وافق القرآن في الأمر بإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده ، وفي غير ذلك من أصول الشرائع ..

ثم مدح ـ سبحانه ـ هذا القرآن بقوله : ﴿وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا ، لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

أى : وهذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مصدق لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة ، ومصدق لغيره من الكتب السماوية السابقة وأمين عليها ، وقد أنزلناه بلسان عربي مبين ، امتنانا منا على من بعث الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وهم العرب.

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٣.

(٢) سورة الفرقان الآية ٥.

وقد اقتضت حكمتنا أن نجعل من وظيفة هذا الكتاب : الإنذار للظالمين بسوء المصير إذا ما أصروا على ظلمهم ، والبشارة للمحسنين بحسن عاقبتهم بسبب إيمانهم وإحسانهم.

فاسم الإشارة في قوله : ﴿وَهذا﴾ يعود للقرآن الكريم ، وقوله مصدق صفة لكتاب.

وقوله ﴿لِساناً عَرَبِيًّا﴾ حال من الضمير في «مصدق» الذي هو صفة للكتاب والضمير في «لينذر» يعود إلى الكتاب ، و «الذين ظلموا» مفعوله. أى : لينذر الكتاب الذين ظلموا ، وقوله : ﴿وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في محل نصب عطفا على محل «لينذر».

وقال ـ سبحانه ـ في صفة هذا الكتاب ﴿مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا﴾ ولم يقل : مصدق لكتاب موسى ، للتنبيه على أنه مصدق لكتاب موسى ولغيره من الكتب السماوية السابقة.

والتعبير بقوله ﴿لِساناً عَرَبِيًّا﴾ فيه تكريم للعرب ، وتذكير لهم بنعمة الله عليهم ، حيث جعل القرآن الذي هو أجمع الكتب السماوية للهدايات والخيرات بلسانهم ، وهذا يقتضى إيمانهم به ، وحرصهم على اتباع إرشاداته.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ بيان لوظيفة هذا الكتاب ، وتحديد لمصير كل فريق ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من من حي عن بينة.

ثم فصل ـ سبحانه ـ ما أعده للمحسنين من جزيل الثواب فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ...﴾ أى : قالوا ذلك بألسنتهم ، وصدقت هذا القول قلوبهم ﴿ثُمَّ اسْتَقامُوا﴾ بعد ذلك على صراط الله المستقيم ، بأن فعلوا بإخلاص وطاعة كل ما أمرهم ـ سبحانه ـ بفعله ، واجتنبوا بقوة كل ما أمرهم باجتنابه ، وقوله : ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ خبر «إن» ، وجيء بالفاء في خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط.

أى : إن الذين قالوا ذلك ، ثم استقاموا وثبتوا على طاعتنا فلا خوف عليهم من لحوق مكروه بهم ، ولا هم يحزنون بسبب فوات محبوب لديهم ، وإنما هم في سعادة مستمرة ، وفي سرور دائم ، لا يعكره خوف من مستقبل مجهول ، ولا حزن على أمر قد مضى.

﴿أُولئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الإيمان والاستقامة ، هم ﴿أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها﴾ خلودا أبديا. ﴿جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى : يجزون هذا الجزاء الطيب بسبب أعمالهم الصالحة ، التي كانوا يعملونها في الدنيا.

وبعد هذا الحديث عن حقيقة هذا الدين ، وعن حسن عاقبة الذين قالوا ربنا الله ثم

استقاموا ، جاء الحديث عن وجوب الإحسان إلى الوالدين وعما يترتب عليه هذا الإحسان من ثواب عظيم ، قال ـ تعالى ـ :

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٦)

قال الإمام ابن كثير : لما ذكر ـ تعالى ـ في الآية الأولى التوحيد له ، وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين ، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن ، كقوله : ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾ وقال : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة [١].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً ...﴾ من الإيصاء بالشيء بمعنى الأمر به. قال ـ تعالى ـ : ﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا﴾ أى : أمرنى بالمحافظة على أدائهما ..

وقوله : ﴿إِحْساناً﴾ قراءة عاصم وحمزة والكسائي. وقرأ غيرهم من بقية السبعة حسنا وعلى القراءتين فانتصابهما على المصدرية. أى : ووصينا الإنسان وأمرناه بأن يحسن إلى والديه إحسانا أو حسنا ، بأن يقدم إليهما كل ما يؤدى إلى برهما وإكرامهما.

ويصح أن يكون وصينا بمعنى ألزمنا ، فيتعدى لاثنين ، فيكون المفعول الثاني منهما ، قوله :

﴿إِحْساناً﴾ أو حسنا.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٦٣.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾ تعليل للإيصاء المذكور ولفظ ﴿كُرْهاً﴾ قرئ بضم الكاف وفتحها ، وهما قراءتان سبعيتان ، قالوا : ومعناهما واحد كالضّعف ـ بتشديد الضاد وفتحها أو ضمها ـ فهما لغتان بمعنى واحد.

وهذا اللفظ منصوب على الحال من الفاعل. أي : حملته أمه ذات كره. ووضعته ذات كره ، أو هو صفة لمصدر مقدر ، أى : حملته حملا ذا كره ، ووضعته كذلك.

ولا شك في أن الأم تعانى في أثناء حملها ووضعها لوليدها ، الكثير من المشاق والآلام والمتاعب .. فكان من الوفاء أن يقابل ذلك منها بالإحسان والإكرام.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ ..﴾ [(١)].

أى : حملته أمه ضعفا على ضعف ، لأن الحمل كلما تزايد وعظم في بطنها ، ازداد ضعفها ..

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ بيان لمدة الحمل والفطام ، والكلام على حذف مضاف. والفصال : مصدر فاصل ، وهو بمعنى الفطام ، وسمى الفطام فصالا ، لأن الطفل ينفصل عن ثدي أمه في نهاية الرضاع.

أى : ومدة حمل الطفل مع مدة فصاله عن ثدي أمه ، ثلاثون شهرا.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : المراد بيان مدة الرضاع لا الفطام ، فكيف عبر عنه بالفصال .. قلت : لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه ، لأنه ينتهى به ويتم ، سمى فصالا .. وفيه فائدة ، وهي الدلالة على الرضاع التام المنتهى بالفصال ووقته .. [(٢)].

وقال الشوكانى : وقد استدل بهذه الآية على أن أقل الحمل ستة أشهر ، لأن مدة الرضاع سنتان ، أى : مدة الرضاع الكامل ، كما في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾ فذكر ـ سبحانه ـ في هذه الآية أقل مدة الحمل ، وأكثر مدة الرضاع.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن حق الأم ، آكد من حق الأب ، لأنها هي التي حملت وليدها بمشقة ووضعته بمشقة ، وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب .. [(٣)].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ ..﴾ غاية لمحذوف يفهم من سياق الكلام.

---

(١) سورة لقمان الآية ١٤.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٠٢.

(٣) راجع تفسير الشوكانى ج ٥ ص ١٨.

والأشد : قوة الإنسان واشتعال حرارته ، من الشدة بمعنى القوة والارتفاع. يقال : شد النهار ، إذا ارتفع ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع ، ولا واحد له من لفظه.

والمراد ببلوغ أشده : أن يصل سنه على الراجح . إلى ثلاث وثلاثين سنة.

وقوله : ﴿أَوْزِعْنِي﴾ أى : رغبني ووفقني ، من قولك : أوزعت فلانا بكذا ، إذا أغريته وحببته في فعله. أى : أن هذا الإنسان بعد أن بقي في بطن أمه ما بقي ، وبعد أن وضعته وأرضعته وفطمته وتولته برعايتها ، واستمرت حياته «حتى إذا بلغ أشده» أى : حتى إذا بلغ زمن استكمال قوته ، وبلغ أربعين سنة وهي تمام اكتمال العقل والقوة والفتوة.

﴿قالَ﴾ على سبيل الشكر لخالقه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي ...﴾ أى : يا رب وفقني وألهمنى ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَ﴾ بأن وفقتني ووفقتهما إلى صراطك المستقيم ، وبأن رزقتهما العطف عليّ ، ورزقتني الشكر لهما ، ووفقني . أيضا . ﴿أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ﴾ مني ، وتقبله عندك ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أى : واجعل . يا إلهى . الصلاح راسخا في ذريتي ، وساريا فيها ، لأن صلاح الذرية فيه السعادة الغامرة للآباء.

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ توبة صادقة نصوحا وإنى من المسلمين الذين أخلصوا نفوسهم لطاعتك ، وقلوبهم لمرضاتك.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد اشتملت على أسمى ألوان الدعوات ، التي عن طريق إجابتها تتحقق السعادة الدنيوية والأخروية.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى «في» في قوله : ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾؟

قلت : معناه أن يجعل ذريته موقعا للصلاح ومظنته ، كأنه قال : هب لي الصلاح في ذريتي ، وأوقعه فيهم. (١).

وفي الآية الكريمة : تنبيه للعقلاء ، إلى أن شأنهم . خصوصا عند بلوغ سن الأربعين. أن يكثروا من التضرع إلى الله بالدعاء ، وأن يتزودوا بالعمل الصالح ، فإنها السن التي بعث الله . تعالى . فيها معظم الأنبياء ، والتي فيها يكتمل العقل ، وتستجمع القوة ، ويرسخ فيها خلق الإنسان الذي تعوده وألفه ورحم الله القائل :

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يهوى حياء ولا ستر

فدعه ، ولا تنفس عليه الذي مضى ... وإن جر أسباب الحياة له العمر

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٠٢.

ثم بين ـ سبحانه ـ حسن عاقبة من يسلك هذا الطريق القويم فقال : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا ..﴾.

واسم الإشارة يعود إلى الإنسان باعتبار الجنس. أى : أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات الجميلة ، هم ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا﴾ من الأعمال الطيبة المتقبلة عندنا .. ﴿وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ﴾ فلا نعاقبهم عليها ، لكثرة توبتهم إلينا .. بل نجعلهم ﴿فِي﴾ عداد ﴿أَصْحابِ الْجَنَّةِ﴾ الخالدين فيها ، والمتنعمين بخيراتها.

فالجار والمجرور في قوله ﴿أَصْحابِ الْجَنَّةِ﴾ في محل نصب على الحال ، على سبيل التشريف والتكريم ، كما تقول : أكرمنى الأمير في أصحابه ، أى : حالة كوني معدودا من أصحابه.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ﴾ تذييل مؤكد لما قبله. ولفظ ﴿وَعْدَ﴾ مصدر لفعل مقدر. أى : وعدهم الله ـ تعالى ـ وعد الصدق الذي كانوا يوعدون به على ألسنة الرسل في الدنيا.

هذا ، وقد ذكر بعض المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ، وقد استجاب الله دعاءه ، فأسلم أبواه وأولاده جميعا .. [1].

وبعد أن ساق ـ سبحانه ـ هذه الصورة الوضيئة لأصحاب الجنة ، أتبع ذلك ببيان صورة سيئة لنوع آخر من الناس ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ١٩٤.

خاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٢٠)

والاسم الموصول في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما ..﴾ بمعنى الذين ، وهو مبتدأ وخبره قوله : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ..﴾ وهذا صريح في أن المراد بقوله : ﴿وَالَّذِي﴾ العموم وليس الإفراد ، وهذا يدل ـ أيضا ـ على فساد قول من قال إن الآية نزلت في شأن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنهما ـ ، والصحيح أنها في حق كل كافر عاق لوالديه ، منكر للبعث.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : وهذا عام في كل من قال هذا ، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبى بكر ، فقوله ضعيف ، لأن عبد الرحمن أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه.

أخرج البخاري عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبى سفيان ، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه.

فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا .. فقال مروان : إن هذا الذي أنزل فيه : ﴿وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما ..﴾.

فقالت عائشة من وراء حجاب : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري. وفي رواية للنسائى أنها قالت : كذب مروان ، والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمى الذي نزلت فيه لسميته .. [1].

ولفظ «أف» : اسم صوت ينبئ عن التضجر ، أو اسم فعل مضارع هو أتضجر.

والمقصود به هنا : إظهار الملل والتأفف والكراهية لما يقوله أبواه من نصح له.

وقوله : ﴿أَتَعِدانِنِي﴾ فعل مضارع من وعد الماضي ، وحذف واوه في المضارع مطرد.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٦٦ والآلوسى ج ٢٦ ص ٢٠.

والنون الأولى نوع الرفع ، والثانية نون الوقاية.

وقوله : ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ : أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر هو المفعول الثاني لقوله : ﴿أَتَعِدانِنِي﴾. أى : والذي قال لوالديه . على سبيل الإنكار والإعراض عن نصحهما . ﴿أُفٍّ لَكُما﴾ أى : أقول بعدا وكرها لقولكما ، أو إنى متضجر من قولكما.

﴿أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أى : أتعداننى الخروج من قبري بعد أن أموت ، لكي أبعث وأحاسب على عملي ، والحال أنه ﴿قَدْ خَلَتِ﴾ أى : مضت ﴿الْقُرُونُ﴾ الكثيرة ﴿مِنْ قَبْلِي﴾ دون أن يخرج أحد منهم من قبره ، ودون أن يرجع بعد أن مات.

فالآية الكريمة تصور بوضوح ما كان عليه هذا الإنسان ، من سوء أدب مع أبويه ، ومن إنكار صريح للبعث والحساب والجزاء.

ثم حكى . سبحانه . مارد به الأبوان فقال : ﴿وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ...﴾.

وقوله : ﴿يَسْتَغِيثانِ اللهَ﴾ أى : يلتمسان غوثه وعونه في هداية هذا الإنسان إلى الصراط المستقيم ، والجملة في محل نصب على الحال.

ولفظ «ويلك» في الأصل ، يقال في الدعاء على شخص بالهلاك والتهديد. والمراد به هنا : حض المخاطب على الإيمان والطاعة لله رب العالمين.

أى : هذا هو حال الإنسان العاق الجاحد ، أما حال أبواه ، فإنهما يفزعان لما قاله وترتعش أفئدتهما لهذا التطاول والصدود عن الحق ، فيلجئان إلى الله ، ويلتمسان منه . سبحانه . الهداية لابنهما ، ويحضان هذا الابن على الإيمان بوحدانية الله . تعالى . ، وبالبعث والحساب والجزاء ، فيقولان له : ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ ولا خلف فيه ، ولا راد له ..

والمتأمل في هذه الجملة الكريمة يراها تصور لهفة الوالدين على إيمان ولدهما أكمل تصوير ، فهما يلتمسان من الله له الهداية ، ثم يهتفان بهذا الابن العاق بفزع أن يترك هذا الجحود ، وأن يبادر إلى الإيمان بالحق ..

ولكن الابن العاق يصر على كفره ، ويلج في جحوده : ﴿فَيَقُولُ﴾ في الرد على أبويه ﴿ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. أى : ما هذا الذي تعدانني إياه من البعث والحساب والجزاء .. إلا أباطيل الأولين وخرافاتهم التي سطروها في كتبهم.

فالأساطير : جمع أسطورة ، وهي ما سجله الأقدمون في كتبهم من خرافات وأكاذيب.

وقوله : ﴿أُولئِكَ ..﴾ اسم الإشارة هذا يعود إلى العاقين المكذبين بالبعث والجزاء المذكورين في قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما ..﴾.

أى : أولئك القائلون ذلك ، هم ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أى : وجب عليهم العذاب الذي حكم به ـ سبحانه ـ على أمثالهم في قوله ـ تعالى ـ لإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما يفيده قوله ـ سبحانه ـ بعد ذلك. ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾. أى : أولئك الذين وجب عليهم العذاب ، حالة كونهم مندرجين في أمم قد مضت من قبلهم من طائفة الجن ومن طائفة الإنس ﴿إِنَّهُمْ﴾ جميعا ﴿كانُوا خاسِرِينَ﴾ لأنهم استحبوا الكفر على الإيمان.

ثم بين ـ سبحانه ـ مظهرا من مظاهر عدالته في حكمه بين عباده فقال : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا. وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

والتنوين في قوله ﴿وَلِكُلٍ﴾ عوض عن المضاف إليه المحذوف ، والجار والجرور في قوله ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ صفة لقوله ﴿دَرَجاتٌ﴾ ، ومن بيانية ، وما موصولة.

وقوله : ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ﴾ علة لمحذوف .. والمعنى : ولكل فريق من الفريقين : فريق المؤمنين المعبر عنهم بقوله : ـ تعالى ـ : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا ...﴾ وفريق الكافرين المعبر عنهم بقوله ـ تعالى ـ : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ..﴾. لكل فريق من هؤلاء وهؤلاء ﴿دَرَجاتٌ﴾ حاصلة من الذي عملوه من الخير والشر ، وقد فعل ـ سبحانه ـ ذلك معهم ، ليوفيهم جزاء أعمالهم.

﴿وَهُمْ﴾ جميعا ﴿لا يُظْلَمُونَ﴾ شيئا ، بل كل فريق منهم يجازى على حسب عمله. كما قال ـ تعالى ـ : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما سيكون عليه الكافرون يوم القيامة من حال سيئة فقال : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ، أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا ..﴾.

والظرف متعلق بمحذوف تقديره : اذكر. وقوله ﴿يُعْرَضُ﴾ من العرض بمعنى الوقوف على الشيء ، وتلقى ما يترتب على هذا الوقوف على هذا الشيء من خير أو شر.

والمراد بالعرض على النار هنا : مباشرة عذابها ، وإلقائهم فيها ، ويشهد لهذا قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ، أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ ، قالُوا : بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

قال الآلوسى : قوله : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾. أى : يعذبون بها ، من قولهم : عرض بنو فلان على السيف ، إذا قتلوا به ، وهو مجاز شائع .. (١).

وقوله : ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ .. إلخ مقول لقول محذوف. وهذا اللفظ قرأه ابن كثير وابن عامر أأذهبتم بهمزتين على الاستفهام الذي هو للتقريع والتوبيخ ، وقرأه الجمهور ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ بهمزة واحدة على الخبر من غير استفهام.

أى : واذكر ـ أيها العاقل ـ لتعتبر وتتعظ ، يوم يقف الذين كفروا على النار ، فيرون سعيرها ثم يلقون فيها ، ويقال لهم ـ على سبيل الزجر والتأنيب ـ ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا﴾ أى : ضيعتم وأتلفتم الطيبات التي أنعم الله بها عليكم في حياتكم الدنيا ، حيث ﴿اسْتَمْتَعْتُمْ بِها﴾ استمتاعا دنيويا دون أن تدخروا للآخرة منها شيئا ..

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ﴾ أى : تجزون عذاب الهون والخزي والذل.

﴿بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ﴾ أى : بسبب استكباركم في الأرض بغير الحق ..

﴿وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أى : وبسبب خروجكم في الدنيا عن طاعة الله ـ تعالى ـ ، وعن هدى أنبيائه.

وقيد ـ سبحانه ـ استكبارهم في الأرض بكونه بغير الحق ، ليسجل عليهم هذه الرذيلة ، وليبين أنهم قوم دينهم التكبر والغرور وإيثار اتباع الباطل على الحق.

قال الجمل : والحاصل أنه ـ تعالى ـ علل ذلك العذاب بأمرين :

أحدهما : الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب.

والثاني : الفسق وهو ذنب الجوارح ، وقدم الأول على الثاني ، لأن أحوال القلب أعظم وقعا من أعمال الجوارح (٢).

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن مصارع الغابرين الذين كانوا أشد قوة وأكثر جمعا من مشركي قريش ، لكي يعتبروا بهم ، ويقلعوا عن كفرهم ، حتى لا يكون مصيرهم كمصير من سبقوهم في الكفر والطغيان ، فقال ـ سبحانه ـ :

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ٢٢.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٣٢.

﴿وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٨)

والمقصود بقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَخا عادٍ﴾ : هود ـ عليه السلام ـ فقد أرسله الله ـ تعالى ـ إلى قبيلة عاد ، ليأمرهم بعبادة الله ـ تعالى ـ ، وكانوا قوما جبارين ، فلم يستمعوا إلى نصحه ، فكانت عاقبتهم الهلاك والتدمير.

وقد وردت قصته معهم في سور متعددة ، منها : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء ، وسورة الحاقة ..

قال القرطبي ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاذْكُرْ أَخا عادٍ﴾ هو هود بن عبد الله ابن رباح ، كان أخاهم في النسب لا في الدين ، إذ أنذر قومه بالأحقاف ، والأحقاف : ديار عاد .. وهي جمع حقف ـ بكسر الحاء ـ ، وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوج ، ولم يبلغ أن يكون جبلا .. [1].

ويغلب على الظن أن مساكنهم كانت على مرتفعات من الأرض في شمال حضر موت ، وعلى مقربة من المكان الذي يسمى الآن بالرّبع الخالي غربي عمان ..

والمعنى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ لقومك ليعتبروا ويتعظوا قصة هود ـ عليه‌السلام ـ وقت أن أنذر قومه ، وهم يعيشون بتلك الأماكن المرتفعة المسماة بالأحقاف.

وقوله : ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ جملة حالية في محل نصب.

أى : جاء هود إلى قومه فأمرهم بإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده ، وخوفهم من سوء عاقبة مخالفته ، والحال أنه قد أخبرهم بأن الرسل الذين سبقوه ، والذين يأتون من بعده ، كليهم قد بعثهم الله ـ تعالى ـ لهداية أقوامهم ، ولعبادته ـ سبحانه ـ وحده.

فالنذر : جمع نذير ، والمراد بهم الرسل الذين يخوفون أقوامهم من سوء عاقبة الإشراك مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى في العبادة.

والمراد بقوله : ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ الرسل السابقون عليه ، والمتأخرون عنه.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ جانبا من نصائح هود لقومه فقال : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ، إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أى : أنذرهم قائلا لهم : إنى أحذركم من عبادة أحد سوى الله ـ تعالى ـ وآمركم بإخلاص العبادة له ـ تعالى ـ وحده ، لأنى أخاف عليكم عذاب يوم هائل عظيم ، وهو يوم القيامة ، ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

فأنت ترى أن هودا ـ عليه‌السلام ـ بجانب أنه قد أمر قومه بما يسعدهم ، فإنه قد بين لهم ـ أيضا ـ أنه ما حمله على هذا الأمر إلا خوفه عليهم ، وحرصه على نجاتهم من عذاب يوم القيامة.

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٠٣.

ولكن قومه لم يقابلوا ذلك بالطاعة والإذعان ، بل قابلوا دعوة نبيهم لهم بالإعراض والاستخفاف ، وقد حكى القرآن ذلك بقوله : ﴿قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا ، فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. أى : قال قوم هود له ـ على سبيل الإنكار والسفاهة ـ أجئتنا بهذه الدعوة ﴿لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا﴾ أى : لتصرفنا وتبعدنا عن عبادة آلهتنا التي ألفنا عبادتها يقال : أفك فلان فلانا عن الشيء ، إذا صرفه عنه.

ثم أضافوا إلى هذا الإنكار ، إنكارا آخر مصحوبا بالتحدي والاستهزاء فقالوا : ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا﴾. أى : إن كان الأمر كما تقول فأتنا بما تعدنا به من العذاب العظيم ، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما أخبرتنا به.

وهكذا نلمس في ردهم سوء الظن ، وعدم الفهم ، واستعجال العذاب ، والإصرار على الباطل الذي ألفوه ..

ولكن هودا ـ عليه‌السلام ـ قابل كل هذه الجهالات بالحلم والأناة ، فرد عليهم بقوله : ﴿قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ ...﴾. أى : قال لهم : إنما علم وقت نزول العذاب بكم عند الله ـ تعالى ـ وحده ، ولا مدخل لي في ذلك.

وإنما أنا ﴿أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إليكم من ربي وربكم ، وتلك هي وظيفتي.

ثم عقب على هذا الرد بما يدل على حمقهم وغبائهم فقال : ﴿وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾.

أى : أنا لا علم لي بوقت نزول العذاب عليكم ، لأن رسالتي محصورة في التبليغ والإنذار ..

وهذا كان يجب أن يكون مفهوما لديكم لوضوحه .. ولكني أراكم قوما تجهلون ما هو واضح ، وتنكرون ما هو حق ، وتصرون على ما هو باطل ، وتطالبونني بما لا أملكه.

ثم يجمل السياق بعد ذلك ما كان بين هود وقومه من جدال طويل ، ليصل إلى العذاب الذي استعجلوه فيقول : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا ...﴾ والفاء في قوله ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ ...﴾ فصيحة.

والضمير في قوله ﴿رَأَوْهُ﴾ يعود إلى ما في قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا﴾ والمراد به العذاب.

قال الشوكانى : الضمير في «رأوه» يرجع إلى «ما» في قوله ﴿بِما تَعِدُنا﴾. وقال المبرد والزجاج : الضمير في «رأوه» يعود إلى غير مذكور ، وبينه قوله ﴿عارِضاً﴾ ، فالضمير يعود إلى السحاب. أى : فلما رأوا السحاب عارضا ، فعارضا نصب على التكرير ، أى :

التفسير. وسمى السحاب عارضا لأنه يبدو في عرض السماء. قال الجوهري : العارض : السحاب يعترض في الأفق .. [1].

والمعنى : وأتى العذاب الذي استعجله قوم هود إليهم ، فلما رأوه بأعينهم ، متمثلا في سحاب يظهر في أفق السماء ، ومتجها نحو أوديتهم ومساكنهم.

﴿قالُوا﴾ وهم يجهلون أنه العذاب الذي استعجلوه ﴿هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا﴾ أى : هذا سحاب ننتظر من ورائه المطر الذي ينفعنا ..

قيل : إنها حبس عنهم المطر لفترة طويلة ، فلما رأوا السحاب في أفق السماء ، استبشروا وفرحوا وقالوا : ﴿هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا﴾.

وهنا جاءهم الرد على لسان هود بأمر ربه ، فقال لهم : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ ...﴾.

أى : قال لهم هود ـ عليه‌السلام ـ ليس الأمر كما توقعتم من أن هذا العارض سحاب تنزل منه الأمطار عليكم ، بل الحق أن هذا العارض هو العذاب الذي استعجلتم نزوله ، وهو يتمثل في ريح عظيمة تحمل العذاب المهلك الأليم لكم.

فقوله : ﴿رِيحٌ﴾ يصح أن يكون بدلا من «ما» أو من «هو» في قوله ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ كما يصح أن يكون خبر المبتدأ محذوف ، وجملة ﴿فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ صفة لقوله : ﴿رِيحٌ﴾.

ثم وصف ـ سبحانه ـ هذا الريح بصفة أخرى فقال : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها ..﴾.

أى : هذه الريح التي أرسلها الله ـ تعالى ـ عليهم ، من صفاتها أنها تدمر وتهلك كل شيء مرت به يتعلق بهؤلاء الظالمين من نفس أو مال أو غيرهما ..

والتعبير بقوله : ﴿بِأَمْرِ رَبِّها﴾ لبيان أنها لم تأتهم من ذاتها ، وإنما أتتهم بأمر الله ـ تعالى ـ وبقضائه وبمشيئته.

والفاء في قوله : ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ﴾ فصيحة ـ أيضا .. أى : هذه الريح أرسلناها عليهم فدمرتهم ، فصار الناظر إليهم لا يرى شيئا من آثارهم سوى مساكنهم ، لتكون هذه المساكن عبرة لغيرهم.

قال الجمل : وقوله : ﴿لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ﴾ قرأ حمزة وعاصم ﴿لا يُرى﴾ بضم الياء

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٢٣.

على البناء للمفعول ، ومساكنهم بالرفع لقيامه مقام الفاعل. والباقون من السبعة بفتح تاء الخطاب ، ـ على البناء للفاعل ـ و ﴿مَساكِنُهُمْ﴾ بالنصب على أنه مفعول به .. [1].

وقوله : ﴿كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى : مثل ذلك الجزاء المهلك المدمر ، نجازي القوم الذين من دأبهم الإجرام والطغيان.

وهكذا طوى ـ سبحانه ـ صفحة أولئك الظالمين من قوم هود ـ عليه‌السلام ـ وما ظلمهم ـ سبحانه ـ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ولم تكتف السورة الكريمة بعرض مصارع هؤلاء المجرمين ، الذين لا يخفى أمرهم على المشركين المعاصرين للنبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم بل أخذت في تذكير هؤلاء المشركين ، بما يحملهم على الزيادة من العظة والعبرة لو كانوا يعقلون ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً﴾.

و «ما» في قوله : ﴿فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ موصولة. و «إن» نافية. أى : والله لقد مكنا قوم هود وغيرهم من الأقوام السابقين عليكم ـ يا أهل مكة ـ في الذي لم نمكنكم فيه ، بأن جعلناهم أشد منكم قوة ، وأكثر جمعا ، وأعطيناهم من فضلنا أسماعا وأبصارا وأفئدة.

فالمقصود من الآية بيان أن المشركين السابقين ، أعطاهم الله ـ تعالى ـ من الأموال والأولاد والقوة .. أكثر مما أعطى الكافرين المعاصرين للنبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم.

ولكن هؤلاء الطغاة السابقين لما لم يشكروا الله ـ تعالى ـ على نعمه كانت عاقبتهم الهلاك ، كما يدل عليه قوله ـ سبحانه ـ بعد ذلك : ﴿فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ..﴾. أى : أعطيناهم من النعم ما لم نعطكم يا أهل مكة ، ولكنهم لما لم يشكرونا على نعمنا ، ولم يستعملوها في طاعتنا ، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، دون أن تنفعهم شيئا أسماعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ، حين نزل بهم عذابنا ، بل كل ما بين أيديهم من قوة ومن نعم ذهب أدراج الرياح وصار معهم هباء منثورا.

و «من» في قوله : ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ لتأكيد عدم الإغناء. أى : ما أغنت عنهم شيئا حتى ولو كان هذا الشيء في غاية القلة والحقارة.

ثم بين ـ سبحانه ـ أن ما أصابهم من دمار كان بسبب جحودهم للحق واستهزائهم به ، فقال : ﴿إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللهِ ، وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٣٤.

أى : هذا الهلاك والدمار الذي حاق بهم ، كان بسبب جحودهم لآيات الله الدالة على وحدانيته وكمال قدرته ، واستهزائهم بما جاءهم به رسلهم من الحق.

ومن الآيات القرآنية التي وردت في هذا المعنى ، قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [1].

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ. فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [2].

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى هذا التذكير والتخويف للمشركين ، تذكيرا وتخويفا آخر ، فقال : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى﴾ أى : والله لقد أهلكنا ما حولكم يا أهل مكة من القرى الظالمة ، كقوم هود وصالح وغيرهم.

﴿وَصَرَّفْنَا الْآياتِ﴾ أى : كررناها ونوعناها بأساليب مختلفة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما كانوا عليه من الشرك والفجور ، ولكنهم لم يرجعوا عما كانوا فيه من ضلال وبغى ، فدمرناهم تدميرا ..

﴿فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً﴾ أى : فهلا نصرهم ومنعهم من الهلاك. هؤلاء الآلهة الذين اتخذوهم من دون الله قربانا يتقربون بهم إليه ـ سبحانه ـ كما قالوا ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾.

«فلولا» هنا حرف تحضيض بمعنى «هلا» والمفعول الأول لاتخذوا محذوف أى : الذين اتخذوهم ، و ﴿آلِهَةً﴾ هو المفعول الثاني ، و «قربانا» حال. وهو كل ما يتقرب به إلى الله ـ تعالى ـ من طاعة أو نسك. والجمع قرابين.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ إضراب انتقالي عن نفى النصرة إلى ما هو أشد من ذلك.

أى : أن هؤلاء الآلهة لم يكتفوا بعدم نصر أولئك الكافرين ، بل غابوا عنهم وتركوهم وحدهم ، ولم يحضروا إليهم .. وذلك الغياب الذي حدث من آلهتهم عنهم. مظهر من مظاهر كذب هؤلاء الكافرين وافترائهم على الحق في الدنيا ، حيث زعموا أن هذه الآلهة الباطلة ستشفع لهم يوم القيامة ، وقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم ـ : ﴿هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ ...﴾ وها هم اليوم لا يرون آلهتهم ، ولا يجدون لهم شيئا من النفع.

---

(١) سورة الزخرف الآية ٨.

(٢) سورة غافر الآية ٨٢.

وبعد هذا التذكير والوعيد للكافرين ، بيّن . سبحانه . جانبا من مظاهر تكريمه لنبيه ﷺ حيث أرسل له نفرا من الجن ، يستمعون القرآن ، ويؤمنون به ، فقال . تعالى . :

﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٢)

قال القرطبي ما ملخصه : قوله . تعالى . : ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ ...﴾ هذا توبيخ لمشركي قريش. أى : أن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله ، وأنتم معرضون مصرون على الكفر ..

قال المفسرون : لما مات أبو طالب ، خرج النبي ﷺ إلى الطائف ، يلتمس من أهلها النصرة ، ويدعوهم إلى الإيمان ... أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويضحكون به ..

فانصرف ﷺ عنهم ، حتى إذا كان ببطن نخلة . وهو موضع بين مكة والطائف . قام يصلى من الليل ، فمر به نفر من جن نصيبين . وهو موضع قرب الشام . فاستمعوا إليه وقالوا : أنصتوا .. [1].

وهناك روايات أخرى كثيرة في عدد هؤلاء الجن ، وفي الأماكن التي التقوا فيها مع النبي

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢١٠.

ﷺ وفيما قرأ الرسول ﷺ عليهم ، وفيمن كان مع النبي ﷺ خلال التقائه بهم .. [1].

ويبدو لنا من مجموع هذه الروايات أن لقاء النبي ﷺ بالجن قد تعدد ، وأن هذه الآيات تحكى لقاء معينا ، وسورة الجن تحكى لقاء آخر.

قال الآلوسى : وقد أخرج الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه عن الحبر ، أى : عن ابن عباس أنه قال : صرفت الجن إلى رسول الله ﷺ مرتين.

وذكر الخفاجي أنه قد دلت الأحاديث ، على أن وفادة الجن كانت ست مرات ، ويجمع بذلك اختلاف الروايات في عددهم ، وفي غير ذلك. [2].

و «النفر» على المشهور ـ ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال وهو مأخوذ من النفير ، لأن الرجل إذا حزبه أمر نفر بعض الناس الذين يهتمون بأمره لإغاثته.

والمعنى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ لقومك ، وقت أن صرفنا إليك ، ووجهنا نحوك ، نفرا من الجن ، يستمعون القرآن منك.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أى : فحين حضروا القرآن عند تلاوته منك ، أو فحين حضروا مجلسك ﴿قالُوا﴾ على سبيل التناصح ـ ﴿أَنْصِتُوا﴾ أى : قال بعضهم لبعض : اسكتوا لأجل أن نستمع إلى هذا القرآن ، وهذا يدل على سمو أدبهم وحرصهم على تلقى العلم.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أى : فحين انتهى الرسول ﷺ من قراءته.

﴿وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أى : انصرفوا إلى قومهم ليخوفوهم من عذاب الله ـ تعالى ـ إذا ما عصوه أو خالفوا أمره ـ سبحانه ..

﴿قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى ...﴾ أى : وبعد أن انصرفوا إلى قومهم منذرين ، ووصلوا إليهم. قالوا لهم : يا قومنا إنا سمعنا كتابا عظيم الشأن ، جليل القدر ، أنزل من بعد نبي الله ـ تعالى ـ موسى ـ عليه‌السلام ..

وهذا الكتاب ﴿مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى : مصدقا لما قبله من الكتب وهو ـ أيضا ـ ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِ﴾ الذي لا يحوم حوله الباطل ، ويهدى ـ أيضا ـ ﴿إِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى : إلى طريق قويم واضح يصل بأتباعه إلى السعادة.

قال الآلوسى : قوله : ﴿أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى﴾ ذكروه دون عيسى ـ عليهما‌السلام .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٧٢ وما بعدها طبعة دار الشعب.

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ٣٠.

لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين ، ولأن الكتاب المنزل عليه أجل الكتب قبل القرآن ، وكان عيسى مأمورا بالعمل بمعظم ما فيه أو بكله.

وقال عطاء : لأنهم كانوا على اليهودية ، وهذا القول يحتاج إلى نقل صحيح.

وعن ابن عباس : أن الجن لم تكن سمعت بعيسى ، فلذا قالوا ذلك. وفي هذا القول بعد ، فإن اشتهار أمر عيسى ، وانتشار أمر دينه ، أظهر من أن يخفى ، لا سيما على الجن ، ومن هنا قال أبو حيان : إن هذا لا يصح عن ابن عباس [1].

ثم حكى . سبحانه . بعد ذلك ما يدل على إيمانهم بما سمعوه فقال : ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ ...﴾.

أى : وقالوا لقومهم . أيضا . : يا قومنا أجيبوا داعي الله الذي دعاكم الى الحق وإلى طريق مستقيم. ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ أى : وآمنوا بهذا الرسول الكريم وبما جاء من عند ربه.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أى : أجيبوا داعي الله وآمنوا به ، يغفر لكم ربكم من ذنوبكم التي وقعتم فيها ، ويبعدكم بفضله ورحمته من عذاب أليم.

والتعبير بقوله : ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ يدل على حسن أدبهم ، وعلى أنهم يفوضون المغفرة إلى ربهم ، فهو . سبحانه . إن شاء غفرها جميعا ، وإن شاء غفر بعضها.

ثم ختموا الترغيب في الإيمان بالترهيب من الإصرار على الكفر والمعاصي فقالوا . كما حكى القرآن عنهم . : ﴿وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾.

أى : قالوا لقومهم إنكم إذا أجبتم داعي الله ، غفر لكم . سبحانه . ذنوبكم أما الذي يعرض عن هذا الداعي الصادق الأمين ، فإنه لن يستطيع أن يفلت من عذاب الله ، ولن يقدر على الهرب من عقابه ، لأنه . سبحانه . لا يعجزه شيء ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ﴾ أى : وليس لهذا المعرض من أنصار يستطيعون دفع عذاب الله عنه.

﴿أُولئِكَ﴾ أى : الذين لم يجيبوا داعي الله ﴿فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أى : في ضلال واضح لا يخفى على أحد من العقلاء.

هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآيات :

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ٣٢.

١ ـ أن رسالة النبي ﷺ كانت إلى الإنس والجن ، لأن هذه الآيات تحكى إيمان بعض الجن به صلّى الله عليه وسلّم ودعوتهم غيرهم إلى الإيمان به.

٢ ـ أن هذه الآيات تدل على أن حكم الجن كحكم الإنس في الثواب والعقاب وفي وجوب العمل بما أمرهم الله ـ تعالى ـ به وفي وجوب الانتهاء عما نهاهم عنه ، لأن قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ. وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ ، أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

أقول : هاتان الآيتان اللتان حكاهما الله ـ تعالى ـ على ألسنة بعض الجن تدلان على ثواب المطيع ، وعذاب العاصي.

قال بعض العلماء ما ملخصه : وقد دلت آية أخرى على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة وهي : قوله ـ تعالى ـ في سورة الرحمن : ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

ويستأنس لهذا ـ أيضا ـ بقوله ـ تعالى ـ : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ فإنه يشير إلى أن في الجنة جنا يطمثون النساء كالإنس ..

وبهذا يعلم أن ما ذهب إليه بعض العلماء ، أنه يفهم من قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ أن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة ، وأن جزاء إيمانهم ، وإجابتهم داعي الله ، هو الغفران وإجارتهم من العذاب الأليم فقط .. هذا الفهم إنما هو خلاف التحقيق ، وأن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة .. [1].

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ، بتوبيخ المشركين على جهلهم وعدم تفكيرهم ، وبيّن ما سيكونون عليه من خزي يوم القيامة ، وأمر نبيه ﷺ بالصبر على أذاهم. فقال :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ٤٠١.

أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ﴾ (٣٥)

والهمزة في قوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ ...﴾ للاستفهام الإنكارى ، والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام ...

أى : أبلغ العمى والجهل بهؤلاء الكافرين ، أنهم لم يروا ولم يعقلوا أن الله ـ تعالى ـ الذي خلق السموات والأرض بقدرته ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَ﴾ أى : ولم يتعب ولم ينصب بسبب خلقهن ، من قولهم عيي فلان بالأمر ـ كفرح ـ إذا تعب ، أو المعنى : ولم يعجز عن خلقهن ولم يتحير فيه ، مأخوذ من قولهم : عيي فلان بأمره ، إذا تحير ولم يعرف ماذا يفعل.

وقوله : ﴿بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ في محل رفع خبر ﴿أَنَ﴾ ، والباء في قوله ـ تعالى ـ ﴿بِقادِرٍ﴾ مزيدة للتأكيد.

فالمقصود بالآية الكريمة توبيخ المشركين على جهلهم وانطماس بصائرهم ، حيث لم يعرفوا أن الله ـ تعالى ـ الذي أوجد الكون ، قادر على أن يعيدهم الى الحياة بعد موتهم.

وأورد القرآن ذلك في أسلوب الاستفهام الإنكارى ، ليكون تأنيبهم على جهلهم أشد.

وقوله : ﴿بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير وتأكيد لقدرته ـ تعالى ـ على إحياء الموتى ، لأن لفظ ﴿بَلى﴾ يؤتى به في الجواب لإبطال النفي السابق ، وتقرير نقيضه ، بخلاف لفظ نعم فإنه يقرر النفي نفسه.

أى : بلى إنه ـ سبحانه ـ قادر على إحياء الموتى ، لأنه ـ تعالى ـ على كل شيء قدير.

ثم كرر ـ سبحانه ـ التذكير للناس بأحوال الكافرين يوم الحساب ليعتبروا ويتعظوا فقال : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ...﴾ أى : واذكر ـ أيها العاقل ـ يوم يلقى الذين كفروا في النار ، بعد مشاهدتها ورؤيتها ..

ثم يقال لهم على سبيل الزجر والتهكم ﴿أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِ﴾ أى : أليس هذا العذاب كنتم تنكرونه في الدنيا ، قد ثبت عليكم ثبوتا لا مفر لكم منه ، ولا محيد لكم عنه ..

﴿قالُوا بَلى وَرَبِّنا﴾ أى : قالوا في الجواب : بلى يا ربنا إن هذا العذاب حق ، وإنكارنا له في الدنيا إنما كان عن جهل وغفلة وغرور منا ..

فهم قد اعترفوا بأن الحساب حق ، والجزاء حق .. في وقت لا ينفع فيه الاعتراف.

ولذا جاء الرد عليهم بقوله ـ تعالى ـ : ﴿قالَ﴾ ـ سبحانه ـ ﴿فَذُوقُوا الْعَذابَ﴾ أى : فتذوقوا طعمه الأليم ، ووقعه المهين ﴿بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى : بسبب كفركم وجحودكم.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بأمر نبيه ﷺ بالصبر على مكرهم فقال : ﴿فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾. أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك ـ أيها الرسول الكريم ـ فاصبر على أذى قومك ، كما صبر إخوانك أولو العزم من الرسل ، أى : أصحاب الجد والثبات والصبر على الشدائد والبلاء .. وهم ـ على أشهر الأقوال ـ : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ـ صلوات الله عليهم جميعا ..

وقوله : ﴿وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ نهى منه ـ تعالى ـ لنبيه عن استعجال العذاب لهم. أى : ولا تستعجل لهم العذاب. فالمفعول محذوف للعلم به .. ثم بين ـ سبحانه ـ ما يدعو إلى عدم الاستعجال فقال : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ ..﴾. أى : اصبر ـ أيها الرسول ـ على أذى قومك كما صبر إخوانك أولو العزم من الرسل. ولا تستعجل العذاب لهؤلاء الكافرين فإنه آتيهم لا ريب فيه ، وكأنهم عند ما يرون هذا العذاب ويحل بهم ، لم يلبثوا في الدنيا إلا وقتا قليلا وزمنا يسيرا ، لأن شدة هذا العذاب تنسيهم كل متع الدنيا وشهواتها.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿بَلاغٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى : هذا الذي أنذرتكم به ، أو هذا القرآن ، بلاغ كاف في وعظكم وإنذاركم إذا تدبرتم فيه ، وتبليغ من الرسول ﷺ إليكم.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ﴾ كلا ، إنه لا يهلك بعذاب الله ـ تعالى ـ إلا القوم الخارجون عن طاعته ، الواقعون في معصيته فالاستفهام للنفي ..

وبعد فهذا تفسير لسورة «الأحقاف» نسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير

سورة محمّد

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة

١ ـ هذه السورة تسمى بسورة محمد ﷺ لما فيها من الحديث عما أنزل عليه ﷺ وتسمى ـ أيضا ـ بسورة القتال ، لحديثها المستفيض عنه.

وهي من السور المدنية التي يغلب على الظن أن نزولها كان بعد غزوة بدر وقبل غزوة الأحزاب ، وقد ذكروا أن نزولها كان بعد سورة «الحديد» [١].

وعدد آياتها أربعون آية في البصري ، وثمان وثلاثون في الكوفي ، وتسع وثلاثون في غيرهما.

٢ ـ وتفتتح السورة الكريمة ببيان سوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين ، ثم تحض المؤمنين على الإغلاظ في قتال الكافرين ، وفي أخذهم أسارى ، وفي الإعلاء من منزلة المجاهدين في سبيل الله.

قال ـ تعالى ـ : (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ ..).

٣ ـ ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء إلى المؤمنين وعدهم فيه بالنصر متى نصروه وتوعد الكافرين بالتعاسة والخيبة ، ووبخهم على عدم اعتبارهم واتعاظهم ، كما بشر المؤمنين ـ أيضا ـ بجنة فيها ما فيها من نعيم.

قال ـ تعالى ـ : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ ، وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ).

٤ ـ ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن المنافقين ، فذكرت جانبا من مواقفهم السيئة من النبي ﷺ ومن دعوته ، ووبختهم على خداعهم وسوء أدبهم.

قال ـ تعالى ـ : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا

---

(١) راجع الإتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ للسيوطي.

الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾.

٥ . ثم صورت السورة الكريمة ما جبل عليه هؤلاء المنافقون من جبن وهلع ، وكيف أنهم عند ما يدعون إلى القتال يصابون بالفزع الخالع.

قال . سبحانه . ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ ، رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ. طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ، فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾.

٦ . وبعد أن بينت السورة الكريمة أن نفاق المنافقين كان بسبب استحواذ الشيطان عليهم ، وتوعدتهم بسوء المصير في حياتهم وبعد مماتهم.

بعد كل ذلك أخبرت النبي ﷺ بأوصافهم الذميمة ، فقال . تعالى . : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ. وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ ، فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ﴾.

٧ . ثم عادت السورة إلى الحديث عن الكافرين وعن المؤمنين ، فتوعدت الكافرين بحبوط أعمالهم. وأمرت المؤمنين بطاعة الله ورسوله. ونهتهم عن اليأس والقنوط ، وبشرتهم بالنصر والظفر ، وحذرتهم من البخل ، ودعتهم إلى الإنفاق في سبيل الله.

قال . تعالى . : ﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ. ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ﴾.

٨ . هذا والمتدبر في هذه السورة الكريمة . بعد هذا العرض الإجمالى لها . يراها تهتم بقضايا من أهمها ما يأتى :

(أ) تشجيع المؤمنين على الجهاد في سبيل الله . تعالى . : وعلى ضرب رقاب الكافرين ، وأخذهم أسرى ، وكسر شوكتهم ، وإذلال نفوسهم .. كل ذلك بأسلوب قد اشتمل على أسمى ألوان التحضيض على القتال.

نرى ذلك في قوله . تعالى . : ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ. حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها﴾.

وفي قوله . تعالى . : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾.

(ب) بيان سوء عاقبة الكافرين في الدنيا والآخرة ، ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق ، وإبراز الأسباب التي حملتهم على الجحود والعناد.

نرى ذلك في آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ. أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾.

(ج) كشفها عن أحوال المنافقين وأوصافهم بصورة تميزهم عن المؤمنين وتدعو كل عاقل إلى احتقارهم ونبذهم. بسبب خداعهم وكذبهم ، وجبنهم واستهزائهم بتعاليم الإسلام.

ولقد توعدهم الله ـ تعالى ـ بأشد ألوان العذاب ، فقال : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ﴾.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال الله ـ تعالى ـ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ (٢) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ﴾ (٣)

افتتحت سورة القتال بهذا الذم الشديد للكافرين ، وبهذا الثناء العظيم على المؤمنين.

افتتحت بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ. كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ﴾.

وقوله : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .. مبتدأ ، خبره قوله ـ سبحانه ـ ﴿أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾.

والمراد بهم كفار قريش ، الذين أعرضوا عن الحق وحرضوا غيرهم على الإعراض عنه.

فقوله : ﴿صَدُّوا﴾ من الصد بمعنى المنع ، والمفعول محذوف.

وقوله : ﴿أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ أى : أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة ذاهبة لا أثر لها ولا وجود ، والمراد بهذه الأعمال : ما كانوا يعملونه في الدنيا من عمل حسن ، كإكرام الضيف ، وبر الوالدين ، ومساعدة المحتاج. أى : الذين كفروا بالله ـ تعالى ـ وبكل ما يجب الإيمان به ، ومنعوا غيرهم من اتباع الدين الحق الذي أمر الله ـ تعالى ـ باتباعه ﴿أَضَلَّ﴾ .

سبحانه ـ أعمالهم ، بأن جعلها ذاهبة ضائعة غير مقبولة عنده. كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ (١).

قال صاحب الكشاف : ﴿أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ أى : أبطلها وأحبطها : وحقيقته ، جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها ، كالضالة من الإبل ، التي هي مضيعة لا رب لها يحفظها ويعتنى بأمرها ، أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ، ومغلوبة بها ، كما يضل الماء اللبن. وأعمالهم ما كانوا يعملونه في كفرهم بما يسمونه مكارم : من صلة الأرحام ، وفك الأسرى.

وقيل : أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصد عن سبيل الله ، بأن نصره عليهم وأظهر دينه على الدين كله (٢).

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما أعده للمؤمنين من ثواب فقال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحاتِ﴾ التي توافر فيها الإخلاص والاتباع لهدى الرسول ﷺ وقوله : ﴿وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ﴾ من باب عطف الخاص على العام ، فقد أفرده بالذكر مع أنه داخل في الإيمان والعمل الصالح ، للإشارة إلى أنه شرط في صحة الإيمان ، وللإشعار بسمو مكانة هذا المنزل عليه ﷺ وبعلو قدره.

وقوله : ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة ، لتأكيد حقية هذا المنزل على النبي ﷺ وتقرير كماله وصدقه. أى : وهذا المنزل على الرسول ﷺ وهو الحق الكائن من عند الله ـ تعالى ـ رب العالمين ، لا من عند أحد سواه.

وقوله : ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ﴾ خبر الموصول ، أى : والذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة ، محا عنهم ـ سبحانه ـ ما عملوه من أعمال سيئة ، ولم يعاقبهم عليها ، فضلا منه وكرما.

فقوله : ﴿كَفَّرَ﴾ من الكفر بمعنى الستر والتغطية. يقال : كفر الزارع زرعه إذا غطاه ، وستره حماية له مما يضره. والمراد به هنا : المحو والإزالة على سبيل المجاز.

وقوله : ﴿وَأَصْلَحَ بالَهُمْ﴾ معطوف على ما قبله. أى : محا عنهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ، ما اقترفوه من سيئات ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ ولم يكتف ـ سبحانه ـ بذلك ، بل وأصلح أحوالهم وأمورهم وشئونهم. بأن وفقهم للتوبة الصادقة في الدنيا ، وبأن منحهم الثواب الجزيل في الآخرة.

---

(١) سورة الفرقان الآية ٢٣.

(٢) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢١٥.

فالمراد بالبال هنا : الحال والأمر والشأن.

قال القرطبي : والبال كالمصدر ، ولا يعرف منه فعل ، ولا تجمعه العرب إلا في ضرورة الشعر ، فيقولون فيه بالات .. [1].

وهذه الجملة الكريمة وهي قوله : ﴿وَأَصْلَحَ بالَهُمْ﴾ نعمة عظمى لا يحس بها إلا من وهبه الله ـ تعالى ـ إياها ، فإن خزائن الأرض لا تنفع صاحبها إذا كان مشتت القلب ، ممزق النفس ، مضطرب المشاعر والأحوال. أما الذي ينفعه فهو راحة البال. وطمأنينة النفس ، ورضا القلب ، والشعور بالأمان والسلام.

والإشارة في قوله : ﴿ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ ..﴾ تعود إلى ما مر من ذم الكافرين ، ومدح المؤمنين.

أى : ذلك الذين حكمنا به من ضلال أعمال الكافرين ، ومن إصلاح بال المؤمنين ، سببه أن الذين كفروا اتبعوا في دنياهم الطريق الباطل الذي لا خير فيه ولا فلاح. وأن الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة في دنياهم ، اتبعوا طريق الحق الكائن من ربهم.

فالمراد بالباطل هنا. الكفر وما يتبعه من أعمال قبيحة ، والمراد بالحق : الإيمان والعمل الصالح.

وقوله ﴿ذلِكَ﴾ مبتدأ ، وخبره ما بعده.

وقوله : ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ﴾ أى : مثل ذلك البيان الرائع الحكيم ، يبين الله ـ تعالى ـ : للناس أحوال الفريقين ، وأوصافهما الجارية في الغرابة مجرى الأمثال ، وهي اتباع المؤمنين الحقّ وفوزهم ، واتباع الكافرين الباطل وخسرانهم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أين ضرب الأمثال؟ قلت : في جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين ، أو في أن جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنين» [2].

ثم أرشد الله ـ تعالى ـ : المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله عند لقائهم لأعدائهم ، وبعد انتصارهم عليهم ، كما بين لهم الحكمة من مشروعية القتال. والجزاء الحسن الذي أعده للمجاهدين ، فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٢٤.

(٢) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣١٦.

﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ﴾ (٦)

والفاء في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ﴾ لترتيب ما بعدها من إرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله عند قتل أعدائهم ، على ما قبلها وهو بيان حال الكفار.

فالمراد باللقاء هنا : القتال لا مجرد اللقاء والرؤية. كما أن المراد بالذين كفروا هنا المشركون وكل من كان على شاكلتهم ممن ليس بيننا وبينهم عهد بل بيننا وبينهم حرب وقتال.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾ أمر للمؤمنين بما يجب فعله عند لقائهم لأعدائهم. وقوله : ﴿فَضَرْبَ﴾ منصوب على أنه مصدر لفعل محذوف. أى : فإذا كان حال الذين كفروا كما ذكرت لكم من إحباط أعمالهم بسبب اتباعهم الباطل وإعراضهم عن الحق ، فإذا لقيتموهم للقتال ، فلا تأخذكم بهم رأفة ، بل اضربوا رقابهم ضربا شديدا.

والتعبير عن القتل بقوله : ﴿فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾ ، لتصويره في أفظع صوره. ولتهويل أمر هذا القتال ، ولإرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿لَقِيتُمُ﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾ أصله : فاضربوا الرقاب ضربا ، فحذف الفعل وقدم المصدر ، فأنيب منابه مضافا إلى المفعول ، وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد ، لأنك تذكر المصدر ، وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه.

وضرب الرقاب : عبارة عن القتل .. وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته ، فوقع عبارة عن القتل ، وإن ضرب بغير رقبته من المقاتل.

على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدة ، ما ليس في لفظ القتل ، لما فيها من تصوير

القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق ، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ﴾ بيان لما يكون من المؤمنين بعد مثل حركة أعدائهم ، وإنزال الهزيمة بهم.

وقوله : ﴿أَثْخَنْتُمُوهُمْ﴾ من الإثخان بمعنى كثرة الجراح ، مأخوذ من الشيء الثخين ، أى : الغليظ. يقال : أثخن الجيش في عدوه ، إذا بالغ في إنزال الجراحة الشديدة به ، حتى أضعفه وأزال قوته.

والوثاق ـ بفتح الواو وكسرها ـ اسم للشيء الذي يوثق به الأسير كالرباط أى : عند لقائكم ـ أيها المؤمنون ـ لأعدائكم ، فاضربوا أعناقهم ، فإذا ما تغلبتم عليهم وقهرتموهم ، وأنزلتم بهم الجراح التي تجعلهم عاجزين عن مقاومتكم ، فأحكموا قيد من أسرتموه منهم ، حتى لا يستطيع التفلت أو الهرب منكم.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾ إرشاد لما يفعلونه بعد ذلك.

والمن : الإطلاق بغير عوض ، يقال : منّ فلان على فلان إذا أنعم عليه بدون مقابل.

والفداء : ما يقدمه الأسير من أموال أو غيرها لكي يفتدى بها نفسه من الأسر.

وقوله : ﴿مَنًّا﴾ و ﴿فِداءً﴾ منصوبان على المصدرية بفعل محذوف : أى : فإما تمنون عليهم بعد الأسر منا بأن تطلقوا سراحهم بدون مقابل ، وإما أن تفدوا فداء بأن تأخذوا منهم فدية في مقابل إطلاق سراحهم.

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها﴾ غاية لهذه الأوامر والإرشادات.

وأوزار الحرب : آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها ، كالسلاح وما يشبه.

قال الشاعر :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا

أى : افعلوا بهم ما أمرناكم بفعله ، واستمروا على ذلك حتى تنتهي الحرب التي بينكم وبين أعدائكم بهزيمتهم وانتصاركم عليهم.

وسميت آلات الحرب وأحمالها بالأوزار ، لأن الحرب لما كانت لا تقوم إلا بها ، فكأنها تحملها وتستقل بها ، فإذا انقضت الحرب فكأنها وضعت أحمالها وانفصلت عنها.

ثم بين ـ سبحانه ـ الحكمة من مشروعية قتال الأعداء ، مع أنه ـ سبحانه ـ قادر على

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣١٦.

إهلاك هؤلاء الأعداء ، فقال : ﴿ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾.

واسم الإشارة : خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر ذلك ، أو في محل نصب على المفعولية بفعل محذوف ، أى : افعلوا ذلك الذي أمرناكم به وأرشدناكم إليه واعلموا أنه ـ سبحانه ـ لو يشاء الانتصار من هؤلاء الكافرين والانتقام منهم لفعل ، أى : لو يشاء إهلاكهم لأهلكهم ، ولكنه ـ سبحانه ـ لم يفعل ذلك بل أمركم بمحاربتهم ليختبر بعضكم ببعض ، فيتميز عن طريق هذا الاختبار والامتحان ، قوى الإيمان من ضعيفه. كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ﴾.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما أعده للمجاهدين من ثواب عظيم فقال : ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أى : والذين استشهدوا وهم يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله.

﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ أى : فلن يضيع أعمالهم ولن يبطلها.

بل ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أى : بل سيوصلهم إلى طريق السعادة والفلاح.

﴿وَيُصْلِحُ بالَهُمْ﴾ أى : ويصلح أحوالهم وشئونهم وقلوبهم.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ﴾ أى : ويدخلهم بعد كل ذلك الجنة يوم القيامة ويهديهم إلى بيوتهم ومساكنهم فيها ، بحيث لا يخطئونها ، حتى لكأنهم يقيمون فيها منذ خلقوا ، وذلك كله بإلهام من الله ـ تعالى ـ لهم.

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿عَرَّفَها لَهُمْ﴾ هذا التعريف في الآخرة. قال مجاهد : يهدى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله ـ تعالى ـ لهم منها ، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا .. وذلك بإلهام منه ـ عزّ وجلّ ـ ..

وورد في بعض الآثار أن حسناته تكون دليلا له على منزله فيها ، وقيل : إنه ـ تعالى ـ : رسم على كل منزل اسم صاحبه وهو نوع من التعريف.

وقيل : معنى عرفها لهم. طيبها لهم من العرف وهو الرائحة الطيبة ، ومنه طعام معرف ، أى مطيب.

وعن الجبائي أن التعريف في الدنيا ، وهو يذكر أوصافها ، والمراد أنه ـ سبحانه ـ لم يزل يمدحها لهم ، حتى عشقوها ، فاجتهدوا في فعل ما يوصلهم إليها .. [1].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٥ ص ٤٣.

هذا ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :

١ ـ وجوب قتال الكافرين بكل شدة وقوة ، حتى تضعف شوكتهم ، وتدول دولتهم ، ويخضعوا لحكم شريعة الإسلام فيهم.

وفي هذه المعنى وردت آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

٢ ـ أخذ بعض العلماء من قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها﴾ أن الأسير من الأعداء يدور أمره بين هاتين الحالتين إما أن نطلق سراحه بدون مقابل ، وإما أن نطلق سراحه في مقابل فدية معينة نأخذها منه ، وقد تكون هذه الفدية مالا ، أو عملا ، أو غير ذلك مما فيه منفعة للمسلمين.

ويرى بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ (١).

ويرى المحققون من العلماء أن هذه الآية ، وهي قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾. تحكى حالات معينة يكون أمر الأسرى فيها دائرا بين المن والفداء ، لأنهما من مصلحة المسلمين ، وهناك حالات أخرى يكون الأصلح فيها قتل الأعداء ، أو استرقاقهم.

فمسألة الأسرى من الأعداء ، يكون الحكم فيها على حسب ما تقتضيه مصلحة المسلمين ، ومرجع الحكم فيها إلى البصراء بالحرب وبوضع خططها ، لأنهم أعرف الناس بكيفية معاملة الأسرى.

وهذا الرأى الأخير هو الذي تطمئن إليه النفس ، لأنه الثابت من فعل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم ومن أفعال أصحابه ، ولأن ذكر المن والفداء لا ينافي جواز غيره كالقتل ـ مثلا ـ لأن هذا الغير مفهوم من آيات أخرى ذكرت هذا الحكم في أوقات وحالات معينة.

وقد رجح هذا الرأى كثير من العلماء ، منهم الإمام ابن جرير ، فقد قال ما ملخصه ـ بعد أن ساق جملة من الأقوال ـ : والصواب من القول عندنا في ذلك ، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة لأنه غير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والقتل والفداء إلى الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم وإلى القائمين بعده بأمر الأمة. وإن لم يكن القتل مذكورا في هذه الآية ، لأنه قد أذن ـ سبحانه ـ بقتلهم في آيات أخرى منها ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

---

(١) سورة التوبة الآية ٥.

وقد فعل الرسول ﷺ كل ذلك ، مع الأسرى ففي بدر قتل عقبة بن أبي معيط. وأخذ الفداء من غيره .. ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده [1].

وقال القرطبي . بعد أن ذكر أربعة أقوال . : الخامس : أن الآية محكمة ، والإمام مخير في كل حال.

وبهذا قال كثير من العلماء منهم : ابن عمر ، والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعي والثوري والأوزاعي .. وغيرهم ، وهو الاختيار ؛ لأن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك. فقد قتل النبي ﷺ في بدر النضر بن الحارث. وأخذ الفداء من أسارى بدر .. وقد منّ على سبى هوازن. وهذا كله ثابت في الصحيح [2].

وقال بعض العلماء ما ملخصه : وما نحسبنا مخطئين إذ قلنا إن الذي كان من النبي ﷺ من الأعمال المختلفة ، كان نزولا على مقتضى المصلحة ، ولذلك نراه كان يجتهد في تعرف وجوه المصلحة ، فيستشير أصحابه.

ولو كان الأمر أمر خطة مرسومة ، واحدا لا يتخطى. ما كان هناك معنى للاستشارة ، ولا للنزول على رأى بعض أصحابه ، ولما خالف في الحرب الواحدة بين أسير وأسير ، فقتل هذا ، وأخذ الفداء من هذا. ومنّ على هذا.

وإذا فالمصلحة العامة وحدها هي لمحكمة ، وهي الخطة التي تتبع في الحروب ، خصوصا والحرب مكر وخديعة ، وما دامت مكرا أو خديعة فليترك للماكرين وضع خطط المكر والخديعة ولا يرسم لهم كيف يمكرون ، وإلا ما كانوا ماكرين [3].

٣ . بشارة الشهداء بالثواب الجزيل ، وبالأجر العظيم ، ويكفى لذلك قوله . تعالى . : ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ﴾.

وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات جملة من الأحاديث منها : ما أخرجه الإمام أحمد عن قيس الجذامي قال : قال رسول الله ﷺ : «يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه يكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من

---

(١) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٩ ص ٢٧.

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٢٨.

(٣) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ٧٦ لفضيلة الشيخ محمد على السائس.

الحور العين ، ويؤمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان [1].

ثم وجه . سبحانه . نداء إلى المؤمنين بشرهم بنصره متى نصروا دينه ، وتوعد الكافرين بالخيبة والخسران ، ووبخهم على عدم تدبرهم في مصير الذين من قبلهم ، وسلى النبي ﷺ عما أصابه من أعدائه ، فقال . تعالى . :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (٨) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (١٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ﴾ (١٣)

والمراد بنصر المؤمنين لله . تعالى . نصرهم لدينه ، بأن يستقيموا على أمره ويتبعوا الرسول ﷺ في كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه.

والمعنى : يا من آمنتم بالله . تعالى . حق الإيمان ، إن تنصروا دين الله . عزّ وجلّ . وتتبعوا رسوله ، ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ . سبحانه . على أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ عند قتالكم إياهم ويوفقكم بعد ذلك للثبات على دينه ، والشكر على نعمه.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٩٢.

وفي معنى هذه الآية ، وردت آيات كثيرة ، منها قوله . تعالى . : ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١).

وقوله . سبحانه . : ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

وقوله . عزّ وجلّ . : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ (٣).

وبعد هذا النداء الذي يحمل أكرم البشارات للمؤمنين ، ذم . سبحانه . الكافرين ذما شديدا ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا ، فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾.

والاسم الموصول مبتدأ ، وخبره محذوف ، و ﴿فَتَعْساً﴾ منصوب على المصدر بفعل مضمر من لفظه ، واللام في قوله ﴿لَهُمْ﴾ لتبيين المخاطب ، كما في قولهم : سقيا له ، أى : أعنى له يقال : تعس فلان . من باب منع وسمع . بمعنى هلك.

قال القرطبي ما ملخصه وقوله : ﴿فَتَعْساً لَهُمْ﴾ نصب على المصدر بسبيل الدعاء ، مثل سقيا له .. وفيه عشرة أقوال : الأول : بعدا لهم. الثاني : حزنا لهم .... الخامس) هلاكا لهم ..

يقال : تعسا لفلان ، أى ألزمه الله هلاكا.

ومنه الحديث الشريف : «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة. إن أعطى رضى ، وإن لم يعط لم يرض».

وفي رواية : «تعس وانتكس ، وإذا شيك . أى أصابته شوكة . فلا انتقش» أى : فلا شفى من مرضه (٤).

والمعنى : والذين كفروا فتعسوا تعسا شديدا ، وهلكوا هلاكا مبيرا ، وأضل الله . تعالى . أعمالهم ، بأن أحبطها ولم يقبلها منهم ، لأنها صدرت عن نفوس أشركت مع خالقها ورازقها آلهة أخرى في العبادة.

فقوله : ﴿وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ معطوف على الفعل المقدر الذي نصب به لفظ «تعسا» ودخلت الفاء على هذا اللفظ ، تشبيها للاسم الموصول بالشرط.

ثم بين . سبحانه . الأسباب التي أدت بهم إلى الخسران والضلال فقال : ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾.

---

(١) سورة الحج الآية ٤٠.

(٢) سورة الروم الآية ٤٧.

(٣) سورة غافر ٥١.

(٤) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٣٢.

أى : ذلك الذي حل بهم من التعاسة والإضلال بسبب أنهم كرهوا ما أنزله الله ـ تعالى ـ على رسوله ﷺ من قرآن يهدى إلى الرشد ، فكانت نتيجة هذه الكراهية ، أن أحبط الله أعمالهم الحسنة التي عملوها في الدنيا كإطعام الطعام وصلة الأرحام .. لأن هذه الأعمال لم تصدر عن قلب سليم ، يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ثم وبخهم ـ سبحانه ـ على عدم اعتبارهم بما في هذا الكون من عبر وعظات فقال : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

والهمزة للاستفهام التقريعى ، والفاء معطوفة على مقدر ، أى : أقبعوا في مساكنهم فلم يسيروا في جنبات الأرض ، فيشاهدوا كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم كقوم عاد وثمود ولوط .. وغيرهم.

وقوله : ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها﴾ جملة مستأنفة ، كأنه قيل : كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم؟ فكان الجواب : دمر الله ـ تعالى ـ عليهم مساكنهم وأموالهم ، فالمفعول محذوف للتهويل والمبالغة في الإهلاك. يقال : دمر الله ـ تعالى ـ الأعداء تدميرا ، إذا أهلكهم إهلاكا شديدا. ودمر عليهم ، أى : أهلك ما يختص بهم ، وجاء هنا بكلمة «عليهم» لتضمين التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم.

وقوله : ﴿وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها﴾ وعيد وتهديد لهؤلاء الكافرين المعاصرين للنبي ﷺ. أى : هكذا كانت عاقبة المجرمين السابقين ، وللكافرين المعاصرين لك ـ أيها الرسول الكريم ـ السائرين على درب سابقيهم في الكفر والضلال والطغيان ، أمثال تلك العاقبة السيئة.

فالضمير في قوله ـ تعالى ـ ﴿أَمْثالُها﴾ يعود إلى العاقبة المتقدمة. وجمع ـ سبحانه ـ لفظ الأمثال باعتبار تعدد العذاب الذي نزل بالأمم المكذبة السابقة.

واسم الإشارة في قوله ـ سبحانه ـ ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ﴾. أى : ذلك التدمير والإهلاك الذي حل بالمكذبين ، بسبب أن الله ـ تعالى ـ هو ولى المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم .. أما الكافرون فلا مولى لهم ينصرهم أو يدفع عنهم ما حل بهم من دمار وخسران.

فالمراد بالمولى هنا : الناصر والمعين ، وأن نصرته ـ تعالى ـ هي للمؤمنين خاصة. ولا يناقض هذا قوله ـ تعالى ـ في آية أخرى : ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ..﴾ لأن المراد بقوله : ﴿مَوْلاهُمُ الْحَقِ﴾ : إلههم الحق ، ومالكهم الحق ، وخالقهم وخالق كل شيء.

ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين من ثواب عظيم، وما أعده للكافرين من عذاب أليم، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ ..﴾ أى يتمتعون وينتفعون بملاذ الدنيا أياما قليلة.

﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ مآكلهم بدون تفكر أو تحر للحلال أو شكر لله ﴿كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ﴾ طعامها الذي يلقيه إليها صاحبها.

فالمقصود بالجملة الكريمة ذم هؤلاء الكافرين، لشبههم بالأنعام التي لا تعقل، في كونهم يأكلون طعامهم دون أن يشكروا الله - تعالى - عليه، ودون أن يفرقوا بين الحلال والحرام، ودون أن يرتفعوا بإنسانيتهم عن مرتبة الحيوان الأعجم.

قال الآلوسى: والمعنى أن أكلهم مجرد عن الفكر والنظر، كما تقول للجاهل: تعيش كما تعيش البهيمة، فأنت لا تريد التشبيه في مطلق العيش، ولكن في خواصه ولوازمه. وحاصله أنهم يأكلون غافلين عن عواقبهم ومنتهى أمورهم [1].

وقوله: ﴿وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ بيان لسوء عاقبتهم في الآخرة، بعد بيان صورتهم القبيحة في الدنيا. والمثوى: اسم مكان لمحل إقامة الإنسان.

أى: والنار هي المكان المعد لنزولهم فيه يوم القيامة.

ثم سلى - سبحانه - نبيه عما أصابه منهم من أذى فقال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ﴾.

وكلمة ﴿كَأَيِّنْ﴾ مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على التكثير، ويكنى بها عن عدد مبهم فتحتاج إلى تميز بعدها. وهي مبتدأ .. وقوله: ﴿أَهْلَكْناهُمْ﴾ خبرها. و ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ تمييز لها. والمراد بالقرية أهلها، وهم مشركو قريش.

أى: وكم من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك التي أخرجوك منها - أيها الرسول الكريم - فترتب على فعلهم هذا أن أهلكناهم دون أن ينصرهم من عقابنا ناصر، أو أن يجيرهم من عذابنا مجير.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ٤٦.

مكة ، في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وهو سيد المرسلين ، وخاتم النبيين.

روى ابن أبي حاتم ، بسنده . عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار ، التفت إليها وقال : يا مكة : أنت أحب بلاد الله إلى الله وأنت أحب بلاد الله إليّ ، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك .. فأنزل الله هذه الآية [1].

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها في الموازنة والمقارنة بين حال المؤمنين وحال الكافرين. فقال . تعالى . :

﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ﴾ (١٥)

والاستفهام في قوله . تعالى . : ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ للإنكار والنفي ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه السياق ، و «من» مبتدأ ، والخبر قوله ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾. والبينة : ما يتبين به الحق من كل شيء ، كالنصوص الصحيحة في النقليات والبراهين السليمة في العقليات.

والمراد بمن كان على بينة من ربه : الرسول ﷺ وأتباعه ، والمراد بمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم : المشركون الذين استحبوا العمى على الهدى.

والمعنى : أفمن كان على بينة من أمر ربه ، وعلى طريقة سليمة من هديه ، يستوي مع من كان على ضلالة من أمره ، بأن ارتكب الموبقات مع توهمه بأنها حسنات ، واتبع هواه دون أن يفرق بين القبيح والحسن؟ لا شك أنهما لا يستويان في عقل أى عاقل. فإن الفريق الأول

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٩٤.

مهتد في منهجه وسلوكه ، والفريق الثاني في النقيض منه.

ثم أكد . سبحانه . هذا المعنى بأن بين مصير الفريقين فقال : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾.

والمراد بالمثل هنا : الصفة. وهو مبتدأ ، والكلام على تقدير الاستفهام الإنكارى ، وتقدير مضاف محذوف ، والخبر قوله . تعالى . : ﴿كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ﴾. أى : أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد في النار ، أو : أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد في النار ، وقدر الاستفهام في المبتدأ لأنه مرتب على الإنكارى السابق في قوله : ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾.

ورحم الله . تعالى . صاحب الكشاف ، فقد قال : فإن قلت ما معنى قوله . تعالى . : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ﴾ كمن هو خالد في النار؟

قلت : هو كلام في صورة الإثبات ، ومعناه النفي والإنكار ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحروف الإنكار ، ودخوله في حيزه ، وانخراطه في سلكه ، وهو قوله . تعالى . : ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ..﴾؟ فكأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد في النار ، أى كمثل جزاء من هو خالد في النار؟

فإن قلت : فلم عرّى في حرف الإنكار؟ وما فائدة التعرية؟

قلت : تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجرى فيها الأنهار ، وبين النار التي يسقى أهلها الجحيم .. [1].

وقوله . سبحانه . : ﴿فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ تفسير مسوق لشرح محاسن الجنة أى : صفة الجنة التي وعد الله . تعالى . بها عباده المتقين ، أنها فيها أنهار من ماء ليس متغيرا في طعمه أو رائحته ، وإنما هو ماء طيب لذيذ تشتهيه النفوس.

والماء الآسن : هو الماء الذي تغير طعمه وريحه ، لطول مكثه في مكان معين. يقال : أسن الماء يأسن . كضرب . يضرب ، إذا تغير.

﴿وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أى : وفيها . أيضا . أنهار من لبن لم يتغير طعمه لا بالحموضة ولا بغيرها مما يجرى على الألبان التي تشرب في الدنيا.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٢١.

﴿وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أى : وفيها كذلك أنهار من خمر هي في غاية اللذة لمن يشربها ، إذ لا يعقبها ذهاب عقل ، ولا صداع.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ للإشعار بأنها لذيذة لجميع من يشربونها بخلاف خمر الدنيا فإن من الناس من ينفر منها ويعافها حتى ولو كان على غير دين الإسلام.

﴿وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ أى : وفيها ـ أيضا ـ أنهار من عسل لا يخالطه ما يخالط عسل الدنيا من الشمع أو غيره.

﴿وَلَهُمْ﴾ أى : للمؤمنين ﴿فِيها﴾ أى : في الجنة فضلا عن كل ذلك ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ التي يشتهونها ، وأهم من كل ذلك أنهم لهم فيها : ﴿مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى : لهم ثواب عظيم وفضل كبير من ربهم ، حيث ستر لهم ذنوبهم ، وأزالها عنهم ، وحولها إلى حسنات بكرمه وإحسانه.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ﴾ أى : أمثل جزاء المؤمنين الذي هو الجنة التي فيها ما فيها من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل .. كمثل عقاب الكافرين والمتمثل في نارهم خالدين فيها أبدا ، وفي ماء في أشد درجات الحرارة ، يشربونه فيقطع أمعاءهم؟

لا شك أن كل عاقل يرى فرقا شاسعا ، بين حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد فرقت بين الأخيار والأشرار في المنهج والسلوك ، وفي المصير الذي يصير إليه كل فريق.

وبعد هذا الحديث المفصل عن حال المؤمنين وحال الكافرين وعن مصير كل فريق. انتقلت السورة إلى الحديث عن المنافقين ، وعن موقفهم من النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم ومن القرآن الكريم الذي أنزله الله ـ تعالى ـ عليه ، فقال ـ سبحانه ـ :

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ

السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ﴾ (١٩)

وضمير الجمع في قوله . تعالى . : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعود إلى هؤلاء الكافرين الذين يأكلون كما تأكل الأنعام ، وذلك باعتبار أن المنافقين فرقة من الكافرين ، إلا أنها تخفى هذا الكفر وتبطنه.

كما يحتمل أن يعود إلى كل من أظهر الإسلام ، باعتبار أن من بينهم قوما قالوا كلمة الإسلام بأفواههم دون أن تصدقها قلوبهم.

وعلى كل حال فإن النفاق قد ظهر بالمدينة ، بعد أن قويت شوكة المسلمين بها. وصاروا قوة يخشاها أعداؤهم ، هذه القوة جعلت بعض الناس يتظاهرون بالإسلام على كره وهم يضمرون له ولأتباعه العداوة والبغضاء .. ويؤيدهم في ذلك اليهود وغيرهم من الضالين.

أى : ومن هؤلاء الذين يناصبونك العداوة والبغضاء . أيها الرسول الكريم قوم يستمعون إليك بآذانهم لا بقلوبهم.

﴿حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أى : من مجلسك الذي كانوا يستمعون إليك فيه ، ﴿قالُوا﴾ على سبيل الاستهزاء والتهكم ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من أصحابك ، الذين فقهوا كلامك وحفظوه.

﴿ما ذا قالَ آنِفاً﴾ أى : ماذا كان يقول محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم قبل أن نفارق مجلسه.

فقوله : ﴿آنِفاً﴾ اسم فاعل ، ولم يسمع له فعل ثلاثي ، بل سمع ائتنف يأتنف واستأنف يستأنف بمعنى ابتدأ.

قال القرطبي : قوله : ﴿ما ذا قالَ آنِفاً﴾ أى : ماذا قال الآن .. فآنفا يراد به الساعة التي هي أقرب الأوقات إليك ، من قولك استأنفت الشيء إذا ابتدأت به ومنه قولهم : أمر أنف ، وروضة أنف ، أى : لم يرعها أحد (١).

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٣٨.

وقال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ...﴾ هم المنافقون ، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ ، كما أن جمعه باعتبار المعنى.

قال ابن جريج ، كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاونا منهم.

ومقصودهم بقولهم : ﴿ما ذا قالَ آنِفاً﴾ الاستهزاء وإن كان بصورة الاستعلام.

و ﴿آنِفاً﴾ اسم فاعل على غير القياس أو بتجريد فعله من الزوائد لأنه لم يسمع له ثلاثي ، بل المسموع : استأنف وأتنف [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم فقال : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ﴾. أى : أولئك المنافقون الذين قالوا هذا القول القبيح ، هم الذين طبع الله ـ تعالى ـ على قلوبهم بأن جعلها بسبب استحبابهم الضلالة على الهداية لا ينتفعون بنصح ، ولا يستجيبون لخير ، وهم الذين اتبعوا أهواءهم وشهواتهم فصاروا لا يعقلون حقا ، ولا يفقهون حديثا.

فالآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه هؤلاء المنافقون من مكر وخداع ، ومن خبث وسوء طوية. وترد عليهم بهذا الذم الشديد الذي يناسب جرمهم.

ثم يعقب ـ سبحانه ـ على ذلك ببيان حال المؤمنين الصادقين فيقول : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾.

أى : هذا هو حال المنافقين ، وهذا هو الحكم الذي يناسبهم ، أما الذين اهتدوا إلى الحق ، واستجابوا له ، وخالطت بشاشته قلوبهم ، فهم الذين زادهم الله ـ تعالى ـ هداية على هدايتهم. وزادهم علما وبصيرة وفقها في الدين ، ومنحهم بفضله وإحسانه خلق التقوى والخشية منه ، والطاعة لأمره ، وكافأهم على ذلك بما يستحقون من ثواب جزيل.

ثم تعود السورة الكريمة إلى توبيخ هؤلاء المنافقين على غفلتهم وانطماس بصائرهم ، فتقول : ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها. فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ﴾؟.

فالاستفهام للإنكار والتعجب من حالهم ، وقوله ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل اشتمال من الساعة ، والأشراط جمع شرط ـ بالتحريك مع الفتح ـ وهو العلامة ، وأصله الإعلام عن الشيء.

يقال : أشرط فلان نفسه لكذا ، إذا أعلمها له وأعدها ، ومنه الشرطي ـ كتركي ـ.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ٥٠.

والجمع شرط ـ بضم ففتح ـ سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها ، وتميزهم عن غيرهم.

وقوله : ﴿فَأَنَّى لَهُمْ﴾ خبر مقدم و ﴿ذِكْراهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر ، والضمير في قوله ﴿جاءَتْهُمْ﴾ يعود إلى الساعة ، والكلام على حذف مضاف قبل قوله ﴿ذِكْراهُمْ﴾ أى : فأنى لهم نفع ذكراهم؟

والمعنى : ما ينتظر هؤلاء الجاهلون إلا الساعة ، التي سيفاجئهم مجيؤها مفاجأة بدون مقدمات ، والحق أن علاماتها قد ظهرت دون أن يرفعوا لها رأسا ، ودون أن يعتبروا بها أو يتعظوا لاستيلاء الأهواء عليهم.

ولكنهم عند ما تداهمهم الساعة بأهوالها ، ويقفون للحساب. يتذكرون ويؤمنون بالله ورسله .. ولكن إيمانهم في ذلك الوقت لن ينفعهم ، لأنه جاء في غير محله الذي يقبل فيه ، وتذكرهم واتعاظهم ـ أيضا ـ لن يفيدهم لأنه جاء بعد فوات الأوان.

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا﴾ [(١)].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ [(٢)].

وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى﴾ [(٣)].

قال الآلوسى : الظاهر أن المراد بأشراط الساعة هنا : علاماتها التي كانت واقعة إذ ذاك ، وأخبروا أنها علامات لها ، كبعثة نبينا صلّى الله عليه وسلّم فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وأشار بالسبابة والوسطى».

وأراد صلّى الله عليه وسلّم مزيد القرب بين مبعثه والساعة ، فإن السبابة تقرب من الوسطى.

وأخرج أحمد عن بريدة قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : «بعثت أنا والساعة جميعا. وإن كادت لتسبقني» وهذا أبلغ في إفادة القرب.

وعدوا منها انشقاق القمر الذي وقع له صلّى الله عليه وسلّم والدخان الذي وقع لأهل مكة ، أما أشراطها مطلقا فكثيرة ، ومنها ككون الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان [(٤)].

---

(١) سورة غافر الآية ٨٥.

(٢) سورة سبأ الآية ٥٢.

(٣) سورة الفجر الآية ٢٣.

(٤) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ٥٢.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يداوم على استغفاره وطاعته لله ـ تعالى ـ وأن يأمر اتباعه بالاقتداء به في ذلك فقال : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ﴾.

والفاء في قوله : ﴿فَاعْلَمْ﴾ للإفصاح عن جواب شرط معلوم مما مر من آيات.

والتقدير : إذا تبين لك ما سقناه عن حال السعداء والأشقياء ، فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واثبت على هذا العلم ، واعمل بمقتضاه ، واستمر على هذا العمل ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أى : واستغفر الله ـ تعالى ـ من أن يقع منك ذنب ، واعتصم بحبله لكي يعصمك من كل مالا يرضيه. واستغفر ـ أيضا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾ بأن تدعو لهم بالرحمة والمغفرة ﴿وَاللهُ﴾ ـ تعالى ـ بعد كل ذلك ﴿يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ﴾ أى يعلم كل متقلب وكل إقامة لكم سواء أكانت في بر أم في بحر أم في غيرهما.

والمقصود : أنه ـ تعالى ـ يعلم جميع أحوالكم ولا يخفى عليه شيء منها ، والمتقلب : المتصرف ، من التقلب وهو التصرف والانتقال من مكان إلى آخر. والمثوى : المسكن الذي يأوى إليه الإنسان ، ويقيم به.

قال الإمام ابن كثير : وقوله : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ، ولا يتأتى كونه آمرا بعلم ذلك ، ولهذا عطف عليه بقوله : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ﴾.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافى في أمرى ، وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفر لي هزلى وجدي ، وخطئى وعمدي ، وكل ذلك عندي».

وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة : «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت. وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت».

وفي الصحيح أنه قال : «يا أيها الناس. توبوا إلى ربكم فإنى أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» (١).

ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : وجوب المداومة على استغفار الله ـ تعالى ـ والتوبة إليه توبة صادقة نصوحا.

لأنه إذا كان الرسول ﷺ وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ـ قد أمره ـ سبحانه ـ بالاستغفار ، فأولى بغيره أن يواظب على ذلك ، لأن الاستغفار بجانب أنه

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٩٨.

ذكر لله ـ تعالى ـ فهو ـ أيضا شكر له ـ سبحانه ـ على نعمه.

وقد توسع الإمام الآلوسى في الحديث عن معنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ..﴾ فارجع إليه إن شئت [١].

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك حال المنافقين عند ما يدعون إلى القتال في سبيل الله ، وكيف أنهم يستولى عليهم الذعر والهلع عند مواجهة هذا التكليف ، وكيف سيكون مصيرهم إذا ما استمروا على هذا النفاق. فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (٢٠) طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (٢٢) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ (٢٣) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ (٢٤)

قال الإمام الرازي ما ملخصه : لما بين الله حال المنافق والكافر ، والمهتدى المؤمن عند استماع الآيات العلمية ، من التوحيد والحشر وغيرهما .. أتبع ذلك ببيان حالهم في الآيات العملية ، فإن المؤمن كان ينتظر ورودها ، ويطلب تنزيلها ، وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول : هلا أمرت بشيء من العبادة.

والمنافق كان إذا نزلت الآية أو السورة وفيها تكليف كره ذلك .. فذكر ـ سبحانه ـ تباين حال الفريقين في العلم والعمل. فالمنافق لا يفهم العلم ولا يريد العمل ، والمؤمن يعلم ويحب العمل .. [٢].

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ من ص ٥٥ إلى ٦٦.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٥٢١.

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ حكاية لتطلع المؤمنين الصادقين إلى نزول القرآن ، وتشوقهم إلى الاستماع إليه ، والعمل بأحكامه.

أى : ويقول الذين آمنوا إيمانا حقا ، لرسوله ﷺ : يا رسول الله هلا نزلت سورة جديدة من هذا القرآن الكريم ، الذي نحبه ونحب العمل بما فيه من هدايات وآداب وأحكام وجهاد في سبيل الله ـ عزّ وجلّ ـ ..

قوله : ﴿فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ ، رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ..﴾ بيان لموقف المنافقين من الجهاد في سبيل الله ، وتصوير بديع لما انطوت عليه نفوسهم من جبن خالع.

والمراد بقوله ﴿مُحْكَمَةٌ﴾ : أى : واضحة المعاني فيما سيقت له من الأمر بالجهاد في سبيل الله ، بحيث لا يوجد مجال لتأويل معناها على الوجه الذي سيقت له.

أى : هذا هو حال المؤمنين بالنسبة لحبهم للقرآن الكريم ، أما حال المنافقين فإنك تراهم إذا ما أنزلت سورة فاصلة بينة تأمر أمرا صريحا بالقتال لإعلاء كلمة الله تراهم ينظرون إليك كنظر من حضره الموت فصار بصره شاخصا لا يتحرك من شدة الخوف والفزع.

والمقصود أنهم يوجهون أبصارهم نحو النبي ﷺ بحدة وهلع ، لشدة كراهتهم للقتال معه ، إذ في هذا القتال عز للإسلام ، ونصر للمؤمنين ، والمنافقون يبغضون ذلك.

فالآية الكريمة ترسم صورة خالدة بليغة لكل نفس لئيمة خوارة ، مبتوتة عن الإيمان ، وعن الفطرة السليمة ، متجردة عن الحياء الذي يستر مخازيها.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿فَأَوْلى لَهُمْ﴾ تهديد ووعيد لهم على جبنهم وخبث طويتهم.

وقوله ﴿فَأَوْلى﴾ يرى بعضهم أنه فعل ماض بمعنى قارب ، وفاعله ضمير يعود إلى الموت ، أى : قاربهم ما يهلكهم وهو الموت الذي يرتعدون منه ..

ويرى آخرون أن قوله ﴿فَأَوْلى﴾ اسم تفضيل بمعنى أحق وأجدر ، وأنه خبر لمبتدأ محذوف ، واللام بمعنى الباء. أى : فالعقاب والهلاك أولى بهم وأحق وأجدر. ويكون قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك ﴿طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف والخبر محذوف.

أى : طاعة وقول معروف منكم لرسول الله ﷺ خير لكم من هذا السلوك الذميم.

ويصح أن يكون قوله ـ سبحانه ـ ﴿فَأَوْلى﴾ مبتدأ. وقوله ﴿لَهُمْ﴾ متعلق به. والخبر قوله ﴿طاعَةٌ﴾. واللام في ﴿لَهُمْ﴾ أيضا. بمعنى الباء.

ويكون المعنى : أولى بهؤلاء المنافقين من أن ينظروا إليك نظر المغشى عليه من الموت ،

الطاعة التامة لك ، والقول المعروف أمامك .. لأن ذلك يحملهم متى أخلصوا قلوبهم لله ـ تعالى ـ على الإقلاع عن النفاق.

ولعل هذا القول الأخير هو أقرب الأقوال إلى سياق الآيات ، لأن فيه إرشادا لهم إلى ما يحميهم من تلك الأخلاق المرذولة التي على رأسها الخداع والجبن والخور.

وقوله : ﴿فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ متعلق بما قبله.

أى : أولى لهم الطاعة والقول المعروف ، وأولى لهم وأجدر بهم إذا جد الجد ، ووجب القتال ، أن يخلصوا لله ـ تعالى ـ نياتهم ، فإنهم لو صدقوا الله في إيمانهم ، لكان صدقهم خيرا لهم ، من تلك المسالك الخبيثة التي سلكوها مع نبيهم ﷺ.

قال الشوكانى : قوله ﴿فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ عزم الأمر أى جد الأمر والقتال ووجب وفرض.

وأسند العزم إلى الأمر وهو لأصحابه على سبيل المجاز. وجواب ﴿فَإِذا﴾ قيل هو ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ﴾ وقيل محذوف والتقدير : كرهوه أى : إذا جد الأمر ولزم القتال خالفوا وتخلفوا [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ ما هو متوقع منهم ، ووجه الخطاب إليهم على سبيل الالتفات ليكون أزجر لهم ، فقال : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ﴾.

قال الفخر الرازي ما ملخصه : وهذه الآية فيها إشارة إلى فساد قول قالوه ، وهو أنهم كانوا يقولون : كيف نقاتل العرب وهم من ذوى أرحامنا وقبائلنا.

والاستفهام للتقرير المؤكد ، وعسى للتوقع ، وفي قوله ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وجهان : أحدهما : أنه من الولاية ، يعنى : فهل يتوقع منكم ـ أيها المنافقون ـ إن أخذتم الولاية وسار الناس بأمركم ، إلا الإفساد في الأرض وقطع الأرحام؟

وثانيهما : أنه من التولي بمعنى الإعراض وهذا أنسب ـ أى : إن كنتم تتركون القتال ، وتقولون فيه الإفساد وقطع الأرحام ، لكون الكفار أقاربنا ، فإن في هذه الحالة لا يتوقع منكم إلا الإفساد وقطع الأرحام كما كان حالكم في الجاهلية [2].

وعلى كلا القولين فالمقصود من الآية توبيخهم على جبنهم وكراهتهم لما يأمرهم به النبي ﷺ من الجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ ، وتقريعهم على أعذارهم الباطلة ، ببيان

---

(١) تفسير الشوكانى ج ٥ ص ٣٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٥٢٢.

أنهم لو أعرضوا عن القتال وخالفوا تعاليم الإسلام فلن يكون منهم إلا الإفساد وقطع الأرحام ، وكذلك سيكون حالهم لو تولوا أمور الناس ، وكانوا حكاما لهم.

وقوله : ﴿أَنْ تُفْسِدُوا ..﴾ خبر عسى ، وقوله : ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ..﴾ جملة معترضة ، وجواب ﴿إِنْ﴾ محذوف لدلالة قوله : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ ..﴾ عليه.

أى : ما يتوقع منكم إلا الإفساد وقطع الأرحام ، إن أعرضتم عن تعاليم الإسلام ، أو إن توليتم أمور الناس ، فاحذروا أن يكون منكم هذا التولي الذي سيفضى بكم إلى سوء المصير ، الذي بينه ـ سبحانه ـ في قوله : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ أى : طردهم من رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ﴾ بأن جعلهم بسبب إعراضهم عن الحق ـ كالصم الذين لا يسمعون ، وكالعمى الذين لا يبصرون ، لأنهم حين عطلوا أسماعهم وأبصارهم عن التدبر والتفكر صاروا بمنزلة الفاقدين لتلك الحواس.

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يدعو إلى التعجيب من حالهم فقال : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ..﴾ والفاء للعطف على جملة محذوفة ، والاستفهام للإنكار والزجر. أى : أيعرضون عن كتاب الله ـ تعالى ـ فلا يتدبرونه مع أنه زاخر بالمواعظ والزواجر والأوامر والنواهي.

﴿أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ ، أى ، بل على قلوب هؤلاء المنافقين أقفالها التي حالت بينهم وبين التدبر والتفكر. والأقفال : جمع قفل ـ بضم فسكون ـ وهو الآلة التي تقفل بها الأبواب وما يشبهها ، والمراد : التسجيل عليهم بأن قلوبهم مغلقة ، لا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر والنفاق.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟

قلت : أما التنكير ففيه وجهان : أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك. أو يراد على بعض القلوب وهي قلوب المنافقين. وأما إضافة الأقفال ، فلأنه يريد الأقفال المختصة بها ، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح (١).

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ (٢).

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها ، وجوب التدبر والتفكر في آيات القرآن الكريم ، والعمل بما فيها من هدايات وإرشادات ، وأوامر ونواه ، وآداب وأحكام ، لأن عدم الامتثال

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٢٦.

(٢) سورة النساء الآية ٨٢.

لذلك يؤدى إلى قسوة القلوب وضلال النفوس ، كما هو الحال في المنافقين والكافرين.

ثم تواصل السورة حديثها عن المنافقين ، فتفصح عن الأسباب التي حملتهم على هذا النفاق ، وتصور أحوالهم السيئة عند ما تتوفاهم الملائكة ، وتهددهم بفضح رذائلهم ، وهتك أسرارهم .. قال ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ (٢٥) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ (٢٧) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ﴾ (٣١)

والمراد بارتدادهم على أدبارهم : رجوعهم إلى ما كانوا عليه من كفر وضلال.

أى : إن الذين رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والضلال ، وهم المنافقون ، الذين يتظاهرون بالإسلام ويخفون الكفر.

وقوله : ﴿مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ ذم لهم على هذا الارتداد ، لأنهم لم يعودوا إلى الكفر عن جهالة ، وإنما عادوا إليه من بعد أن شاهدوا الدلائل الظاهرة ، والبراهين الساطعة

على أن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن الإسلام هو الدين الحق.

وقوله : ﴿الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، وهي خبر إن في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا﴾.

وقوله : ﴿سَوَّلَ﴾ من التسويل بمعنى التزيين والتسهيل. يقال : سولت لفلان نفسه هذا الفعل ، أى : زينته وحسنته له ، وصورته له في صورة الشيء الحسن مع أنه قبيح.

وقوله : ﴿وَأَمْلى﴾ من الإملاء وهو الإبقاء ملاوة من الدهر ، أى : زمنا منه أى : الشيطان زين لهؤلاء المنافقين سوء أعمالهم ، ومد لهم في الأماني الباطلة ، والآمال الفاسدة ، وأسباب الغواية والضلال.

وأسند ـ سبحانه ـ هذا التسويل والإملاء إلى الشيطان ، مع أن الخالق لذلك هو الله ـ تعالى ـ لأن الشيطان هو السبب في هذا الضلال والخسران.

ثم بين ـ سبحانه ـ أسباب هذا الارتداء فقال : ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.

أى : ذلك الارتداء عن الحق والتردي في الباطل. بسبب أن هؤلاء المنافقين قالوا للذين كرهوا ما نزل الله من الهدى على نبيه ﷺ وهم اليهود ومن على شاكلتهم ، قالوا لهم : ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أى : سنطيعكم في بعض أموركم وأحوالكم التي على رأسها : العداوة لهذا الرسول ﷺ ولما جاء به من عند ربه.

كما قال ـ تعالى ـ حكاية عنهم في آية أخرى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ. لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ، وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ (1).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ﴾ تهديد لهم على هذا الدس والكيد والتآمر على الإسلام وأتباعه. أى : والله ـ تعالى ـ يعلم ما يسرونه من أقوال سيئة ، ومن أفعال قبيحة ، وسيعاقبهم على ذلك عقابا شديدا.

وكلمة ﴿إِسْرارَهُمْ﴾ ـ بكسر الهمزة ـ مصدر أسررت إسرارا ، بمعنى كتمت الشيء وأخفيته وقرأ بعض القراء السبعة ﴿إِسْرارَهُمْ﴾ ـ بفتح الهمزة ـ جمع سر. أى : يعلم الأشياء التي يسروها ويخفوها.

---

(1) سورة الحشر الآية 11.

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم ـ عند ما تقبض الملائكة أرواحهم فقال : ﴿فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ﴾.

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والاستفهام للاستعظام والتهويل ، و «كيف» منصوب بفعل محذوف هو العامل في الظرف «إذا».

والمراد بوجوههم : كل ما أقبل منهم ، وبأدبارهم : كل ما أدبر من أجسامهم.

أى : هؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم ، وقالوا ما قالوا من كفر وضلال ، كيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة وقبضت أرواحهم؟ لا شك أن حالهم سيكون أسوأ حال وأقبحه ، لأن ملائكة الموت يضربون عند قبض أرواحهم وجوه هؤلاء المنافقين وأدبارهم ، ضربا أليما موجعا.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ ، وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ (١).

واسم الإشارة في قوله : ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ﴾ يعود إلى توفى الملائكة لهم ، وقبضهم لأرواح هؤلاء المنافقين. أى : ذلك الضرب الأليم لهم من الملائكة عند قبضهم لأرواحهم بسبب أن هؤلاء المنافقين قد اتبعوا ما يغضب الله ـ تعالى ـ من الكفر والمعاصي ، وبسبب أنهم كرهوا ما يرضيه من الإيمان والطاعة.

﴿فَأَحْبَطَ﴾ ـ سبحانه ـ : ﴿أَعْمالَهُمْ﴾ بأن أبطلها ولم يقبلها منهم ، لأنها لم تصدر عن قلب سليم.

ثم هددهم ـ سبحانه ـ بكشف أستارهم ، وفضح أسرارهم فقال : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ﴾.

و «أم» منقطعة بمعنى بل والهمزة ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، و «أن» مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، والجملة بعدها خبرها ، وأن وصلتها سادة مسد مفعولي حسب.

والأضغان : جمع ضغن ، وهو الحقد الشديد. يقال : ضغن صدر فلان ضغنا ـ بزنة تعب ـ ، إذا اشتد حقده وغيظه ، والاسم الضّغن ، بمعنى الالتواء والاعوجاج الذي يكون في كل شيء ، ويقال : تضاغن القوم ، إذا انطوت قلوبهم على البغض والحقد.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٥٠.

أى : بل أحسب هؤلاء المنافقون الذين امتلأت قلوبهم بمرض الكفر والضلال ، أن الله ـ تعالى ـ غير قادر على إظهار أحقادهم الشديدة لرسوله ﷺ والمؤمنين؟

إن حسبانهم هذا هو لون من جهالاتهم ومن غباوتهم وانطماس بصائرهم.

لأن الله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه شيء ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مظاهر قدرته فقال : ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

والمراد بالإراءة هنا : التعريف والعلم الذي يقوم مقام الرؤية بالبصر ، كما في قولهم : سأريك يا فلان ما أصنع بك. أى : سأعلمك بذلك.

والفاء في قوله : ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ﴾ لترتيب المعرفة على الإراءة ، والمراد بسيماهم : علاماتهم. يقال : سوم فلان فرسه تسويما ، إذا جعل له علامة يتميز بها.

وكررت اللام في قوله : ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ﴾ للتأكيد.

ولحن القول : أسلوب من أساليبه المائلة عن الطريق المعروفة ، كأن يقول للقائل قولا يترك فيه التصريح إلى التعريض والإبهام ، يقال : لحنت لفلان ألحن لحنا ، إذا قلت له قولا يفهمه عنك ويخفى على غيره.

قال الجمل : واللحن يقال على معنيين ، أحدهما : الكناية بالكلام حتى لا يفهمه غير مخاطبك ـ ومنه قول الرسول ﷺ لبعض أصحابه في غزوة الأحزاب : «وإن وجدتموهم ـ أى : بنى قريظة ـ على الغدر فالحنوا لي لحنا أعرفه».

والثاني : صرف الكلام من الإعراب إلى الخطأ ـ أى : من النطق السليم إلى النطق الخطأ ..

ويقال من الأول : لحنت ـ بفتح الحاء ـ ألحن فأنا لاحن ، ويقال من الثاني : لحن ـ بكسر الحاء إذا لم ينطق نطقا سليما ـ فهو لحن (١).

والمعنى : ولو نشاء إعلامك وتعريفك ـ أيها الرسول الكريم ـ بهؤلاء المنافقين وبذواتهم وأشخاصهم لفعلنا ، لأن قدرتنا لا يعجزها شيء ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ﴾ أى : بعلاماتهم الخاصة بهم ، والتي يتميزون بها عن غيرهم.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ ـ أيضا ـ ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أى : ولتعرفنهم بسبب أقوالهم المائلة عن

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٥٣.

الأساليب المعروفة في الكلام ، حيث يتخاطبون فيما بينهم بمخاطبات لا يقصدون ظاهرها ، وإنما يقصدون أشياء أخرى فيها الإساءة إليك وإلى أتباعك.

قال الإمام ابن كثير : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ﴾ يقول ـ تعالى ـ : ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم ، فعرفتهم عيانا ، ولكن لم يفعل ـ سبحانه ـ ذلك في جميع المنافقين ، سترا منه على خلقه.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أى : فيما يبدون من كلامهم الدال على مقاصدهم. كما قال عثمان ـ رضى الله عنه ـ : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه. وفي الحديث : «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها».

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «إن منكم منافقين ، فمن سميت فليقم. ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ـ حتى سمى ستة وثلاثين رجلا ـ ثم قال : إن فيكم ـ أو منكم ـ فاتقوا الله» (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ﴾ بيان لعلمه الشامل ـ سبحانه ـ وتهديد لمن يجترح السيئات ، أى : والله ـ تعالى ـ يعلم أعمالكم علما تاما كاملا ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب.

ثم بين ـ سبحانه ـ سنة من سننه في خلقه فقال : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ﴾.

أى : ولنعاملنكم ـ أيها الناس ـ معاملة المختبر لكم بالتكاليف الشرعية المتنوعة ، حتى نبين ونظهر لكم المجاهدين منكم من غيرهم ، والصابرين منكم وغير الصابرين ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ﴾ أى : ونظهر أخباركم حتى يتميز الحسن منها من القبيح.

فالمراد بقوله : ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ ..﴾ إظهار هذا العلم للناس ، حتى يتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وصحيح العقيدة من سقيمها.

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد هددت المنافقين تهديدا شديدا ، ووبختهم على مسالكهم الذميمة ، وفضحتهم على رءوس الأشهاد ، وحذرت المؤمنين من شرورهم.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بالدعوة إلى صلاح الأعمال ، وبتهديد الكافرين

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٠٤.

بالعذاب الشديد ، وبتبشير المؤمنين بالثواب الجزيل ، وبدعوتهم إلى الإكثار من الإنفاق في سبيله .. فقال ـ تعالى ـ :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (٣٢) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ (٣٤) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (٣٧) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ﴾ (٣٨)

والمراد بالذين كفروا في قوله : ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ جميع الكافرين ، كمشركي قريش ، والمنافقين ، وأهل الكتاب.

أى : إن الذين كفروا بكل ما يجب الإيمان به ، ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم عن الإيمان بالحق. و «سبيل الله» الواضح المستقيم.

﴿وَشاقُّوا الرَّسُولَ﴾ أى : عادوه وخالفوه وآذوه ، وأصل المشاقة : أن تصير في شق وجانب ، وعدوك في شق وجانب آخر ، والمراد بها هنا : العداوة والبغضاء.

وقوله : ﴿مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ﴾ ذم وتجهيل لهم ، حيث حاربوا رسول الله ﷺ من بعد أن ظهر لهم أنه على الحق ، وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه.

وقوله : ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ﴾ بيان للآثار السيئة التي ترتبت على هذا الصدود والعداوة.

أى : هؤلاء الذين كفروا ، وصدوا غيرهم عن سبيل الله ، وحاربوا رسول الله ﷺ هؤلاء لن يضروا الله ـ تعالى ـ شيئا بسبب كفرهم وضلالهم ، وسيبطل ـ سبحانه ـ أعمالهم التي عملوها في الدنيا ، وظنوها نافعة لهم ، كإطعام الطعام ، وصلة الأرحام.

لأن هذه الأعمال قد صدرت من نفس كافرة ولن يقبل ـ سبحانه ـ عملا من تلك النفوس ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾.

وكما قال ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء إلى المؤمنين ، أمرهم فيه بالمداومة على طاعته ومراقبته فقال.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ﴾.

أى : يا من آمنتم بالله ـ تعالى ـ حق الإيمان ، أطيعوا الله ـ تعالى ـ في كل ما أمركم به. وأطيعوا رسوله ﷺ ولا تبطلوا ثواب أعمالكم بسبب ارتكابكم للمعاصي ، التي على رأسها النفاق والشقاق ، والمن والرياء ، وما يشبه ذلك من ألوان السيئات.

عن أبى العالية قال : كان أصحاب النبي ﷺ يظنون أنه لا يضر مع «لا إله إلا الله» ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت هذه الآية ، فخافوا أن يبطل الذنب العمل.

وروى نافع عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبي ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت هذه الآية ، فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾.

فلما نزلت كففنا من القول في ذلك ، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ، ونرجو لمن لم يصبها (١).

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٠٥.

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء مصير الذين استمروا على كفرهم حتى ماتوا عليه فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ـ تعالى ـ ، وبكل ما يجب الإيمان به.

﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أى : ومنعوا غيرهم عن الطريق التي توصلهم إلى طاعة الله ورضاه. ﴿ثُمَّ ماتُوا﴾ جميعا ، ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ دون أن يقلعوا عن كفرهم.

﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ شيئا من ذنوبهم ، لأن استمرارهم على الكفر حال بينهم وبين المغفرة.

ومن الآيات الكثيرة التي تشبه هذه الآية في معناها قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ (١).

والفاء في قوله : ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ فصيحة ، والخطاب للمؤمنين على سبيل التبشير والتثبيت والحض على مجاهدة المشركين.

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن الله ـ تعالى ـ لن يغفر للكافرين .. ﴿فَلا تَهِنُوا﴾ أى : فلا تضعفوا ـ أيها المؤمنون ـ أمامهم. ولا تخافوا من قتالهم .. من الوهن بمعنى الضعف ، وفعله وهن بمعنى ضعف ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ، فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

وقوله : ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ معطوف على ﴿تَهِنُوا﴾ داخل في حيز النهى.

أى : فلا تضعفوا عن قتال الكافرين ، ولا تدعوهم إلى الصلح والمسالمة على سبيل الخوف منهم ، وإظهار العجز أمامهم ، فإن ذلك نوع من إعطاء الدنية التي تأباها تعاليم دينكم.

وقوله : ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ، وَاللهُ مَعَكُمْ ، وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ جمل حالية.

أى : لا تضعفوا ولا تستكينوا لأعدائكم والحال أنكم أنتم الأعلون ، أى : الأكثر قهرا وغلبة لأعدائكم ، والله ـ تعالى ـ معكم بعونه ونصره وتأييده.

﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ أى : ولن ينقصكم شيئا من أجور أعمالكم ، يقال : وترت فلانا حقه ـ من باب وعد ـ إذ انقصته حقه ولم تعطه له كاملا ، وترت الرجل ، إذا قتلت له قتيلا ، أو سلبت منه ماله.

قالوا : ومحل النهى عن الدعوة إلى صلح الكفار ومسالمتهم ، إذا كان هذا الصلح أو تلك

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩١.

المسالمة تؤدى إلى إذلال المسلمين أو إظهارهم بمظهر الضعيف القابل لشروط أعدائه .. أما إذا كانت الدعوة إلى السلم لا تضر بمصلحة المسلمين فلا بأس من قبولها ، عملا بقوله - تعالى - : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾.

ثم بين - سبحانه - ما يدل على هوان هذه الدنيا فقال : ﴿إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

قال الجمل : يعنى كيف تمنعكم الدنيا عن طلب الآخرة ، وقد علمتم أن الدنيا كلها لعب ولهو ، إلا ما كان منها في عبادة الله - تعالى - وطاعته.

واللعب : ما يشغل الإنسان وليس فيه منفعة في الحال أو المآل ، ثم إذا استعمله الإنسان ولم ينتبه لأشغاله المهمة فهو اللعب ، وإن أشغله عن مهمات نفسه فهو اللهو [1].

﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ إيمانا حقا ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله - تعالى - ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ كاملة غير منقوصة ، ﴿وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ﴾ أى : ولا يأمركم - سبحانه - أن تخرجوا جميع أموالكم على سبيل دفعها في الزكاة المفروضة ، أو في صدقة التطوع ، فالسؤال بمعنى الأمر والتكليف ويصح أن يكون المعنى : ولا يسألكم رسولكم ﷺ شيئا من أموالكم ، على سبيل الأجر له على تبليغ دعوة ربه ، كما قال - تعالى - : ﴿قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

فالضمير على المعنى الأول يعود إلى الله تعالى ، وعلى الثاني يعود إلى الرسول ﷺ ثم أشار - سبحانه - إلى جانب من حكمته في تشريعاته فقال : ﴿إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ﴾.

وقوله ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ من الإحفاء بمعنى الإلحاف : وهو المبالغة في الطلب. يقال : أحفاه في المسألة ، إذا ألح عليه في طلبها إلحاحا شديدا ، ومنه قوله - تعالى - ﴿لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً﴾ وأصله من أحفيت البعير ، إذا أرهقته في المشي حتى انبرى ورق خفه.

أى : إن يكلفكم بأخراج جميع أموالكم ، ويبالغ في طلب ذلك منكم ، تبخلوا بها فلا تعطوها ، وبذلك ﴿يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ﴾ أى : يظهر أحقادكم وكراهيتكم لهذا التكليف ، لأن حبكم الجم للمال يجعلكم تكرهون كل تشريع يأمركم بإخراج جميع أموالكم.

فقوله ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ عطف على فعل الشرط ، وقوله ﴿تَبْخَلُوا﴾ جواب الشرط ، وقوله : ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ﴾ معطوف على هذا الجواب.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٥٥.

ثم تختتم السورة الكريمة بالدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله فقال : ﴿ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ﴾ . أيها المؤمنون . ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أى : في وجوه الخير التي على رأسها الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه.

﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾ أى : فمنكم . أيها المخاطبون . من يبخل بماله عن الإنفاق في وجوه الخير ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أى : ومن يبخل فإنما يبخل عن داعي نفسه لا عن داعي ربه ، أو فإنما يبخل على نفسه. يقال : بخل عليه وعنه . كفرح وكرم . بمعنى ، لأن البخل فيه معنى المنع والإمساك ومعنى التضييق على من منع عنه المعروف ، فعدى بلفظ ﴿عَنْ﴾ نظرا للمعنى الأول ، ولفظ على نظرا للمعنى الثاني.

﴿وَاللهُ﴾ . تعالى . هو ﴿الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ﴾ إليه ، لاحتياجكم إلى عونه احتياجا تاما ، ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ أى : وإن تعرضوا عن هذا الإرشاد الحكيم.

﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ أى : يخلق بدلكم قوما آخرين.

﴿ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ﴾ أى : ثم لا يكونوا أمثالكم في الإعراض عن الخير ، وفي البخل بما آتاهم الله من فضله.

والمتأمل في هذه الآية يراها قد اشتملت على أسمى ألوان الدعوة إلى الإيمان والسخاء ، والنهى عن الجحود والبخل.

وبعد فهذا تفسير وسيط لسورة محمد صلى الله عليه وسلم نسأل الله . تعالى . أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير

سورة الفتح

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة وتمهيد

١ . سورة الفتح من السور المدنية ، وعدد آياتها تسع وعشرون آية ، وكان نزولها في أعقاب صلح الحديبية.

قال ابن كثير . رحمه الله . : نزلت سورة «الفتح» لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ، ليقضى عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة .. [1].

٢ . والمتدبر للقرآن الكريم ، يرى كثيرا من آياته وسوره ، في أعقاب بعض الغزوات ، ليتعلم المسلمون من تلك الآيات والسور ما ينفعهم وما يصلح من شأنهم.

فمثلا في أعقاب غزوة «بدر» نزلت سورة الأنفال التي سماها ابن عباس سورة بدر.

وفي أعقاب غزوة «أحد» نزلت عشرات الآيات في سورة آل عمران.

وفي أعقاب غزوة «بنى النضير» نزلت آيات من سورة الحشر.

وفي أعقاب غزوة «الأحزاب» نزلت آيات من سورة الأحزاب.

وفي أعقاب صلح الحديبية نزلت هذه السورة الكريمة ، التي تحكى الكثير من الأحداث التي تتعلق بهذا الصلح.

٣ . وقبل أن نبدأ في تفسير هذه السورة الكريمة ، نرى من الخير أن نعطى للقارئ فكرة واضحة عن صلح الحديبية ، التي نزلت في أعقابه هذه السورة .. فنقول . وبالله التوفيق . : رأى النبي ﷺ في منامه أنه قد دخل المسجد الحرام هو وأصحابه ، وقد صرحت السورة الكريمة بذلك في قوله . تعالى . : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ ...﴾ فقص ﷺ هذه الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا بها. وكان المشركون قد منعوهم من دخول مكة ، ومن الطواف بالمسجد الحرام.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٠٧.

٤ ـ وخرج ﷺ ومعه حوالى أربعمائة وألف من أصحابه ، ليس معهم من السلاح سوى السيوف في أغمادها ، وساقوا معهم الهدى الذي يتقربون بذبحه إلى الله ـ تعالى ـ ليكون دليلا على أنهم لا يريدون حرب قريش ، وإنما يريدون الطواف بالبيت الحرام.

وسار ﷺ من المدينة إلى مكة ، فلما وصل إلى «عسفان» وهو مكان بين مكة والمدينة ـ جاءه بشر بن سفيان الكعبي وكان مكلفا من قبل النبي ﷺ لمعرفة أخبار قريش فقال : يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل ـ أى : ومعهم الإبل التي لم تلد ، والإبل التي ولدت ، قد لبسوا جلود النمور ـ أى : قد استعدوا لقتالك وقد نزلوا بذي طوى ـ وهو مكان بالقرب من مكة ـ ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا ..

فقال ﷺ : «يا ويح قريش!! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم ، دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش؟ فو الله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به ، حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة» أى أو أن أقتل في سبيل الله.

ثم قال ﷺ : «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها»؟.

فقال رجل من قبيلة أسلم : أنا يا رسول الله ، فسلك بهم طريقا وعرا ، انتهى بهم إلى «الحديبية» وهي قرية على بعد مرحلة من مكة ، أو هي بئر سمى المكان بها.

٥ ـ وفي هذا المكان بركت القصواء ـ وهي الناقة التي كان يركبها النبي ﷺ فقال الناس : خلأت الناقة أى : حرنت وأبت المشي ـ ، فقال ﷺ : «ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها».

ثم أمر ﷺ الناس بالنزول في هذا المكان ..

٦ ـ وعلمت قريش بنزول الرسول ﷺ وأصحابه في الحديبية ، فبدءوا يرسلون رسلهم لمعرفة الأسباب التي حملت المسلمين إلى المجيء إليهم.

وكان من بين الرسل بديل بن ورقاء الخزاعي .. فلما سأل الرسول ﷺ عن سبب مجيئه إلى مكة ، أخبره أنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت الحرام ، ومعظما لحرمته ..

وعاد بديل إلى مكة ، وأخبر المشركين بما قاله الرسول ﷺ ولكنهم لم يقتنعوا ، وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالا. والله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ...

٧ . ثم أرسلت قريش رسلا آخرين إلى النبي ﷺ كان من بينهم ، عروة بن مسعود الثقفي .. فكان مما قاله للرسول ﷺ : يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس . أى : أخلاطهم . ثم جئت بهم إلى أهلك .. إن قريشا قد تعاهدت أنك لن تدخل عليهم مكة عنوة ..

وكان عروة خلال حديثه مع رسول الله ﷺ يمد يده إلى لحيته ﷺ فكان المغيرة ابن شعبة يقرع يد عروة ويقول له : اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك.

وشاهد عروة ما شاهد من احترام المسلمين لرسولهم ﷺ فعاد إلى المشركين وقال لهم : يا معشر قريش ، إنى قد جئت كسرى في ملكه ، والنجاشيّ في ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا ، فروا رأيكم ..

٨ . ثم أرسل النبي ﷺ إلى قريش عثمان بن عفان . رضى الله عنه . لكي يخبرهم بأن المسلمين ما جاءوا لحرب ، وإنما جاءوا للطواف بالبيت.

وذهب إليهم عثمان وأخبرهم بذلك ، ولكنهم صمموا على منع المسلمين من دخول مكة ، قالوا لعثمان : إن شئت أنت أن تطوف بالبيت فطف.

فقال لهم : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ .

وطال مكث عثمان عند قريش ، حتى أشيع بين المسلمين أنه قد قتله المشركون.

فقال ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قتل : «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا المسلمين إلى مبايعته على الموت ، فبايعه المسلمون على ذلك تحت شجرة الرضوان ...

ثم جاء عثمان بعد ذلك دون أن يصيبه أذى ...

٩ . وأخيرا أوفدت قريش إلى النبي ﷺ رجلا منهم اسمه سهيل بن عمرو ، ليعقد صلحا مع المسلمين ، وقالوا له : ائت محمدا فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فو الله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا ..

وعند ما رأى النبي ﷺ سهيلا مقبلا نحوه ، قال لأصحابه : لقد سهل الله لكم من أمركم ، إن قريشا أرادت الصلح حين بعثت هذا الرجل.

وتم الصلح بين الفريقين على ما يأتى :

أولا : أن يرجع المسلمون دون زيارة البيت هذا العام ، فإذا كان العام التالي : أخلت قريش لهم مكة ثلاثة أيام ، ليطوفوا بالبيت ، وليس معهم إلا السيوف في غمدها ..

ثانيا : أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين عشر سنوات.

ثالثا : من أتى الرسول ﷺ من قريش مسلما بغير إذن وليه رده إليهم ، ومن أتى قريشا من المسلمين لم يردوه.

رابعا : من أحب أن يدخل في عقد مع الرسول ﷺ فله ما أراد. ومن أحب أن يدخل في عهد قريش فله ذلك.

ولقد عز على بعض المسلمين قبول الرسول ﷺ لهذه الشروط ، التي ظاهرها الظلم للمسلمين ، حتى قال عمر ـ رضى الله عنه ـ للرسول ﷺ : يا رسول الله ، ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ فقال ﷺ : «إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري».

ثم أشار ﷺ إلى المسلمين أن يتحللوا من عمرتهم ، بأن ينحروا هديهم ، وأن يحلقوا رءوسهم أو يقصروا. ولكنهم لم يسارعوا بالامتثال ، فدخل ﷺ على زوجه أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ ، وقد ظهر الغضب على وجهه.

فقالت له : يا رسول الله ، اعذرهم ، وابدأ بما تأمرهم به دون أن تكلم منهم أحدا.

فقام ﷺ فنحر هديه ، ودعا حالقه فحلق له ، فلما رأى المسلمون ذلك من نبيهم ، قاموا فنحروا هديهم ، وجعل بعضهم يحلق بعضا.

ثم أقام المسلمون بعد ذلك عدة أيام بالحديبية ، ثم قفلوا راجعين إلى المدينة ، وعند ما سمع ﷺ بعضهم يقول : لقد رجعنا ولم نصنع شيئا ..

قال ﷺ «بل فتحتم أعظم الفتح».

وصدق رسول الله ﷺ في قوله هذا. فقد كان صلح الحديبية فتحا عظيما ، كما نبين ذلك عند تفسيرنا للسورة الكريمة.

وبهذا العرض المجمل لأحداث صلح الحديبية ، نكون قد أعطينا القارئ فكرة مركزة عن هذا الصلح ، وعن الجو العام الذي نزلت في أعقابه سورة الفتح ، ومن أراد المزيد لمعرفة أحداث صلح الحديبية فليرجع إلى كتب السيرة [1].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ٣ من ص ٣٥٥ إلى ص ٣٧٨ وتفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٢٧.

قال الله ـ تعالى ـ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (٧)

افتتحت سورة «الفتح» بهذه البشارات السامية ، والمدائح العالية للنبي ﷺ افتتحت بقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾.

والفتح في الأصل : إزالة الأغلاق عن الشيء .. وفتح البلد : المقصود به الظفر به ، ووقوعه تحت سيطرة الفاتح.

والذي عليه المحققون من العلماء أن المراد بالفتح هنا : صلح الحديبية وما ترتب عليه من خيرات كثيرة ، ومنافع جمة للمسلمين.

ويشهد لذلك أحاديث متعددة منها : ما أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي عن ابن مسعود قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ ، وكان قد خرج إليها ﷺ يوم الاثنين هلال ذي القعدة ، فأقام بها بضعة عشر يوما ، ثم قفل راجعا إلى المدينة ، فبينما نحن نسير إلى المدينة إذ أتاه الوحى . وكان إذا أتاه اشتد عليه . فسرى عنه وبه من السرور ما شاء الله ، فأخبرنا أنه أنزل عليه : ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾.

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن مجمع بن جارية الأوسى قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا منها وجدنا رسول الله ﷺ واقفا عند كراع الغميم . موضع بين مكة والمدينة . وقد جمع الناس وقرأ عليهم : ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ الآيات.

فقال رجل : يا رسول الله ، أو فتح هو؟ فقال ﷺ : أى والذي نفسي بيده إنه لفتح [1].

ويرى بعضهم : أن المراد بالفتح هنا : فتح مكة ، والتعبير عنه بالماضي في قوله : ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ لتحقق الوقوع ، فهو من قبيل قوله . تعالى . : ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ...﴾ ويبدو لنا أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية لوجود الآثار الصحيحة التي تشهد لذلك ، ولأن هذا الصلح قد ترتب عليه من المنافع للدعوة الإسلامية ما يجعله من أعظم الفتوح ، إن لم يكن أعظمها.

لقد ترتب عليه أن انتشر الأمان بين المسلمين والمشركين ، فاستطاع المسلمون أن ينشروا دعوة الحق في مكة وفي غيرها ، كما استطاعوا أن ينتقلوا من مكان إلى آخر للتبشير بدينهم ، فترتب على ذلك أن دخل في الإسلام عدد كبير من الناس.

قال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين ، فسمعوا كلامهم ، وتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٠٧ وتفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ٨٣.

قال ابن هشام : والدليل على صحة قول الزهري ، أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة من أصحابه ثم خرج إلى مكة في عام الفتح . بعد ذلك بسنتين . في عشرة آلاف من أصحابه.

وقد أكد . سبحانه . هذا الفتح بثلاثة أنواع من المؤكدات ، وهي «إن» والمصدر «فتحا» والوصف «مبينا» وذلك للمسارعة إلى تبشير المؤمنين بتحقق هذا الفتح ، ولإدخال السرور على قلوبهم ، بعد تلك الشروط التي اشتمل عليها الصلح ، والتي ظنها بعضهم أن فيها إجحافا بالمسلمين.

وأسند . سبحانه . الفعل إلى نون العظمة ﴿فَتَحْنا﴾ لتفخيم شأن المخبر . عزّ وجلّ . وعلو شأن المخبر عنه وهو الفتح.

وقدم . سبحانه . الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾ على المفعول المطلق ﴿فَتْحاً﴾ للاهتمام وللإشعار بأن ذلك الفتح كان من أجله ﷺ وفي ذلك ما فيه من تعظيم أمره ﷺ ومن وجوب طاعته ، والامتثال لأمره.

ثم ذكر . سبحانه . بعد ذلك مظاهر فضله على رسوله ﷺ فقال : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً. وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾.

واللام في قوله ﴿لِيَغْفِرَ﴾ متعلقة بقوله : ﴿فَتَحْنا﴾ وهي للتعليل. والمراد بما تقدم من ذنبه ﷺ ما كان قبل النبوة ، وبما تأخر منه ما كان بعدها.

والمراد بالذنب هنا بالنسبة له ﷺ ما كان خلاف الأولى ، فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أو المراد بالغفران : الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها ، فلا يصدر منه ﷺ ذنب ، لأن غفران الذنوب معناه : سترها وتغطيتها وإزالتها.

قال الشوكانى : وقوله . تعالى . : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾ اللام : متعلقة بفتحنا وهي لام العلة ، قال المبرد : هي لام كي ومعناها : إنا فتحنا لك فتحا مبينا . أى : ظاهرا واضحا مكشوفا . لكي يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة في الفتح ، فلما انضم إلى المغفرة شيء حادث واقع حسن معنى كي.

وقال ابن عطية : المراد أن الله فتح لك لكي يجعل الفتح علامة لغفرانه لك ، فكأنها لام الصيرورة .. [1].

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٤٤ للشوكانى.

وقال بعض العلماء : وقوله : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾ هو كناية عن عدم المؤاخذة. أو المراد بالذنب ما فرط منه ﷺ من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه ﷺ أو المراد بالغفران : الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها ، فلا يصدر منه ذنب. لأن الغفر هو الستر ، والستر إما بين العبد والذنب ، وهو اللائق بمقام النبوة ، أو بين الذنب وعقوبته ، وهو اللائق بغيره.

واللام في ﴿لِيَغْفِرَ﴾ للعلة الغائية. أى : أن مجموع المتعاطفات الأربعة غاية للفتح المبين ، وسبب عنه لا كل واحد منها.

والمعنى : يسرنا لك هذا الفتح لإتمام النعمة عليك ، وهدايتك إلى الصراط المستقيم ، ولنصرك نصرا عزيزا.

ولما امتن الله عليه بهذه النعم ، صدرها بما هو أعظم ، وهو المغفرة الشاملة ليجمع له بين عزى الدنيا والآخرة. فليست المغفرة مسببة عن الفتح [1].

ولقد كان ﷺ مع هذه المغفرة من الله ـ تعالى ـ له ، أعبد الناس لربه ، وأشدهم خوفا منه ، وأكثرهم صلة به.

قال ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : كان النبي ﷺ يصلى حتى ترم قدماه أى : تتورم ـ فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : «أفلا أكون عبدا شكورا» ..

وعن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه ـ أى : تتشقق ـ فقالت له عائشة : يا رسول الله ، أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟.

فقال : «يا عائشة ، أفلا أكون عبدا شكورا ..» [2].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ معطوف على ما قبله. أى : ويتم ـ سبحانه ـ نعمه عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ بأن يظهر دعوتك ، ويكتب لها النصر ، والخلود ، ويعطيك من الخصائص والمناقب ما لم يعطه لأحد من الأنبياء ، فضلا عن غيرهم.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ أى : ويهديك ويرشدك ـ سبحانه ـ بفضله وكرمه ، إلى

(١) تفسير صفوة البيان ج ٢ ص ٣٣٣ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٠٩.

الطريق القويم ، والدين الحق ، والأقوال الطيبة ، والأعمال الصالحة ..

﴿وَيَنْصُرَكَ اللهُ﴾ . تعالى . ﴿نَصْراً عَزِيزاً﴾ أى : نصرا قويا منيعا لا يغلبه غالب ، ولا يدفعه دافع ، لأنه من خالقك الذي لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ..

هذا ، والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ، يرى أن الله . تعالى . قد أكرم نبيه ﷺ إكراما لا يدانيه إكرام ، ومنحه من الخير والفضل ما لم يمنحه لأحد سواه.

ثم بين . سبحانه . بعد ذلك جانبا من مظاهر فضله على المؤمنين فقال : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ ..﴾ ..

والسكينة : من السكون ، والمراد بها الثبات والطمأنينة التي أودعها . سبحانه . في قلوب المؤمنين ، فترتب على ذلك أن أطاعوا الله ورسوله ، بعد أن ظنوا أن في شروط صلح الحديبية ظلما لهم. وأن بايعوا النبي ﷺ على الموت بعد أن بلغهم أن عثمان . رضى الله عنه . قد قتله المشركون ، وفي التعبير عن ذلك بالإنزال ، إشعار بعلو شأنها ، حتى لكأنها كانت مودعة في خزائن رحمة الله . تعالى . ، ثم أنزلها بفضله في قلوبهم بعد ذلك ..

أى : هو . سبحانه . بفضله ورحمته ، الذي أنزل السكينة والطمأنينة والثبات في قلوب المؤمنين ، فانشرحت صدورهم لهذا الصلح بعد أن ضاقت في أول الأمر.

وقوله : ﴿لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ﴾ تعليل لهذا الإنزال للسكينة.

أى : أوجد السكينة وخلقها في قلوبهم ، ليزدادوا يقينا على يقينهم ، وتصديقا إلى تصديقهم وثباتا على ثباتهم.

وشبيه بهذه الآية قوله . تعالى . : ﴿إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً﴾ وقوله . سبحانه . : ﴿وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١).

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها ، أن الإيمان يزيد وينقص.

قال الآلوسى ما ملخصه : قال البخاري : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص.

واحتجوا على ذلك بالعقل والنقل. أما العقل ، فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين في الفسوق والمعاصي ، مساويا لإيمان الأنبياء ، واللازم باطل ، فكذا الملزوم ..

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٤.

وأما الثاني : فلكثرة النصوص في هذا المعنى ، ومنها الآية التي معنا وأمثالها ، ومنها وما روى عن ابن عمر قال : قلنا : يا رسول الله ، إن الايمان يزيد وينقص ، قال : «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخله النار».

وقال الإمام النووي وغيره : إن الايمان بمعنى التصديق القلبي ، يزيد وينقص . أيضا بكثرة النظر ، ووضوح الأدلة ، ولهذا كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم .. [1].

ثم بين . سبحانه . شمول ملكه وقدرته فقال : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾. أى : ولله . تعالى . وحده جنود السموات والأرض من ملائكة وجن وإنس ، إذ الكل تحت قهره وسلطانه ، فهو . سبحانه . الذي يدبر أمرهم كيف شاء ، ويدفع بعضهم ببعض كما تقتضي حكمته وإرادته ، وهو . تعالى . العليم بكل شيء. الحكيم في جميع أفعاله ...

واللام في قوله . سبحانه . : ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ...﴾ متعلقة بمحذوف أو بقوله : ﴿فَتَحْنا﴾ ..

أى : فعل . سبحانه . ما فعل من جعل جنود السموات والأرض تحت سيطرته وملكه ، ومن دفع الناس بعضهم ببعض ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار. ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ خلودا أبديا ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ﴾ التي فعلوها في دنياهم ، بأن يغفرها لهم ، ويزيلها عنهم ، بل ويحولها لمن شاء منهم بفضله وكرمه إلى حسنات.

﴿وَكانَ ذلِكَ﴾ الإدخال للمؤمنين الجنة ، وتكفير سيئاتهم ..

﴿عِنْدَ اللهِ﴾ . تعالى . ﴿فَوْزاً عَظِيماً﴾ لا يقادر قدره ، لأنه نهاية آمال المؤمنين ، وأقصى ما يتمناه العقلاء المخلصون.

﴿وَيُعَذِّبَ﴾ . سبحانه . بعدله ﴿الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ ، الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ ...﴾.

أى : الظانين بالله . تعالى . وبرسوله وبالمؤمنين الظن السيئ بأن توهموا أن الدائرة ستدور على المؤمنين وأنهم هم الذين سينتصرون. أو أنهم هم على الحق. وأن الرسول ﷺ وأتباعه على الباطل.

فقوله : ﴿السَّوْءِ﴾ صفة لموصوف محذوف. أى : الظانين بالله ظن الأمر السوء.

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ٩٢.

وقوله ـ تعالى ـ ﴿عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ﴾ دعاء عليهم بأن ينزل بهم ما توقعوه للمؤمنين من سوء. أى : عليهم وحدهم ينزل ما يتمنونه للمؤمنين من شر وسوء.

والدائرة في الأصل : تطلق على الخط المحيط بالشيء. ثم استعملت في النازلة المحيطة بمن نزلت به. وتستعمل أكثر ما تستعمل في المصائب والمكاره.

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أى : ما يظنونه ويتوقعونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم. والسوء : الهلاك والدمار.

فإن قلت : هل من فرق بين السّوء والسّوء؟ قلت : هما كالكره والكره ، والضّعف والضّعف : من ساء ، إلا أن المفتوح غالب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء ، وأما السوء بالضم ، فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير [1].

ثم قال ـ تعالى ـ : ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً﴾.

أى : ليس عليهم دائرة السوء فقط ، بل وفضلا عن ذلك فقد غضب الله ـ تعالى ـ عليهم ، وطردهم من رحمته ، وأعد لهم في الآخرة نار جهنم ، وساءت هذه النار مصيرا لهم.

ثم أكد ـ سبحانه ـ ملكيته لكل شيء فقال : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ ، أى : ولله ـ تعالى ـ وحده جنود السموات والأرض ، وكان ـ سبحانه ـ وما زال غالبا على كل شيء ، حكيما في كل أوامره ونواهيه. وفي كل تصرفاته وأفعاله.

ولما كان المقصود من ذكر الجنود هنا : تهديد المنافقين والمشركين ، وأنهم في قبضته ـ تعالى ـ ، ناسب أن تذيل الآية هنا بقوله : ﴿وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ لأن العزة تقتضي الغلبة للغير.

ولما كان المقصود من ذكر الجنود في الآية الرابعة ، بيان أن المدبر لهذا الكون هو الله ـ تعالى ـ ناسب أن تذيل الآية هناك بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

ثم حدد الله ـ تعالى ـ الوظيفة التي كلف بها رسوله صلى‌الله‌عليه‌وسلم وبشر المؤمنين الذين وفوا بعهودهم بالأجر العظيم فقال :

﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٣٤.

وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (١٠)

وقوله : ﴿مُبَشِّراً﴾ من التبشير ، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم له بهذا الأمر.

وقوله : ﴿وَنَذِيراً﴾ من الإنذار ، وهو الإخبار بالأمر المخيف ، لكي يجتنب ويحذر.

أى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ﴾ ـ أيها الرسول الكريم ـ إلى الناس ، لتكون ﴿شاهِداً﴾ لمن آمن منهم بالإيمان ، ولمن كفر منهم بالكفر ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغا تاما كاملا.

ولتكون ﴿مُبَشِّراً﴾ للمؤمنين منهم برضا الله عنهم ومغفرته لهم ﴿وَنَذِيراً﴾ للكافرين وللعصاة بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم وعصيانهم.

والحكمة في جعله صلى‌الله‌عليه‌وسلم شاهدا مع أن الله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه شيء : إظهار العدل الإلهى للناس في صورة جلية واضحة ، وتكريم النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم بهذه الشهادة.

وجمع ـ سبحانه ـ بين كونه صلى‌الله‌عليه‌وسلم ﴿مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ لأن من الناس من ينفعه الترغيب في الثواب ، ومنهم من لا يزجره إلا التخويف من العقاب. وانتصاب ﴿شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ على الحال المقدرة.

وفي معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ...﴾ (١).

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ ..﴾ (٢).

وقوله ـ عزوجل ـ : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (٣).

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣.

(٢) سورة النحل الآية ٨٩.

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٥.

ثم بين - سبحانه - الحكمة من إرساله ﷺ فقال : ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾.

وقوله : ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ من التعزير بمعنى النصرة مع التعظيم والتفخيم.

وقوله : ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أى : تعظموه وتقدروه.

وقوله : ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من التسبيح بمعنى التنزيه. تقول : سبحت الله - تعالى - ، أى : نزهته عما لا يليق به ، و ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ، و ﴿أَصِيلاً﴾ آخره ، والمراد ظاهرهما ، أو جميع أوقات النهار ، كما يقال : شرقا وغربا لجميع الجهات.

والخطاب للرسول ﷺ ولأمته ، كقوله - تعالى - : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ...﴾ والقراءة بتاء الخطاب ، هي قراءة الجمهور من القراء.

قال الآلوسى : وهو من باب التغليب ، غلب فيه المخاطب على الغائب فيفيد أن النبي ﷺ مخاطب بالإيمان برسالته كأمته .. [1].

أى : أرسلناك - أيها الرسول الكريم - شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتكون على رأس المؤمنين بما أرسلناك به ، وليتبعك في ذلك أصحابك ومن سيأتى بعدهم ، بأن يؤمنوا بالله ورسوله إيمانا حقا ، ولينصروك ويعظموك ، وليسبحوا الله - تعالى - في الصباح والمساء. وعلى هذا يكون الضمير في قوله - تعالى - : ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ يعود إلى الرسول ﷺ وفي قوله ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ يعود إلى الله - تعالى - ..

قال القرطبي ما ملخصه : قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليؤمنوا وكذلك يعزروه ويوقروه ويسبحوه كله بالياء على الخبر ..

وقرأ الباقون بالتاء في الخطاب ... والهاء في قوله : ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ للنبي ﷺ وهنا وقف تام. ثم تبتدئ بقوله : ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أى : تسبحوا الله بكرة وأصيلا.

وقيل : الضمائر كلها لله - تعالى - فعلى هذا يكون تأويل : ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أى : تثبتوا له صحة الربوبية ، وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك .. [2].

ثم مدح - سبحانه - الذين عاهدوا الرسول ﷺ ووفوا بعهودهم أكمل وفاء ، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ ..﴾

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ٩٥.

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٦٦.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يُبايِعُونَكَ﴾ من المبايعة أو من البيعة ، بمعنى المعاهدة أو العهد ، وسميت المعاهدة مبايعة ، لاشتمال كل واحدة منهما على معنى المبادلة ، وعلى وجوب الصدق والوفاء.

والمراد بهذه المبايعة ، ما كان من المؤمنين في صلح الحديبية ، عند ما عاهدوا الرسول ﷺ على الثبات وعلى مناجزة المشركين بعد أن أشيع أنهم قتلوا عثمان ـ رضى الله عنه .. أى : إن الذين يبايعونك على الموت أو على عدم الفرار عند لقاء المشركين ، إنما يبايعون ويعاهدون الله ـ تعالى ـ على ذلك قبل أن يبايعوك أنت ، لأن المقصود من هذه البيعة إنما هو طاعته ـ سبحانه ـ وامتثال أمره ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾. فالمقصود بقوله : ﴿إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ﴾ تأكيد وجوب الوفاء بما عاهدوا الرسول ﷺ عليه من الثبات وعدم الفرار ، والطاعة له في كل ما يأمرهم به.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ زيادة في تأكيد وجوب الوفاء.

ومذهب السلف في هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات : أنه يجب الإيمان بها ، وتفويض علم معناها المراد منها إلى الله ـ تعالى ـ وترك تأويلها مع تنزيهه ـ تعالى ـ عن حقيقتها ، لاستحالة مشابهته ـ تعالى ـ بالحوادث ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

أما الخلف فمذهبهم تأويل هذه الصفات على معنى يليق بجلاله ، فيؤولون اليد هنا بالقوة أو القدرة. أى : قوة الله ـ تعالى ـ وقدرته ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم ، كما يقال : اليد في هذه المسألة لفلان ، أى : الغلبة والنصرة له.

أو المعنى : يد الله ـ تعالى ـ بالوفاء بما وعدهم من الخير والنصرة فوق أيديهم ..

والمقصود بهذه الجملة ـ كما أشرنا ـ زيادة التأكيد على وجوب الوفاء والثبات.

قال صاحب الكشاف : لما قال ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ﴾ أكده تأكيدا على سبيل التمثيل ، فقال : ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يريد أن يد رسول الله ﷺ التي تعلو أيدى المبايعين : هي يد الله ، والله ـ تعالى ـ منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام ..

وإنما المعنى : تقرير أن عقد الميثاق من الرسول ﷺ كعقده مع الله ـ تعالى ـ [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة الناكثين فقال : ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ﴾

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٣٥.

أى : فمن نقض العهد بعد إبرامه وتوثيقه ، فإنما عاقبة نقضه يعود وبالها وشؤمها عليه.

فقوله ﴿نَكَثَ﴾ مأخوذ من النّكث . بكسر النون . وهو فك الخيوط المغزولة بعد غزلها ، وقوله : ﴿وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ أى : ومن ثبت على الوفاء بما عاهد الله . تعالى . عليه فسيعطيه . سبحانه . من فضله أجرا عظيما على ذلك.

والهاء في قوله : ﴿عَلَيْهُ﴾ قرأها حفص بالضم ، توصلا إلى تفخيم لفظ الجلالة ، الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام ، وقرأها الجمهور بالكسر.

هذا ، وقد وردت أحاديث متعددة ، تصرح بأن الذين كانوا مع النبي ﷺ في صلح الحديبية قد بايعوا جميعا النبي ﷺ على الموت أو على عدم الفرار ، سوى جماعة من المنافقين ، امتنعوا عن هذه البيعة ، لمرض قلوبهم ، وسوء طويتهم ..

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الشيخان عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل : على أى شيء؟ قال : على الموت.

وروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله أنه سئل : كم كان عددكم يوم الحديبية؟ قال : كنا أربع عشرة مائة ، فبايعنا الرسول ﷺ على أن لا نفر . سوى الجد بن قيس فإنه اختفى تحت بطن بعيره ، ولم يسرع مع القوم ..

وهكذا فاز المؤمنون الصادقون بشرف هذه البيعة وحرم منها المنافقون لمرض قلوبهم.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن المتخلفين ، الذين لم يخرجوا مع النبي ﷺ إلى صلح الحديبية ، فتحكى أعذارهم الزائفة ، وتفضحهم على رءوس الأشهاد ، وترد على أقوالهم الباطلة ، وتأمر النبي ﷺ بالإعراض عنهم ، وإهمال أمرهم ، فهم قوم استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ..

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى

أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً﴾ (١٧)

قال الإمام الرازي ما ملخصه : لما بين ـ سبحانه ـ حال المنافقين ، ذكر المتخلفين ـ بعد ذلك ـ فإن قوما من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى مكة ، لظنهم أنه يهزم ، فإنهم قالوا : أهل مكة قاتلوه على باب المدينة .. فكيف يذهب إليهم .. واعتذروا عن الخروج معه ﷺ [1].

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٥٤١.

والمخلفون : جمع مخلّف ، وهو المتروك في مكان خلف الخارجين من البلد كالنساء والصبيان ، فإنهم في العادة لا يخرجون مع الرجال للجهاد ، وعبر عنهم بالمخلفين على سبيل الذم لهم.

والأعراب : اسم جنس لبدو العرب ، واحده أعرابى ، والأنثى أعرابية ، والمقصود بهم هنا سكان البادية من قبائل غفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وأسلم ، والدّيل ، وكان الرسول ﷺ قد دعاهم إلى الخروج معه إلى مكة ، ليساعدوه على إقناع قريش في الإذن بدخول مكة للطواف بالبيت الحرام .. ولكنهم اعتذروا.

وقوله ـ سبحانه ـ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا .. إعلام من الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ بما سيقوله هؤلاء المتخلفون له ، بعد عودته إليهم من صلح الحديبية.

أى : سيقول المخلفون لك ـ أيها الرسول الكريم ـ : إننا ما تخلفنا عنك باختيارنا ، ولكن انشغالنا بحفظ ورعاية أموالنا ونسائنا وأولادنا الصغار ، حال بيننا وبين الخروج معك إلى الحديبية ، وما دام الأمر كذلك ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنا﴾ الله ـ تعالى ـ لكي يغفر لنا ذنوبنا التي وقعنا فيها بسبب هذا التخلف الذي لم يكن عن تكاسل أو معصية لك.

ولما كان قولهم هذا لم يكن صحيحا ، فقد رد الله ـ تعالى ـ عليهم بقوله : ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾. أى : هم ليسوا صادقين فيما يقولون ، والحق أنهم يقولون قولا من أطراف ألسنتهم ، دون أن تؤيده قلوبهم ، فإن السبب الحقيقي لعدم خروجهم معك ، هو ضعف إيمانهم ، ومرض قلوبهم ، وتذبذب نفوسهم.

فالجملة الكريمة تكذيب لهم فيما قالوه ، وفضيحة لهم على رءوس الأشهاد.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ أن يجابههم بقوله : ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ .. والاستفهام للإنكار والنفي.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المتخلفين من الأعراب لا أحد يستطيع أن يمنع عنكم قضاء الله ـ تعالى ـ ، إن أراد بكم ما يضركم من قتل أو هزيمة ، أو إن أراد بكم ما ينفعكم ، من نصر أو غنيمة ؛ لأن قضاء الله ـ تعالى ـ لا دافع له ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (١) ..

---

(١) سورة فاطر الآية ٢.

ثم أضرب ـ سبحانه ـ عن ذلك وقال : ﴿بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ أى : إن تخلفكم ليس سببه ما زعمتم ، بل الحق أن تخلفكم كان بسبب ضعف إيمانكم ، والله ـ تعالى ـ مطلع على أحوالكم اطلاعا تاما ، وسيجازيكم بما تستحقون.

ثم أكد ـ سبحانه ـ كذبهم بإضراب آخر عن أقوالهم فقال : ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ، وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ والبور في الأصل : مصدر كالهلك ، يوصف به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث.

وهو هنا مستعمل بمعنى اسم الفاعل. وقيل : هو جمع بائر ، كحائل وحول.

قال صاحب الكشاف والبور من بار ، كالهلك من هلك بناء ومعنى ، ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ .. [1].

والمعنى : ليس الأمر كما زعمتم ـ أيها المخلفون ـ من أن أموالكم وأولادكم هي التي شغلتكم عن الخروج مع رسولكم صلى‌الله‌عليه‌وسلم ولكن الحق أنكم ظننتم أن العدو سيستأصل شأفة المؤمنين بالقتل والإهلاك. وأنهم لن يعودوا بعد ذلك إلى أهليهم أبدا ..

وزين الشيطان هذا الظن الفاسد في قلوبكم ، ومكنه من نفوسكم فقبعتم في دياركم ، وظننتم ، في كل ما يتعلق بالرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم وبأتباعه الصادقين ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أى : الظن الذي كله سوء وشر ومنكر ..

﴿وَكُنْتُمْ﴾ في علم الله ـ تعالى ـ وحكمه ﴿قَوْماً بُوراً﴾ أى : قوما هالكين فاسدين ، لا تصلحون لشيء من الخير ، ولا تستحقون إلا الخزي والعقاب.

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد ذم هؤلاء المتخلفين وفضحهم وتوعدهم بسوء المصير ، لأسباب متعددة ، منها : سوء ظنهم بالله ـ تعالى ـ وبرسوله ، صلى‌الله‌عليه‌وسلم فقد توهموا أن الرسول والمؤمنين سيقتلون على يد أعدائهم ، وأنهم لن يعودوا إلى أهليهم أبدا.

ومنها : اعتذارهم الكاذب ، بانشغالهم بأموالهم وأهليهم ..

ومنها : تعمدهم الكذب. وتفوههم بالكلام الذي لا تؤيده قلوبهم.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذا الذم والتهديد للمتخلفين بقوله : ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً﴾.

أى : ومن لم يؤمن بالله ـ تعالى ـ إيمانا حقا ، وبصدق الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم في كل ما جاء

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٢٧.

به من عند ربه ، ويطيعه في كل ما أمر به أو نهى عنه ، عاقبناه عقابا شديدا ، فإنا قد هيأنا للكافرين نارا مسعرة ، تحرق الأبدان ، وتشوى الوجوه ..

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه هو المالك لكل شيء فقال : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقا وتصرفا ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ أن يغفر له ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ﴾ أن يعذبه.

﴿وَكانَ﴾ ـ سبحانه ـ وما زال ﴿غَفُوراً﴾ أى : واسع المغفرة ﴿رَحِيماً﴾ أى : واسع الرحمة.

ثم عادت السورة الكريمة إلى حكاية أقوال هؤلاء المنافقين ، وإلى الرد عليها ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ ..﴾.

والمراد بالمخلفين هنا : السابقون الذين وصفوا بأنهم من الأعراب ، فاللام للعهد.

أى : سيقول المخلفون عن الخروج معك يا محمد إلى مكة بعد أن خاب ظنهم فرجعتم سالمين إليهم بعد صلح الحديبية ، سيقولون لك ولأصحابك : ﴿ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أى : اتركونا لنسير معكم ، لنشارككم في جمع الغنائم التي تنالونها من أعدائكم.

فقوله ﴿ذَرُونا﴾ بمعنى اتركونا ودعونا.

قال الآلوسى : والمراد بالمغانم هنا : مغانم خيبر ـ كما عليه عامة المفسرين ـ ولم نقف على خلاف في ذلك ، وأيد بأن السين تدل على القرب ، وخيبر أقرب المغانم التي انطلقوا إليها من الحديبية ـ كما علمت ـ ، فإرادتها كالمتعينة ، وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن الله ـ تعالى ـ وعد أهل الحديبية أن يعوضهم من مغانم مكة مغانم خيبر ، إذا قفلوا موادعين لا يصيبون شيئا» [1].

وقد كان رجوع النبي ﷺ وأصحابه من صلح الحديبية في ذي الحجة من السنة السادسة ، وخروجهم إلى خيبر كان في المحرم من السنة السابعة ، وقد أصاب المسلمون من خيبر غنائم كثيرة ، وقد جعلها ﷺ لمن شهد معه صلح الحديبية دون غيرهم.

وقوله : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ﴾ أى : يريد هؤلاء المخلفون بقولهم ﴿ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أن يغيروا حكم الله ـ تعالى ـ الذي حكم به ، وهو أن غنائم خيبر خاصة لمن شهد صلح الحديبية ، أما هؤلاء المخلفون فلا نصيب لهم فيها.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٠١.

ثم لقن الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ الرد الذي يخرسهم فقال : ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ ...﴾ أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المخلفين ـ على سبيل الإقناط والتيئيس والزجر ـ لا تتبعونا ونحن متجهون إلى خيبر لفتحها. فالنفي في قوله ﴿لَنْ تَتَّبِعُونا﴾ بمعنى النهى للمبالغة في منعهم من الخروج مع المؤمنين إلى خيبر.

وقوله : ﴿كَذلِكُمْ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى : مثل هذا النهى الصادر منى قد قاله الله ـ تعالى ـ من قبل رجوعنا من الحديبية ، فقد أمرنى بمنعكم من الخروج معى إلى خيبر ، وبحرمانكم من غنائمها ، عقابا لكم على معصيتكم لي ، وعلى سوء ظنكم بي وبأصحابى .. ثم حكى ـ سبحانه ـ ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد مجابهتهم بتلك الحقيقة فقال : ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا ، بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

أى : فسيقولون لك ـ أيها الرسول الكريم ـ بعد منعك إياهم من الخروج معكم إلى خيبر ، وبعد أن ذكرت لهم حكم الله فيهم .. سيقولون لك على سبيل السفاهة وسوء الأدب : أنتم أيها المؤمنون تريدون بسبب هذا المنع من الخروج معكم إلى خيبر ، أن تحسدونا وتمنعونا حقنا في الغنيمة ، والله ـ تعالى ـ لم يأمركم بمنعنا ، وإنما أنتم الذين فعلتموه حسدا لنا.

وقوله : ﴿بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ إضراب عن قولهم هذا على سبيل التسلية للرسول ﷺ أى : ليس الحق كما زعموا ، بل الحق أنهم قوم دأبهم الحمق والجهالة ، ولا يفقهون من أمور الدين إلا فقها قليلا ، لا يسمن ولا يغنى من جوع.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما الفرق بين حرفي الإضراب؟ قلت : الأول إضراب معناه : رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد. والثاني : إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى وصفهم بما هو أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه .. (1).

ثم فتح ـ سبحانه ـ أمام هؤلاء المخلفين من الأعراب باب التوبة ، فأمر النبي ﷺ أن يدعوهم إلى الجهاد معه ، فإن صدقوا أفلحوا ، وإن أعرضوا خسروا فقال : ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ، تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾.

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المخلفين من الأعراب عن الخروج معك ، ستدعون في المستقبل إلى القتال معى لقوم أصحاب قوة وشدة في الحرب ، فيكون بينكم وبينهم أمران لا ثالث لهما : إما قتالكم لهم ، وإما الإسلام منهم.

«فأو» في قوله ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ للتنويع والحصر. وجملة «تقاتلونهم أو يسلمون»

---

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٢٨.

مستأنفة للتعليل ، كما في قوله : سيدعوك الأمير للقائه يكرمك أو يخزى عدوك.

وقد اختلف المفسرون في المراد بهؤلاء القوم أولى البأس الشديد ، فمنهم من قال : فارس والروم ، ومنهم من قال : بنو حنيفة أتباع مسيلمة الكذاب.

والذي عليه المحققون من العلماء أن المقصود بهم : هوازن وثقيف الذين التقى بهم المسلمون في غزوة حنين بعد فتح مكة.

وذلك لأن عددا كبيرا من تلك القبائل المتخلفة قد اشتركت في تلك الغزوة ، حتى لقد بلغ عدد المسلمين فيها ما يقرب من اثنى عشر ألفا ، ولأن أهل هوازن وثقيف قد كانوا يجيدون الرماية والكر والفر ، فاستطاعوا في أول المعركة . بعد أن اغتر المسلمون بقوتهم . أن يفرقوا بعض صفوف المسلمين ، ثم تجمع المسلمون بعد ذلك وانتصروا عليهم ، ثم كانت النتيجة أن انتهت تلك الغزوة بإسلام هوازن وثقيف. كما هو معروف في كتب السيرة.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان بين المسلمين وبين هوازن وثقيف من قتال في قوله . تعالى . : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ. ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

وقد رجح فضيلة شيخنا الدكتور أحمد السيد الكومى أن يكون المقصود بالقوم أولى البأس الشديد هوازن وثقيف ، فقال ما ملخصه : وتكاد تنفق كتب السيرة على أن الجيش الذي ذهب لفتح مكة ، ثم ذهب بعد ذلك إلى غزو هوازن وثقيف يوم حنين ، كان يضم بين جوانحه العدد الكثير من قبائل أسلم وأشجع وجهينة وغفار ومزينة.

وإذن فالأمر المحقق أن القبائل المتخلفة يوم الحديبية ، ساهمت في الجهاد بقسط وافر يوم فتح مكة ، ويوم حنين ..

وقد أقام المسلمون بمكة بعد أن فتحوها . بدون قتال يذكر . خمسة عشر يوما .. ثم ذهبوا لقتال هوازن وثقيف .. وكانوا رماة مهرة ذوى مهارة حربية ، ودراية بفنون القتال فهزموا المسلمين في أول الأمر ، ثم هزمهم المسلمون.

ومن كل ذلك يترجح الحكم بأن هؤلاء القوم هم هوازن ، وأن كثيرا من المخلفين أسلم

---

(١) سورة التوبة الآيات ٢٥ . ٢٧.

إسلاما خالصا ، وحسنت توبته .. "[1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ بيان للثواب العظيم الذي أعده ـ سبحانه ـ للطائفين ، وللعذاب الأليم الذي توعد به الفاسقين.

أى : فإن تطيعوا ـ أيها المخالفون ـ رسولكم ﷺ يؤتكم الله من فضله أجرا حسنا ، وإن تتولوا وتعرضوا عن الطاعة ، كما أعرضتم من قبل في صلح الحديبية عن طاعته ، يعذبكم ـ سبحانه ـ عذابا أليما.

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات برفع الحرج عن الذين تخلفوا لأعذار حقيقة فقال : ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ..﴾.

أى : ليس على هؤلاء إثم في التخلف عن الجهاد ، لما بهم من الأعذار والعاهات المرخصة لهم في التخلف عنه.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمرا به أو نهيا عنه ، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، وَمَنْ يَتَوَلَ﴾ عن طاعتهما ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ الله ـ تعالى ـ ﴿عَذاباً أَلِيماً﴾ لا يقادر قدره.

ثم بشر الله ـ تعالى ـ المؤمنين الصادقين ببشارات متنوعة ، ومدحهم مدحا عظيما ، وبين ـ سبحانه ـ أن سنته في خلقه لن تتخلف ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨) وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩) وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً

---

(١) راجع تفسير سورة الفتح ص ٨٩ وما بعدها لفضيلة أستاذنا الدكتور أحمد الكومى.

مُسْتَقِيماً (٢٠) وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللهُ بِها وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢١) وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٢٢) سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ (٢٤)

واللام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ...﴾

هي الموطئة للقسم ، وتسمى هذه البيعة بيعة الرضوان.

والشجرة : كانت بالحديبية ، وقد جلس صلى‌الله‌عليه‌وسلم تحتها ليبايع أصحابه على الموت أو على عدم الفرار ، فبايعوه على ذلك ـ ما عدا بعض المنافقين ـ ، وقد كان الناس بعد ذلك يترددون على تلك الشجرة ويصلون تحتها ، ويدعون الله ـ تعالى ـ .. فأمر عمر ـ رضى الله عنه ـ قطعها خشية الافتتان بها. أى : والله لقد رضى الله ـ تعالى ـ عن المؤمنين الذين بايعوك ـ أيها الرسول الكريم ـ تحت الشجرة ، على الموت من أجل إعلاء كلمة ربهم.

وفي هذه الجملة أسمى وأعلى ما يتمناه إنسان ، وهو رضا الله ـ تعالى ـ عنه ودخوله في زمرة العباد الذين ظفروا بمغفرته ـ سبحانه ـ ورحمته.

قال الآلوسى ـ رحمه‌الله ـ : والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة هذه المبايعة. وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ متعلق بيبايعونك ... وفي التقييد بذلك إشارة إلى مزيد وقع تلك المبايعة في النفوس. ولذا استوجبت رضا الله ـ تعالى ـ الذي لا يعادله شيء ، ويستتبع مالا يكاد يخطر على البال.

ويكفى فيما ترتب على ذلك ما أخرجه أحمد عن جابر ، ومسلم عن أم بشر ، عنه ، عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم أنه قال : «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة» ..

وصح برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر ، أنه صلى‌الله‌عليه‌وسلم قال لهم

«أنتم خير أهل الأرض ..» [1].

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ بشارة أخرى لهؤلاء المؤمنين الصادقين.

أى : لقد رضى ـ سبحانه ـ عن الذين بايعوك تحت الشجرة ـ أيها الرسول الكريم ـ حيث علم ما في قلوبهم من الصدق والإخلاص وإيثار الآخرة على الأولى ، فأنزل السكينة والطمأنينة والأمان عليهم ، ﴿وَأَثابَهُمْ﴾ أى : وأعطاهم ومنحهم فتحا قريبا ، وهو فتح خيبر ، الذي كان بعد صلح الحديبية بأقل من شهرين.

وقيل المراد به : فتح مكة ، والأول أرجح ، لأن فتح خيبر لم يكن فتح أقرب منه ، ولأن المسلمين قد أصابوا من فتح خيبر غنائم كثيرة.

وقد أشار ـ سبحانه ـ بعد ذلك إلى تلك الغنائم فقال : ﴿وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها ...﴾.

أى : وأثابكم مغانم كثيرة تأخذونها من خيبر. ﴿وَكانَ اللهُ﴾ ـ تعالى ـ وما زال ﴿عَزِيزاً﴾ أى : غالبا ﴿حَكِيماً﴾ في كل أفعاله وأحكامه.

﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها ...﴾ أيها المؤمنون من أعدائكم في مستقبل أيامكم.

وقد صدق الله ـ تعالى ـ وعده معهم ، فلقد غنموا بعد ذلك من بلاد فارس والروم وغيرهما.

والإشارة في قوله ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ﴾ تعود إلى مغانم خيبر ، كما روى عن مجاهد. وعليه يكون المراد بالناس في قوله : ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أهل خيبر وحلفاءهم من بنى أسد وغطفان حين جاءوا لنصرة يهود خيبر ، فألقى الله الخوف في قلوبهم جميعا.

ويرى بعض المفسرين أن الإشارة في قوله : ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ﴾ إلى صلح الحديبية وقد روى ذلك عن ابن عباس.

وعليه يكون المراد بالناس في قوله : ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ مشركي قريش ، أى : منعهم من حربكم ، بأن قذف في قلوبهم الرعب منكم.

ويبدو لنا أن هذا الرأى الذي قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ هو الأقرب إلى الصواب ، لأنه يتسق مع سياق الآيات ، ولأنه يؤكد أن صلح الحديبية كان فتحا ومغنما ، كان فتحا بدليل قول الرسول ﷺ لمن شك في ذلك : «أى والذي نفسي بيده إنه لفتح»

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٠٨.

وكان مغنما لأن المسلمين غنموا من ورائه انتشار الدعوة الإسلامية في آفاق الأرض.

واللام في قوله : ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلقة بمحذوف ، أى فعل ما فعل من التعجيل والكف لتكون تلك النعم والبشارات علامات للمؤمنين على رعاية الله ـ تعالى ـ لهم ، ورضاه عنهم.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ أى : طريقا واضحا قويما ، به تصلون إلى ما تبغونه من عزة وأمان.

وقوله : ﴿وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللهُ بِها ...﴾ معطوف على ﴿هذِهِ﴾.

أى : فعجل لكم هذه المغانم ، وعجل لكم مغانم أخرى ، لم تقدروا على الحصول عليها قبل ذلك لبعدها عن أن تنالها أيديكم. وقد أحاط الله بها لأنه ـ سبحانه ـ لا يعجزه شيء ﴿وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾.

وتختلف الأقوال في هذه المغانم الأخرى فمنهم من يرى أنها فتح مكة ، ومنهم من يرى أنها فتح خيبر. ومنهم من يرى أنها مغانم هوازن وثقيف ، ومنهم من يرى أنها مغانم المسلمين من الفرس والروم.

ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال أولها ، لأنه ترتب على هذا الصلح في الحديبية أن فتحت مكة بعد سنتين منه ، بسبب نقض المشركين له ، وقد تم فتحا بدون قتال يذكر ، بعد أن حدث ما حدث بين المسلمين وبين مشركي مكة من قتال انتصر فيه المسلمون تارة كغزوة بدر ، وانتصر فيه المشركون أخرى كغزوة أحد ...

فالمسلمون لم يقدروا على دخول مكة إلا في عام الفتح ، وبعد أن أحاط الله ـ تعالى ـ بها بقدرته التي لا يغلبها شيء ، وبعد أن استعصت على المسلمين زمنا طويلا ، وقد سلمها ـ سبحانه ـ لهم بأقل أنواع القتال ﴿وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾.

والذي يتأمل في هذه الآيات الكريمة يرى الله ـ تعالى ـ ، قد بشر المسلمين الذين شهدوا صلح الحديبية ببشارات متعددة.

بشرهم ـ أولا ـ برضاه عنهم ـ وهذه أسمى بشارة وأعلاها ..

وبشرهم ـ ثانيا ـ بتفضله عليهم بمنحهم السكينة والطمأنينة التي تجعلهم في ثبات وأمان ..

وبشرهم ـ ثالثا ـ بفتوحات وغنائم منها القريب العاجل ، ومنها الآجل المتحقق ، الذي يكاد لتحققه أن يشاهدوه بأعينهم لأن الله ـ تعالى ـ وعد به ووعده لا يتخلف.

ثم بشرهم ـ رابعا ـ بأنهم هم المنصورون لأن سنته قد اقتضت ذلك ، فقال : ﴿وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ...﴾ وتولية الأدبار كناية عن الهزيمة ، لأن المنهزم يعطى ظهره لمن انتصر عليه. أى : ولو قاتلكم الذين كفروا وأنتم على تلك الحالة من قوة الإيمان ، وصدق العهد ، وإخلاص النية ، وحسن الاستعداد ، ومباشرة الأسباب .. لولوا الأدبار أمامكم ﴿ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يعينهم ﴿وَلا نَصِيراً﴾ لنصرهم.

وقوله ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ..﴾ زيادة في تثبيتهم وفي إدخال السرور على قلوبهم .. ولفظ ﴿سُنَّةَ﴾ منصوب على المصدرية بفعل محذوف. أى : سن الله انتصار أهل الحق على أهل الباطل سنة قديمة وممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿وَلَنْ تَجِدَ﴾ أيها العاقل ـ ﴿لِسُنَّةِ اللهِ﴾ ـ تعالى ـ ﴿تَبْدِيلاً﴾ أو تغييرا أو تحويلا.

وفي هذا المعنى وردت آيات كثيرة ، منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ (١).

ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بنعمة من نعمه التي أنعمها عليهم في رحلتهم هذه التي انتهت بصلح الحديبية فقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ ، بِبَطْنِ مَكَّةَ ، مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ..﴾.

والمراد ببطن مكة : الحديبية ، وسميت بذلك لأنها قريبة من مكة. أى : وهو ـ سبحانه ـ الذي منع المشركين ـ بقدرته وحكمته من مهاجمتكم والاعتداء عليكم ، ومنعكم من مهاجمتهم وقتالهم ، في هذا المكان القريب من مكة ، وكان ذلك بعد أن نصركم عليهم ، وجعلكم أعلى منهم في القوة والحجة والثبات ، وكان ـ سبحانه ـ وما زال ﴿بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾.

وقد ذكروا في هذا الظفر روايات منها ما أخرجه الإمام مسلم وغيره عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية ، هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه. ثمانون رجلا من أهل مكة في السلاح ، من قبل جبل التنعيم ، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم ، فأخذوا فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية» (٢).

فالآية الكريمة تذكير من الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين ، بجانب من نعمه عليهم ، ورحمته بهم. وهو تذكير يتعلق بأمور شاهدوها بأعينهم ، وعاشوا أحداثها ، وعند ما يأتى التذكير بالأمور المشاهدة المحسوسة ، يكون أدعى إلى الشكر لله ـ عزوجل ـ ..

---

(١) سورة الصافات ، الآيات ١٧١ ـ ١٧٣.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٢٢٣ وتفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١١١.

ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بنعمة أخرى من نعمه عليهم ، وكشف لهم عن جانب من حكمته في منع القتال بينهم وبين مشركي مكة ، وفي هدايتهم إلى هذا الصلح فقال :

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (٢٦)

والمراد بالذين كفروا في قوله ـ تعالى ـ : ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ﴾ مشركو قريش ، الذين منعوا النبي صلى الله عليه وسلم من دخول مكة ، ومن الطواف بالبيت الحرام.

والهدى : مصدر بمعنى المفعول ، أى : المهدى ، والمقصود به ما يهدى إلى بيت الله الحرام من الإبل والبقر والغنم ، ليذبح تقربا إلى الله ـ تعالى ـ وكان مع المسلمين في رحلتهم هذه التي تم فيها صلح الحديبية سبعون بدنة ـ على المشهور .. ولفظ الهدى قرأه الجمهور بالنصب عطفا على الضمير المنصوب في قوله : ﴿صَدُّوكُمْ﴾ وقرأه أبو عمرو بالجر عطفا على المسجد ..

وقوله : ﴿مَعْكُوفاً﴾ أى : محبوسا. يقال : عكفه يعكفه عكفا ، إذا حبسه ومنه الاعتكاف في المسجد ، بمعنى الاحتباس فيه ، وهو حال من الهدى.

وقوله : ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ منصوب بنزع الخافض ، أى : عن أن يبلغ محله ، أى : مكانه الذي يذبح فيه وهو منى.

والتعبير بقوله : ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ تصريح بذمهم وتوبيخهم على موقفهم المشين من المؤمنين ، الذين لم يأتوا إلى مكة لحرب ، وإنما أتوا لأداء شعيرة من شعائر الله.

أى : هم في ميزان الله واعتباره الكافرون حقا. لأنهم صدوكم ومنعوكم . أيها المؤمنون . عن دخول المسجد الحرام ، وعن الطواف به ، ولم يكتفوا بذلك ، بل منعوا الهدى المحبوس من أجل ذبحه على سبيل التقرب به إلى الله . تعالى . من الوصول إلى محله الذي يذبح فيه في العادة وهو منى.

قال القرطبي ما ملخصه : «قوله : ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً﴾ أى : محبوسا ..... ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾. أى : منحره .. والمحل . بالكسر . غاية الشيء ، وبالفتح : هو الموضع الذي يحله الناس ، وكان الهدى سبعين بدنة ، ولكن الله . تعالى . بفضله جعل ذلك الموضع . وهو الحديبية . له محلا.

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ...

وفي البخاري عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين ، فحال كفار قريش دون البيت فنحر رسول الله ﷺ بدنة وحلق رأسه ..» [1].

وقوله . تعالى . : ﴿وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ...﴾ بيان لحكمة الله . تعالى . في منع الحرب بين الفريقين.

وجواب «لو لا» محذوف لدلالة الكلام عليه. والمراد بالرجال المؤمنين وبالنساء المؤمنات : سبع رجال وامرأتان كانوا بمكة.

قال الآلوسى : «وكانوا على ما أخرج أبو نعيم بسند جيد وغيره عن أبي جمعة جنبذ بن سبع . تسعة نفر : سبعة رجال . وهو منهم . وامرأتين.

وجملة ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة رجال ونساء على تغليب المذكر على المؤنث.

وقوله ﴿أَنْ تَطَؤُهُمْ﴾ بدل اشتمال من رجال ونساء ، والوطء الدّوس ، والمراد به هنا الإهلاك. وقوله : ﴿مَعَرَّةٌ﴾ أى : مكروه وأذى. يقال : عرّه يعره عرّا ، إذا أصابه بمكروه ، وأصله من العرّ وهو الجرب.

والمراد به هنا : تعيير الكفار للمؤمنين بقولهم : لقد قتلتم من هم على دينكم.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٨٣.

والمعنى : ولو لا كراهة أن تهلكوا ـ أيها المؤمنين ـ أناسا مؤمنين موجودين في مكة بين كفارها ، وأنتم لا تعرفونهم ، فيصيبكم بسبب إهلاكهم مكروه ، لو لا كل ذلك لما كف أيديكم عن كفار مكة ، بل لسلطكم عليهم لكي تقتلوهم.

واللام في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ متعلقة بما يدل عليه جواب لو لا المقدر.

أى : لو لا ذلك لما كف أيديكم عن كفار مكة ، ولكنه ـ سبحانه ـ كف أيديكم عنهم ، ليدخل في رحمته بسبب هذا الكف من يشاء من عباده ، وعلى رأس هؤلاء العباد ، المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا في مكة ، والذين اقتضت رحمته أن يتمم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهراني الكفار ، ويفك أسرهم ، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب ...

كذلك قد شملت رحمته ـ تعالى ـ بعض كفار مكة ، الذين تركوا بعد ذلك الكفر ودخلوا في الإسلام ، كأبى سفيان وغيره من الذين أسلموا بعد فتح مكة أو بعد صلح الحديبية.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ تأكيد لما دل عليه الكلام السابق ، من أن حكمته ـ تعالى ـ قد اقتضت كف أيدى المؤمنين عن الكافرين ، رحمة بالمؤمنين الذين يعيشون في مكة مع هؤلاء الكافرين.

وقوله ﴿تَزَيَّلُوا﴾ أى : تميّزوا. يقال : زلته زيلا ، أى : مزته ، وزيله فتزيل أى : فرقه فتفرق أى : لو تميز هؤلاء المؤمنون والمؤمنات الذين يعيشون في مكة عن كفارها وفارقوهم وخرجوا منها ، وانعزلوا عنهم ، لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ، تارة عن طريق إهلاكهم ، وتارة عن طريق إذلالهم وأخذهم أسرى ، و «من» في قوله ﴿مِنْهُمْ﴾ للبيان لا للتبعيض.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان عليه المشركون من جهالات وحماقات استولت على نفوسهم فقال : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ﴾.

والظرف ﴿إِذْ﴾ منصوب بفعل مقدر. والحمية : الأنفة والتكبر والغرور والتعالي بغير حق. يقال : حمى أنفه من الشيء ـ كرضى ـ إذا غضب منه ، وأعرض عنه.

أى : واذكر ـ أيها العاقل ـ وقت أن تمسك الكافرون وقيدوا أنفسهم بالحمية الباطلة ، التي هي حمية الملّة الجاهلية ، حيث منعوا المسلمين من دخول مكة ، ومن الطواف بالمسجد الحرام ، وحيث منعوا الهدى من أن يبلغ محله ، وحيث أبوا أن يكتب في الصحيفة التي عقدت بينهم وبين المسلمين ، بسم الله الرّحمن الرّحيم ، أو محمد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم ... فهذا كله من حميتهم الجاهلية التي لا أساس لها من علم أو خلق أو دين ....

وقوله : ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ..﴾ معطوف على ما قبله ، للمقابلة بين حال الفريقين ، مقابلة تتجلى فيها رعايته ـ سبحانه ـ للمؤمنين ، وغضبه على الكافرين. أى : هذا هو حال الكافرين ، رسخت الجهالات في قلوبهم حتى صرفتهم عن سبيل الرشد ، أما حال المؤمنين فإنهم قابلوا تصرفات هؤلاء الكافرين بالاحتقار والازدراء ومبايعة رسولهم ﷺ على الموت إذا لزم الأمر ذلك.

فأنزل الله ـ تعالى ـ طمأنينته وسكينته على قلب رسول الله ﷺ وعلى قلوب أصحابه ، حيث لم يجعلهم يقابلون سفاهات المشركين بسفاهات مثلها ...

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى﴾ أى : وجعلهم ملتزمين بما تقتضيه كلمة التقوى ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، من أناة وسكون وثبات ووقار وخلق كريم وإخلاص في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله.

﴿وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها﴾ أى : وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار ، وكانوا أهلا لها دون الكفار ، لأن المؤمنين استجابوا للحق. أما الكافرون فقد أنفوا منه ، وتطاولوا عليه ، بمقتضى حميتهم الجاهلية ... ﴿وَكانَ﴾ ـ سبحانه ـ وما زال ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ لا يخفى عليه أمر ، ولا يغيب عن علمه شيء ، والمتأمل في هذه الآية الكريمة يرى ألوانا من المقابلات التي تدل على مدح الله ـ تعالى ـ للمؤمنين ، وعلى احتقاره للكافرين.

فقد عبر ـ سبحانه ـ في جانب الكافرين بكلمة جعل التي تشعر بأن الكافرين كأنهم قد ألقوا هذه الحمية الجاهلية في قلوبهم إلقاء بدون تعقل أو تدبر ، بينما عبر في جانب المؤمنين بكلمة أنزل التي تشعر كأن السكينة كانت في خزائنه ـ تعالى ـ ثم أنزلها بعد ذلك على قلب رسوله ﷺ وعلى قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيمانا على إيمانهم ..

ونرى الفاعل لجعل هو الذين كفروا ، بينما الفاعل لأنزل هو الله ـ عزّ وجلّ ـ ..

ونرى المفعول لجعل هو الحمية ، وهي كلمة مشتعلة منفرة ، وقد كررها ـ سبحانه ـ ليزداد العقلاء نفورا منها .. ونرى المفعول لأنزل هو السكينة وهي كلمة فيها ما فيها من الوقار والسكون والثبات والطمأنينة.

ونرى الحمية قد أضيفت إلى الجاهلية ، بينما السكينة أضيفت إلى الله ـ تعالى ـ ..

ونرى أن الله ـ تعالى ـ قد أضاف كل ذلك مدحا عظيما لعباده المؤمنين حيث ألزمهم كلمة التقوى ، وجعلهم أحق بها وأهلا لها دون أعدائهم الذين آثروا الغي على الرشد ، والباطل على الحق ... وفي ذلك ما فيه من الثناء على المؤمنين والتحقير للكافرين.

ثم أكد الله ـ تعالى ـ صدق ما شاهده النبي ﷺ في رؤياه ، وبين الحكمة التي من أجلها أرسله إلى الناس كافة فقال ـ تعالى ـ :

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً﴾ (٢٨)

قال الآلوسى ما ملخصه : «رأى رسول الله ﷺ في المنام قبل خروجه إلى الحديبية ، أنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين ، وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا واستبشروا ، وظنوا أنهم سيدخلونها في عامهم هذا ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله ﷺ حق ، فلما تأخر ذلك قال بعض المنافقين ـ على سبيل التشكيك والاعتراض ـ والله ما حلقنا ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام ، فنزلت هذه الآية.

وقد روى عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال نحو ذلك ـ على سبيل الفهم والاستكشاف ـ ليزداد يقينه ...

والصدق يكون بالقول ويكون بالفعل ، وما في الآية صدق بالفعل ، وهو التحقيق ، أى حقق ـ سبحانه ـ للرسول رؤيته ..» [1].

وقوله ﴿بِالْحَقِ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أى : صدقا ملتبسا بالحق ، أو بمحذوف على أنه حال من الرؤيا ، أى : رؤيا ملتبسة بالحق.

والمعنى : والله لقد أرينا رسولنا محمدا ﷺ الرؤيا الصادقة التي لا تتخلف ، ولا يحوم حولها ريب أو شك ، وحققنا له ما اشتملت عليه هذه الرؤيا من بشارات سارة ، وعطايا كريمة ، على حسب ما اقتضته حكمتنا وإرادتنا.

وقوله : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٢٠.

﴿لا تَخافُونَ ..﴾ جواب لقسم محذوف ، وقوله : ﴿آمِنِينَ﴾ وما بعده ، حال من فاعل ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ .. أى : والله لتدخلن ـ أيها المؤمنون ـ المسجد الحرام في عامكم المقبل إن شاء الله ، حالة كونكم آمنين من كل فزع ، وحالة كونكم بعضكم يحلق شعر رأسه كله ، وبعضكم يكتفى بقص جزء منه ، وحالة كونكم لا تخافون أذى المشركين بعد ذلك.

وقوله : ﴿إِنْ شاءَ اللهُ﴾ فيه ما فيه من الإشعار بأن الرؤيا مع صدقها ، تحقيقها موكول إلى مشيئة الله ـ تعالى ـ وإلى قدرته ، لا إلى أحد سواه ، وفيه ما فيه من تعليم الناس وإرشادهم إلى أنهم يجب عليهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه عند إرادتهم لفعل من الأفعال ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ ..﴾.

قال بعض العلماء : «إن الله ـ تعالى ـ استثنى فيما يعلم ، ليستثني الخلق فيما لا يعلمون.

ويرى بعضهم : أن الاستثناء هنا لتحقيق الخبر وتأكيده.

واستدل بعضهم بهذه الآية على أن الحلق غير متعين في النسك ، بل يجزئ عنه التقصير ، إلا أن الحلق أفضل ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «اللهم اغفر للمحلقين» قالوا : يا رسول الله ، والمقصرين ، قال اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يا رسول الله ، والمقصرين ، قال اللهم اغفر للمحلقين .. ثم قال بعد الثالثة : والمقصرين».

واستدل بها ـ أيضا ـ على أن التقصير للرأس دون اللحية ، ودون سائر شعر البدن ، إذ الظاهر أن المراد : ومقصرين شعر رءوسكم» (١).

وقوله : ﴿لا تَخافُونَ﴾ تأكيد وتقرير لقوله ﴿آمِنِينَ﴾ أى : آمنين عند دخولكم مكة للعمرة ولا تخافون بعد إتمامها ، لأن عناية الله ـ تعالى ـ ورعايته معكم ...

وقوله : ﴿فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ بيان للحكمة في تأخير دخولهم مكة عام الحديبية ، وتمكينهم من دخولها في العام الذي يليه.

والجملة الكريمة معطوفة على قوله : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ ...﴾ أى : والله لقد حقق الله ـ تعالى ـ لرسوله رؤياه في دخول مكة ، ولكن في الوقت الذي يشاؤه ويختاره وتقتضيه حكمته ، لأنه ـ تعالى ـ علم ما لم تعلموه أنتم من أن المصلحة في عدم دخولكم مكة في عام صلح الحديبية ، وأن هذا الصلح هو خير لكم من دخولها ، لما يترتب عليه من منافع كثيرة لكم ، وقد جعل ـ سبحانه ـ بفضله وإحسانه ﴿مِنْ دُونِ ذلِكَ﴾ أى : من قبل دخولكم مكة ، وطوافكم بالمسجد الحرام ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ هو فتح خيبر الذي خرجتم منه بالغنائم الوفيرة ، أو فتح

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٢٢.

خيبر ومعه صلح الحديبية ، الذي قال فيه الزهري لا فتح في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية ...

هذا ، وقد بسط الإمام ابن كثير ما أصابه المسلمون بعد صلح الحديبية من خيرات فقال ما ملخصه : «ورجع الرسول ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من السنة السادسة .. ثم خرج في المحرم من السنة السابعة إلى خيبر ، ففتحها الله ـ تعالى ـ عليه ...

فلما كان في ذي القعدة من السنة السابعة ، خرج إلى مكة معتمرا ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة ، وساق معه الهدى ... وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها. فدخلها وبين يديه أصحابه يلبون ، وعبد الله بن رواحه آخذ بزمام ناقة الرسول ﷺ وينشد ويقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله إني شهيد أنه رسوله

وخرج المشركون من مكة لكي لا يروا الرسول ﷺ وأصحابه ، أما النساء والأطفال فقد جلسوا على الطرق ينظرون إلى الرسول ﷺ وإلى المؤمنين ..

ومكث الرسول وأصحابه بمكة ثلاثة أيام اعتمر خلالها هو وأصحابه ، ثم عادوا إلى المدينة» (١).

وهكذا تحققت رؤيا رسول الله ﷺ في الوقت الذي أراده ـ سبحانه ـ ثم بين ـ سبحانه ـ الحكمة من إرساله لنبيه محمد ﷺ فقال : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ..

أى : هو ـ عزّ وجلّ ـ وحده ، الذي أرسل رسوله محمدا ﷺ إرسالا ملتبسا بالهدى ، أى : بالدليل الواضح والبرهان الساطع الذي يهدى للطريق التي هي أقوم ..

وأرسله ـ أيضا ـ بالدين الحق وهو دين الإسلام ، الذي هو خاتم الأديان وأكملها ، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى : من أجل أن يظهره ويعليه على جميع الأديان ، لما فيه من هدايات ، وعبادات ، وآداب ، وأحكام ، وتشريعات ، قد جمعت محاسن الأديان السابقة التي جاء بها الأنبياء ، وأضافت إليها جديدا اقتضته حكمة الله ـ تعالى ـ ورحمته بهذه الأمة التي أرسل رسوله محمدا إليها.

وقد بين ـ سبحانه ـ أن هذا الدين هو المقبول عنده دون سواه ، فقال ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٣٧.

ولقد ظهر هذا الدين فعم المشارق والمغارب ، وسيبقى ـ بإذن الله ـ ظاهرا على الأديان كلها بقوة حجته ، ونصاعة براهينه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والباء في قوله : ﴿وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً﴾ مزيدة لتأكيد هذا الإظهار.

أى : وكفى بشهادة الله ـ تعالى ـ شهادة على حقية هذا الدين ، وعلى هذا الإظهار الذي تكفل الله ـ تعالى ـ به لدين الإسلام.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بهذه الآية التي فيها ما فيها من الثناء على الرسول ﷺ وعلى أصحابه ، الذين رضى عنهم وأرضاهم فقال :

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (٢٩)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ مبتدأ وخبر ، أو ﴿مُحَمَّدٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، و ﴿رَسُولُ اللهِ﴾ بدل أو عطف بيان من الاسم الشريف. أى : هذا الرسول الذي أرسله الله ـ تعالى ـ بالهدى ودين الحق ، هو محمد رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وهم أصحابه ـ وعلى رأسهم من شهد معه صلح الحديبية ، وبايعه تحت الشجرة ـ من صفاتهم أنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ أى : غلاظ عليهم ، وأنهم ﴿رُحَماءُ بَيْنَهُمْ﴾.

أى : أنهم مع إخوانهم المؤمنين يتوادون ويتعاطفون ويتعاونون على البر والتقوى ...

وقوله ـ تعالى ـ ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ فيه أسمى التكريم للرسول ﷺ حيث شهد له ـ سبحانه ـ بهذه الصفة ، وكفى بشهادته ـ عزّ وجلّ ـ شهادة ، وحيث قدم الحديث عنه بأنه أرسله بالهدى ودين الحق ، ثم أخر اسمه الشريف على سبيل التنويه بفضله ، والتشويق إلى اسمه.

وفي وصف أصحابه بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم ، مدح عظيم لهم ، وجمع بين الوصفين على سبيل الاحتراس ، فهم ليسوا أشداء مطلقا ، ولا رحماء مطلقا ، وإنما شدتهم على أعدائهم ، ورحمتهم لإخوانهم في العقيدة ، وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ ، يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ...﴾ [1].

قال صاحب الكشاف : «وعن الحسن أنه قال : «بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم ، أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه ..» [2].

وأسمى من هذا كله في بيان تراحمهم قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ ..﴾.

ثم وصفهم بوصف آخر فقال : ﴿تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً﴾.

أى : تراهم وتشاهدهم ـ أيها العاقل ـ راكعين ساجدين محافظين على الصلاة ولا يريدون من وراء ذلك إلا التقرب إلى الله ـ تعالى ـ والظفر برضاه وثوابه ..

ثم وصفهم بوصف ثالث فقال : ﴿سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ..﴾ أى : علامتهم وهو نور يجعله الله ـ تعالى ـ في وجوههم يوم القيامة ، وحسن سمت يعلو وجوههم وجباههم في الدنيا ، من أثر كثرة سجودهم وطاعتهم لله رب العالمين.

فالمقصود بهذه الجملة بيان أن الوضاءة والإشراق والصفاء .. يعلو وجوههم من كثرة الصلاة والعبادة لله ، وليس المقصود أن هناك علامة معينة ـ كالنكتة التي تكون في الوجه ـ كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان.

واختار ـ سبحانه ـ لفظ السجود ، لأنه يمثل أعلى درجات العبودية والإخلاص لله ـ تعالى ..

قال الآلوسى : «أخرج ابن مردويه بسند حسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : «في قوله ـ تعالى ـ : ﴿سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ النور يوم القيامة».

ثم قال الآلوسى : ولا يبعد أن يكون النور علامة على وجوههم في الدنيا والآخرة ـ للآثار

---

(١) سورة المائدة الآية ٥٤.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٤٦.

السابقة ـ لكنه لما كان في الآخرة أظهر وأتم خصه النبي ﷺ بالذكر ...»[1].

واسم الإشارة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ﴾ يعود إلى جميع أوصافهم الجليلة السابقة. والمثل هو الصفة العجيبة والقصة ذات الشأن. أى: ذلك الذي ذكرناه عن هؤلاء المؤمنين الصادقين من صفات كريمة تجرى مجرى الأمثال، صفتهم في التوراة التي أنزلها الله ـ تعالى ـ على نبيه موسى ـ عليه السلام ـ..

ثم بين ـ سبحانه ـ صفتهم في الإنجيل فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ: كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ..﴾.

وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ معطوف على ما قبله وهو مثلهم في التوراة، والإنجيل: هو الكتاب الذي أنزله الله ـ تعالى ـ على نبيه عيسى ـ عليه السلام ـ..

والشط: فروع الزرع، وهو ما خرج منه وتفرع على شاطئيه. أى: جانبيه. وجمعه: أشطاء، وشطوء، يقال: شطأ الزرع وأشطأ، إذا أخرج فروعه التي تتولد عن الأصل.

وقوله ﴿فَآزَرَهُ﴾ أى: فقوت تلك الفروع أصولها، وآزرتها، وجعلتها مكينة ثابتة في الأرض. وأصله من شد الإزار. تقول: أزّرت فلانا، إذا شددت إزاره عليه. وتقول آزرت البناء ـ بالمد والقصر ـ إذا قويت أساسه وقواعده.

ومنه قوله ـ تعالى ـ حكاية عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي. هارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾.

وقوله: ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أى: فصار الزرع غليظا بعد أن كان رقيقا.

وقوله: ﴿فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ﴾ أى: فاستقام وتكامل على سيقانه التي يعلو عليها.

وقوله: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أى: يعجب الخبراء بالزراعة لقوته وحسن هيئته.

والمعنى: أن صفة المؤمنين في الإنجيل، أنهم كالزرع، يظهر في أول أمره رقيقا ضعيفا متفرقا، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد، وتعجب جودته أصحاب الزراعة، العارفين بها.

فكذلك النبي ﷺ وأصحابه، كانوا في أول الأمر في قلة وضعف، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة، حتى بلغوا ما بلغوا في ذلك.

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٢٥.

وصدق الله إذ يقول : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ، فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ. لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١).

قال صاحب الكشاف : «وهذا مثل ضربه الله ـ تعالى ـ لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم. لأن النبي ﷺ قام وحده ، ثم قواه الله ـ تعالى ـ بمن معه. كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها ، حتى يعجب الزراع» (٢).

وعلى هذا التفسير الذي سرنا عليه يكون وصفهم في التوراة ، هو المعبر عنه بقوله ـ تعالى ـ : ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ..﴾ ويكون وصفهم في الإنجيل هو المعبر عنه بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ...﴾.

ولا شك أن هذه الأوصاف كانت موجودة في الكتابين قبل أن يحرفا ويبدلا ، بل بعض هذه الأوصاف موجودة في الكتابين ، حتى بعد تحريفهما.

فقد أخرج بن جرير وعبد بن حميد عن قتادة قال : «مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ..» (٣).

ويرى بعض المفسرين أن المذكور في التوراة والإنجيل شيء واحد ، وهو الوصف المذكور إلى نهاية قوله : ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ وعلى هذا الرأى يكون الوقف تاما على هذه الجملة ، وما بعدها وهو قوله : ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ..﴾ كلام مستأنف.

قال القرطبي : «قوله ـ تعالى ـ : ﴿ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ..﴾ قال الفراء : فيه وجهان : إن شئت قلت : المعنى : ذلك مثلهم في التوراة وفي الإنجيل أيضا ، كمثلهم في القرآن ، فيكون الوقف على «الإنجيل».

وإن شئت قلت : تمام الكلام : ذلك مثلهم في التوراة. ثم ابتدأ فقال : ومثلهم في الإنجيل.

وكذا قال ابن عباس وغيره : هما مثلان ، أحدهما في التوراة ، والآخر في الإنجيل ...» (٤).

والذي نراه أن ما ذهب إليه ابن عباس من كونهما مثلين ، أحدهما مذكور في التوراة والآخر في الإنجيل ، هو الرأى الراجح ، لأن ظاهر الآية يشهد له.

وفي هذه الصفات ما فيها من رسم صورة مشرقة مضيئة لهؤلاء المؤمنين الصادقين.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٦.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٤٨.

(٣) راجع تفسير سورة الفتح ص ١٦٠ لفضيلة استأذنا الشيخ أحمد الكومى.

(٤) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٩٤.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ تعليل لما يعرب عنه الكلام ، من إيجاده ـ تعالى ـ لهم على هذه الصفات الكريمة.

أى : جعلهم ـ سبحانه ـ كذلك بأن وفقهم لأن يكونوا أشداء على الكفار ، ولأن يكونوا رحماء فيما بينهم ، ولأن يكونوا مواظبين على أداء الطاعات .. لكي يغيظ بهم الكفار ، فيعيشوا وفي قلوبهم حسرة مما يرونه من صفات سامية للمؤمنين.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بهذا الوعد الجميل ، فقال : ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾.

و «من» في قوله ﴿مِنْهُمْ﴾ الراجح أنها للبيان والتفسير ، كما في قوله ـ تعالى ـ ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ ..﴾.

أى : وعد الله ـ تعالى ـ بفضله وإحسانه ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وهم أهل بيعة الرضوان ، ومن كان على شاكلتهم في قوة الإيمان .. وعدهم جميعا مغفرة لذنوبهم ، وأجرا عظيما لا يعلم مقداره إلا هو ـ سبحانه ..

ويجوز أن تكون من هنا للتبعيض ، لكي يخرج من هؤلاء الموعودين بالمغفرة والأجر العظيم أولئك الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر ، وهم المنافقون الذين أبوا مبايعة الرسول ﷺ وأبوا الخروج معه للجهاد ، والذين من صفاتهم أنهم كانوا إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا ، ﴿وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ ..﴾.

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها : وجوب احترام الصحابة وتوقيرهم ، والثناء عليهم ، لأن الله ـ تعالى ـ قد مدحهم ووعدهم بالمغفرة وبالأجر العظيم.

قال القرطبي : «روى أبو عروة الزبيري من ولد الزبير أنه قال : كنا عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك هذه الآية : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ..﴾. فقال مالك : من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية. ثم قال الإمام القرطبي ـ رحمه‌الله ـ : قلت : لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله ، فمن نقص واحدا منهم أو طعن عليه في روايته ، فقد رد على الله رب العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين» .. (١).

وبعد : فهذا تفسير لسورة «الفتح» تلك السورة التي بشرت الرسول ﷺ وأصحابه

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٩٦.

بألوان من البشارات العالية ، وأدبتهم بأنواع من الآداب السامية ، وعرفتهم بأعدائهم من المنافقين والكافرين ، وحكت الكثير من مظاهر فضل الله ـ تعالى ـ ورحمته بعباده المؤمنين ..

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير

سورة الحجرات

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة وتمهيد

١ ـ سورة «الحجرات» من السور المدنية الخالصة ، وعدد آياتها ثماني عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة «المجادلة».

٢ ـ والذي يتدبر هذه السورة الكريمة ، يراها قد اشتملت على أسمى الآداب ، وأبلغ العظات ، وأحكم الهدايات ، فهي تبدأ بنداء للمؤمنين ، تعلمهم فيه ما يجب عليهم نحو خالقهم ـ سبحانه ـ ، ونحو نبيهم ﷺ من أدب.

قال ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ، أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ.﴾.

٣ ـ ثم وجهت إليهم نداء ثالثا أمرتهم من خلاله بالتثبت من صحة الأخبار التي تصل إلى مسامعهم ، وبينت لهم جانبا من مظاهر فضل الله عليهم.

قال ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ. وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ، وَلكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ ، وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ ، أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ. فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٤ ـ ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عما يجب على المؤمنين نحو إخوانهم في العقيدة ، إذا ما دب بينهم نزاع أو قتال ، فأمرت بالإصلاح بينهم ، وبمقاتلة الفئة الباغية إذا ما أبت الصلح ، وأصرت على بغيها ..

قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ ، فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٥ ـ ثم وجهت بعد ذلك إلى المؤمنين نداء رابعا نهتهم فيه عن أن يسخر بعضهم من بعض ،

أو أن يلمز بعضهم بعضا. ونداء خامسا أمرتهم فيه باجتناب الظن السيئ بالغير ، دون أن يكون هناك مبرر لذلك ، ونهتهم عن التجسس وعن الغيبة.

قال ـ تعالى ـ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ، وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ، وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا ، وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

٦ ـ وبعد هذه النداءات المتكررة للمؤمنين ، وجهت نداء إلى الناس جميعا ، بينت لهم فيه أنهم جميعا قد خلقوا من ذكر وأنثى ، وأن أكرمهم عند الله هو أتقاهم وأخشاهم لله ـ تعالى ..

ثم ردت على الأعراب الذين قالوا آمنا دون أن يستقر الإيمان في قلوبهم ووضحت صفات المؤمنين الصادقين ، وأمرت كل مؤمن أن يشكر الله ـ تعالى ـ على نعمة الإيمان.

قال ـ سبحانه ـ : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ ، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾.

٧ ـ وهكذا نجد السورة الكريمة قد رسمت للمؤمنين طريق الحياة السعيدة ، حيث عرفتهم بما يجب عليهم نحو خالقهم ـ سبحانه ـ وبما يجب عليهم نحو نبيهم ﷺ وبما يجب عليهم نحو أنفسهم ، وربما يجب عليهم نحو إخوانهم في العقيدة ، وبما يجب عليهم نحو أفراد المجتمع الإسلامى بصفة عامة.

وقد وضحت لهم كل ذلك بأسلوب بليغ مؤثر ، من شأنه أن يغرس في النفوس الخشوع والطاعة لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الراجي عفو ربه

د. محمد سيد طنطاوى

القاهرة ـ مدينة نصر

١٩ من شهر ربيع الآخر ١٤٠٦ ه‍

٣١ / ١٢ / ١٩٨٥ م

قال الله ـ تعالى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥)

افتتحت سورة «الحجرات» بهذا النداء المحبب إلى القلوب ، ألا وهو الوصف بالإيمان ، الذي من شأن المتصفين به ، أن يمتثلوا لما يأمرهم الله ـ تعالى ـ به ، ويجتنبوا ما ينهاهم عنه.

افتتحت بقوله ـ تعالى ـ ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾.

وقوله ﴿تُقَدِّمُوا﴾ مضارع قدم اللازم بمعنى تقدم ، ومنه مقدمة الجيش ومقدمة الكتاب ـ بكسر الدال فيهما ـ وهو اسم فاعل فيهما بمعنى تقدم.

ويصح أن يكون مضارع قدّم المتعدى ، تقول : قدمت فلانا على فلان ، إذا جعلته متقدما عليه ، وحذف المفعول لقصد التعميم.

وقوله : ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ تشبيه لمن يتعجل في إصدار حكم من أحكام الدين بغير استناد إلى حكم الله ورسوله ، بحالة من يتقدم بين يدي سيده أو رئيسه ، بأن يسير أمامه في الطريق ، أو على يمينه أو شماله. وحقيقة الجلوس بين يدي الشخص : أن يجلس بين الجهتين المقابلتين ليمينه أو شماله قريبا منه أو أمامه.

قال الجمل قوله : ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ جرت هذه العبارة هنا على سنن من المجاز ، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلا ، أى : استعارة تمثيلية ، شبّه تعجل الصحابة في إقدامهم على قطع الحكم في أمر من أمور الدين ، بغير إذن الله ورسوله ، بحالة من تقدم بين يدي متبوعه إذا سار في طريق ، فإنه في العادة مستهجن .. والغرض تصوير كمال الهجنة ، وتقبيح قطع الحكم بغير إذن الله ورسوله.

أو المراد : بين يدي رسول الله ، وذكر لفظ الجلالة على سبيل التعظيم للرسول ﷺ وإشعار بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله [1].

والمعنى : يا من آمنتم بالله ـ تعالى ـ حق الإيمان : احذروا أن تتسرعوا في الأحكام ، فتقولوا قولا ، أو تفعلوا فعلا يتعلق بأمر ديني ، دون أن تستندوا في ذلك إلى الله ـ تعالى ـ وحكم رسوله ﷺ ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ ـ تعالى ـ في كل ما تأتون وتذرون ، إن الله سميع لأقوالكم ، عليم بجميع أحوالكم.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : هذه آداب أدب الله ـ تعالى ـ بها عباده المؤمنين ، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام.

فقال : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾.

أى : لا تسرعوا في الأشياء بين يديه. أى : قبله ، بل كونوا تبعا له في جميع الأمور ، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي ، حديث معاذ ، إذ قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن : «بم تحكم؟ قال بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد؟ قال فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد؟ قال : أجتهد رأيى».

فالغرض منه أنه أخّر رأيه ونظره واجتهاده ، إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٧٤.

البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله [1].

وقال الإمام القرطبي ما ملخصه : قوله : ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى : لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدي الله ، وقول رسوله وفعله ، فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا ..

واختلف في سبب نزول هذه الآية على ستة أقوال منها :

ما ذكره الواحدي من حديث ابن جريج قال : حدثني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أمّر عليهم القعقاع بن معبد. وقال عمر : يا رسول الله ، أمّر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي. وقال عمر ما أردت خلافك ، فتماديا حتى ارتفعت أصواهما ، فنزلت هذه الآية.

وقال قتادة : إن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل فيّ كذا ، فنزلت هذه الآية.

وقال الحسن : نزلت في قوم ذبحوا أضحيتهم قبل أن يصلى النبي ﷺ فأمرهم أن يعيدوا الذبح [2]. وعلى أية حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والمقصود من الآية الكريمة نهى المؤمنين في كل زمان ومكان عن أن يقولوا قولا أو يفعلوا فعلا يتعلق بأمر شرعي ، دون أن يعودوا فيه إلى حكم الله ورسوله.

ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء ثانيا إلى المؤمنين ، أكد فيه وجوب احترامهم للرسول ﷺ فقال : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

قال الآلوسى : هذه الآية شروع في النهى عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ بعد النهى عن التجاوز في نفس القول والفعل. وإعادة النداء مع قرب العهد به ، للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه ، والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه [3].

أى : يا من آمنتم بالله واليوم الآخر .. واظبوا على توقيركم واحترامكم لرسولكم ﷺ ولا ترفعوا أصواتكم فوق صوته عند مخاطبتكم له. ولا تجعلوا أصواتكم مساوية

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٤٥.

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٣٠٠.

(٣) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٣٤.

لصوته ﷺ حين الكلام معه ، ولا تنادوه باسمه مجردا بأن تقولوا له يا محمد ، ولكن قولوا له : يا رسول الله ، أو يا نبي الله.

والكاف في قوله : ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى : ولا تجهروا له بالقول جهرا مثل جهر بعضكم لبعض.

قال القرطبي : وفي هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا ، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفته ، أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة ، وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها (١).

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ بيان لما يترتب على رفع الصوت عند مخاطبته ﷺ من خسران.

والجملة تعليل لما قبلها ، وهي في محل نصب على أنها مفعول لأجله. أى : نهاكم الله ـ تعالى ـ عن رفع أصواتكم فوق صوت النبي ، وعن أن تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، كراهة أو خشية أن يبطل ثواب أعمالكم بسبب ذلك ، وأنتم لا تشعرون بهذا البطلان.

قال ابن كثير : وقوله : ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ أى : إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده ﷺ خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب الله لغضبه ، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدرى. وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ، كما كان يكره في حياته ، لأنه محترم حيا وفي قبره (٢).

ولقد امتثل الصحابة لهذه الإرشادات امتثالا تاما ، فهذا أبو بكر يروى عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخى السرار ـ أى : كالذي يتكلم همسا. وهذا ثابت بن قيس ، كان رفيع الصوت ، فلما نزلت هذه الآية قال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار ، حبط عملي ، وجلس في أهل بيته حزينا ... فلما بلغ النبي ﷺ ما قاله ثابت ، قال لأصحابه : «لا. بل هو من أهل الجنة» (٣).

قال بعض العلماء : وما تضمنته هذه الآية من لزوم توقير النبي ﷺ جاء مبينا في

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٣٠٦.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٤٨.

(٣) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٤٧ والقرطبي ج ١٦ ص ٣٠٤.

آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾.

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله ـ تعالى ـ لم يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم كقوله ـ سبحانه ـ: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ.* يا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾. ﴿يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

مع أنه ـ سبحانه ـ قد نادى غيره من الأنبياء بأسمائهم، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُلْنا يا آدَمُ﴾. وقوله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾.

أما النبي ﷺ فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما ذكر في غير ذلك، كقوله ـ تعالى ـ ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (١).

ثم مدح ـ سبحانه ـ الذين يغضون أصواتهم في حضرة الرسول ﷺ فقال: إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى.

وقوله: ﴿يَغُضُّونَ﴾ بمعنى يخفضون. يقال: غض فلان من صوته ومن طرفه إذا خفضه. وكل شيء كففته عن غيره فقد غضضته.

وقوله: ﴿امْتَحَنَ﴾ أى: اختبر وأخلص، وأصله من امتحان الذهب وإذابته ليخلص جيده من خبيثة، والمراد به هنا: إخلاص القلوب لمراقبة الله وتقواه.

أى: إن الذين يخفضون أصواتهم في حضرة رسول الله ﷺ وعند مخاطبتهم له. أولئك الذين يفعلون ذلك، هم الذين أخلص الله ـ تعالى ـ قلوبهم لتقواه وطاعته، وجعلها خالصة من أى شيء سوى هذه الخشية والطاعة.

قال صاحب الكشاف: «امتحن الله قلوبهم للتقوى» من قولك: امتحن فلان لأمر كذا وجرب له، ودرب للنهوض به، فهو مضطلع به غير وان عنه، والمعنى: أنهم صبروا على التقوى، أقوياء على احتمال مشاقها. أو وضع الامتحان موضع المعرفة، لأن تحقق الشيء باختباره، كما يوضع الخبر موضعها، فكأنه قيل: عرف الله قلوبهم للتقوى (٢).

وقوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بشارة عظيمة من الله ـ تعالى ـ لهم. أى: لهؤلاء الغاضين أصواتهم عند رسول الله ﷺ مغفرة لذنوبهم، وأجر كبير لا يعرف مقداره أحد سوى الله ـ تعالى ـ..

---

(١) تفسير أضواء البيان ج ٧ ص ٦١٦ للشيخ الشنقيطى.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٥٥.

ولقد التزم المسلمون بهذا الأدب في حياة النبي ﷺ وبعد مماته ، فقد سمع عمر بن الخطاب . رضى الله عنه . رجلا يرفع صوته في المسجد النبوي : فقال له : من أين أنت . أيها الرجل .؟ فقال : من الطائف ، فقال له : لو كنت من أهل المدينة لأوجعتك ضربا.

ثم أشار . سبحانه . إلى ما فعله بعض الناس من رفع أصواتهم عند ندائهم للنبي ﷺ فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ ، أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقد ذكروا في سبب نزول هاتين الآيتين أن جماعة من بنى تميم أتوا إلى المدينة في عام الوفود في السنة التاسعة ، فوقفوا بالقرب من منزل النبي ﷺ في ساعة القيلولة وأخذوا يقولون : يا محمد اخرج إلينا .. فكره النبي ﷺ منهم ذلك.

والمراد بالحجرات : حجرات نسائه ﷺ جمع حجرة وهي القطعة من الأرض المحجورة ، أى : المحددة بحدود لا يجوز تخطيها ، ويمنع الدخول فيها إلا بإذن.

أى : إن الذين ينادونك . أيها الرسول الكريم . ﴿مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ﴾.

أى : خلف حجرات أزواجك وخارجها ، أكثرهم لا يجرون على ما تقتضيه العقول السليمة ، والآداب القويمة من مراعاة الاحترام والتوقير لمن يخاطبونه من الناس ، فضلا عن أفضلهم ، وأشرفهم ، وذلك لأنهم من الأعراب الذين لم يحسنوا مخاطبة الناس ، لجفائهم وغلظ طباعهم.

وقال . سبحانه . ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ للإشعار بأن قلة منهم لم تشارك هذه الكثرة في هذا النداء الخارج عن حدود الأدب واللياقة.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وورود الآية على النمط الذي وردت عليه ، فيه ما لا يخفى على الناظر من إكبار للنبي ﷺ وإجلال لمقامه.

ومن ذلك : مجيئها على النظم سجل على الصائحين به السفه والجهل بسبب ما أقدموا عليه. ومن ذلك : التعبير بلفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه ، والمرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي يظهر به موضع الاستنكار عليهم.

ومن ذلك : شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات ، تهوينا للخطب ، وتسلية له ﷺ [1].

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٥٨.

ثم أرشدهم ـ سبحانه ـ إلى السلوك الأفضل فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾.

أى : ولو أن هؤلاء الذين ينادونك ـ أيها الرسول الكريم ـ من وراء الحجرات ، صبروا عليك حتى تخرج إليهم ولم يتعجلوا بندائك بتلك الصورة الخالية من الأدب ، لكان صبرهم خيرا لهم ﴿وَاللَّهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى : واسع المغفرة والرحمة.

قال صاحب الكشاف : يحكى عن أبي عبيد ـ العالم الزاهد الثقة ـ أنه قال : ما دققت باب عالم قط ، حتى يخرج في وقت خروجه.

وقوله : ﴿أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ في موضع رفع على الفاعلية ، لأن المعنى : ولو ثبت صبرهم.

فإن قلت : هل من فرق بين قوله ﴿حَتَّى تَخْرُجَ﴾ وإلى أن تخرج؟

قلت : إن «حتى» مختصة بالغاية المضروبة. تقول : أكلت السمكة حتى رأسها ، ولو قلت : حتى نصفها ، أو صدرها ، لم يجز ، و «إلى» عامة في كل غاية ، فقد أفادت «حتى» بوضعها : أن خروج رسول الله ﷺ إليهم غاية قد ضربت لصبرهم ، فما كان لهم أن يقطعوا أمرا دون الانتهاء إليه.

فإن قلت : فأى فائدة في قوله ﴿إِلَيْهِمْ﴾؟ قلت : فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم ، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أن خروجه إليهم (١).

هذا والمتدبر في هذه الآيات الكريمة ، يراها قد رسمت للمؤمنين أسمى ألوان الأدب في مخاطبتهم لرسول الله ﷺ ، وفي إلزامهم بألا يقولوا قولا أو يفعلوا فعلا ، يتعلق بشأن من شئون دينهم إلا بعد معرفتهم بأن هذا القول أو الفعل يستند إلى حكم شرعي ، شرعه الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ.

كما أنه يراها قد مدحت الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ ، وذمت الذين لا يلتزمون هذا الأدب عند مخاطبته أو ندائه.

ثم وجهت السورة نداء ثالثا إلى المؤمنين أمرتهم فيه بالتثبت من صحة الأخبار التي تصل إليهم ، وأرشدتهم إلى مظاهر فضل الله ـ تعالى ـ عليهم ؛ لكي يواظبوا على شكره ، فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٥٩.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٨)

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما روى عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ قد بعث الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق ليأخذ منهم الصدقات ، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسول رسول الله ﷺ.

فرجع الوليد ـ ظنا منه أنهم يريدون قتله ـ فقال يا رسول الله : إن بنى المصطلق قد منعوا الصدقة ، فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضبا شديدا ، فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا : يا رسول الله ، إنا بلغنا أن رسولك رجع من نصف الطريق ، وإنا خشينا أن ما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فأنزل الله ـ تعالى ـ الآية [1].

والفاسق : هو الخارج عن الحدود الشرعية التي يجب التزامها ، مأخوذ من قولهم : فسقت الرطبة ، إذا خرجت عن قشرتها ، وسمى بذلك لانسلاخه عن الخير والرشد.

وقرأ الجمهور : ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وقرأ حمزة والكسائي فتثبتوا ومعناهما واحد ، إذ هما بمعنى التأنى وعدم التعجل في الأمور حتى تظهر الحقيقة فيما أخبر به الفاسق.

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، إن جاءكم فاسق بخبر من الأخبار ، ولا سيما الأخبار الهامة ، فلا تقبلوه بدون تبين أو تثبت ، بل تأكدوا وتيقنوا من صحته قبل قبوله منه.

والتعبير «بإن» المفيدة للشك ، للإشعار بأن الغالب في المؤمن أن يكون يقظا ، يعرف

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٥٠.

مداخل الأمور ، وما يترتب عليها من نتائج ، ويحكم عقله فيما يسمع من أنباء ، فلا يصدق خبر الفاسق إلا بعد التثبت من صحته.

قال صاحب الكشاف : وفي تنكير الفاسق والنبأ : شياع في الفساق والأنباء ، كأنه قال :

أى فاسق جاءكم بأى نبأ فتوقفوا فيه ، وتطلبوا بيان الأمر ، وانكشاف الحقيقة ولا تعتمدوا على قول الفاسق ، لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه (١).

وقال القرطبي : وفي الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا ، لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق ، ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعا ، لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها (٢).

وقوله : ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ﴾ ... تعليل للأمر بالتبين ، بتقدير لام التعليل ، أو بتقدير ما هو بمعنى المفعول لأجله. والجهالة بمعنى الجهل بحقيقة الشيء.

أى : تثبتوا . أيها المؤمنون . من صحة خبر الفاسق ، لئلا تصيبوا قوما بما يؤذيهم ، والحال أنكم تجهلون حقيقة أمرهم ، أو خشية أن تصيبوا قوما بجهالة ، لظنكم أن النبأ الذي جاء به الفاسق حقا.

وقوله : ﴿فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ﴾ بيان للنتائج السيئة التي تترتب على تصديق خبر الفاسق ، و ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ بمعنى تصيروا ، والندم : غم يلحق الإنسان لأمور وقعت منه ، ثم صار يتمنى بعد فوات الأوان عدم وقوعها. أى : فتصيروا على ما فعلتم مع هؤلاء القوم نادمين ندما شديدا ، بسبب تصديقكم لخبر الفاسق بدون تبين أو تثبت.

فالآية الكريمة ترشد المؤمنين في كل زمان ومكان إلى كيفية استقبال الأخبار استقبالا سليما ، وإلى كيفية التصرف معها تصرفا حكيما ، فتأمرهم بضرورة التثبت من صحة مصدرها ، حتى لا يصاب قوم بما يؤذيهم بسبب تصديق الفاسق في خبره ، بدون تأكد أو تحقق من صحة ما قاله .. وبهذا التحقق من صحة الأخبار ، يعيش المجتمع الإسلامى في أمان واطمئنان ، وفي بعد عن الندم والتحسر على ما صدر منه من أحكام.

ثم أرشد . سبحانه . المؤمنين إلى جانب من نعمه عليهم ، ورحمته بهم فقال : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٦٠.

(٢) راجع تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٣١٢.

والعنت : الوقوع في الأمر الشاق المؤلم ، يقال : عنت فلان ـ بزنة فرح ـ إذا وقع في أمر يؤدى إلى هلاكه أو تعبه أو إيذائه.

ويفهم من الآية الكريمة أن بعض المسلمين ، صدقوا الوليد بن عقبة ، وأشاروا على الرسول ﷺ أن يعجل بعقاب بنى المصطلق.

والمراد بطاعة الرسول ﷺ لهم : أخذه برأيهم ، وتنفيذه لما يريدونه منه.

والمراد بالكثير من الأمر : الكثير من الأخبار والأحكام التي يريدون تنفيذها حتى ولو كانت على غير ما تقتضيه المصلحة والحكمة.

أى : واعلموا ـ أيها المؤمنون ـ أن فيكم رسول الله ﷺ الذي أرسله ـ سبحانه ـ لكي يهديكم إلى الحق وإلى الطريق القويم .. وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ لو يطيعكم في كثير من الأخبار التي يسمعها منكم ، وفي الأحكام التي تحبون تطبيقها عليكم أو على غيركم .. لو يطيعكم في كل ذلك لأصابكم العنت والمشقة ، ولنزل بكم ما قد يؤدى إلى هلاككم وإتلاف أموركم.

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ عطف على ما قبله ، و «أن» بما في حيزها ساد مسد مفعولي «اعلموا» باعتبار ما قيد به من الحال ، وهو قوله : ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.

وتقديم خبر «أنّ» للحصر المستتبع زيادة التوبيخ ، وصيغة المضارع للاستمرار.

و ﴿لَوْ﴾ لامتناع استمرار طاعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهم في كثير مما يعن لهم من الأمور.

وفي الكلام إشعار بأنهم زينوا للرسول ﷺ الإيقاع ببني المصطلق.

وفي هذا التعبير مبالغات منها : إيثار «لو» ليدل على الفرض والتقدير. ومنها : ما في العدول إلى المضارع من تصوير ما كانوا عليه ، وتهجينه. ومنها : ما في التعبير بالعنت من الدلالة على أشد المحذور ، فإنه الكسر بعد الجبر ، والرمز الخفى على أنه ليس بأول بادرة منهم [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ﴾ استدراك على ما يقتضيه الكلام السابق ، وبيان لمظاهر فضله عليهم ورحمته ـ سبحانه ـ بهم. أى : ولكنه ﷺ لا يطيعكم في كل ما يعن لكم ، وإنما يتبين

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٤٨.

الأمور والأخبار ويتثبت من صحتها ثم يحكم ، وقد حبب الله ـ تعالى ـ إلى كثير منكم الإيمان المصحوب بالعمل الصالح والقول الطيب وزينه وحببه في قلوبكم ، وكره وبغض إليكم الكفر والفسوق والعصيان لكل ما أمر به أو نهى عنه.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد أجاد عند تفسير هذه الآية ، فقال ما ملخصه : قوله : ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أى : لوقعتم في العنت والهلاك .. وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا للرسول ﷺ الإيقاع ببني المصطلق ... وأن بعضهم كانوا يتصونون ويزعهم جدهم في التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿وَلكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ﴾ أى إلى بعضكم ، ولكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ، ولمحاته اللطيفة ، التي لا يفطن لها إلا الخواص.

فإن قلت : كيف موقع ﴿لكِنَ﴾ وشريطتها مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيا وإثباتا؟

قلت : هي مفقودة من حيث اللفظ ، حاصلة من حيث المعنى ، لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم المتقدم ذكرهم ، فوقعت لكن في موقعها من الاستدراك [1].

واسم الإشارة في قوله : ﴿أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ يعود إلى المؤمنين الصادقين ، الذين حبب الله ـ تعالى ـ إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم.

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الثابتون على دينهم ، المهتدون إلى طريق الرشد والصواب ، إذ الرشد هو الاستقامة على طريق الحق ، مع الثبات عليه ، والتصلب فيه ، والتمسك به في كل الأحوال.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً ..﴾ تعليل لما منّ به ـ سبحانه ـ عليهم من تزيين الإيمان في قلوبهم. أى : فعل ما فعل من تحبيب الإيمان إليكم ، ومن تبغيض الكفر إلى قلوبكم ، لأجل فضله عليكم ، ورحمته بكم ، وإنعامه عليكم بالنعم التي لا تحصى.

﴿وَاللهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل أفعاله وأقواله وتصرفاته.

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد رسمت للمؤمنين أحكم الطرق في تلقى الأخبار ، وأرشدتهم إلى مظاهر فضله عليهم ، لكي يستمروا على شكرهم له وطاعتهم لرسله.

---

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٦٢.

ثم انتقلت السورة إلى دائرة أوسع وأرحب ، فدعت المؤمنين إلى التدخل بين الطوائف المتنازعة لعقد المصالحة بينها ، وإلى قتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله . تعالى . فقال . سبحانه . :

﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٠)

وقد ذكروا في سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها : ما رواه الإمام أحمد عن أنس قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أبى؟ فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حمارا ، وانطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سبخة ، فلما انطلق إليه . عليه الصلاة والسلام . قال : إليكم عنى ، فو الله لقد آذاني ريح حمارك. فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك.

قال : فغضب لعبد الله رجال من قومه ، وغضب للأنصارى أصحابه. قال : فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى .. فبلغنا أنه أنزلت فيهم ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ...﴾ [(١)].

والخطاب في الآية لأولى الأمر من المسلمين ، والأمر في قوله ﴿فَأَصْلِحُوا﴾ للوجوب ، والطائفة : الجماعة من الناس.

أى : وإن حدث قتال بين طائفتين من المؤمنين ، فعليكم يا أولى الأمر من المؤمنين أن تتدخلوا بينهما بالإصلاح ، عن طريق بذل النصح ، وإزالة أسباب الخلاف.

والتعبير «بإن» للإشعار بأنه لا يصح أن يقع قتال بين المؤمنين ، فإن وقع على سبيل الندرة ، فعلى المسلمين أن يعملوا بكل وسيلة على إزالته.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٥٤.

وجاء «اقتتلوا» بلفظ الجمع ، لأن لفظ الطائفة وإن كان مفردا في اللفظ إلا أنه جمع في المعنى ، فروعى فيه المعنى هنا. وروعي فيه اللفظ في قوله ﴿بَيْنَهُما﴾.

قالوا : والنكتة في ذلك أنهم في حال القتال يكونون مختلطين فلذا جاء الأسلوب بصيغة الجمع ، وفي حال الصلح يكونون متميزين متفرقين فلذا جاء الأسلوب بصيغة التثنية.

ثم بين ـ سبحانه ـ حكمه في حال اعتداء إحداهما على الأخرى فقال : ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ﴾.

والبغي : التعدي وتجاوز الحد والامتناع عن قبول الصلح المؤدى إلى الصواب.

أى : فإن بغت إحدى الطائفتين على الأخرى ، وتجاوزت حدود العدل والحق ، فقاتلوا ـ أيها المؤمنون ـ الفئة الباغية ، حتى تفيء وترجع إلى حكم الله ـ تعالى ـ وأمره ، وحتى تقبل الصلح الذي أمرناكم بأن تقيموه بينهم.

وقوله : ﴿فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه مع الفئة الباغية ، إذا ما قبلت الصلح ورجعت إلى حكم الله ـ تعالى ـ.

أى : فإن رجعت الفئة الباغية عن بغيها ، وقبلت الصلح ، وأقلعت عن القتال ، فأصلحوا بين الطائفتين إصلاحا متسما بالعدل التام وبالقسط الكامل.

وقيد ـ سبحانه ـ الإصلاح بالعدل. ثم أكد ذلك بالأمر بالقسط حتى يلتزم الذين يقومون بالصلح بينهما العدالة التي لا يشوبها أى حيف أو جور على إحدى الطائفتين.

وقوله : ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ تذييل المقصود به حض المؤمنين على التقيد بالعدل في أحكامهم ، لأن الله ـ تعالى ـ يحب من يفعل ذلك.

وقوله : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ..﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله من الأمر بوجوب الإصلاح بين المتخاصمين.

أى : إنما المؤمنون إخوة في الدين والعقيدة ، فهم يجمعهم أصل واحد وهو الإيمان ، كما يجمع الإخوة أصل واحد وهو النسب ، وكما ان أخوة النسب داعية إلى التواصل والتراحم والتناصر في جلب الخير ، ودفع الشر ، فكذلك الأخوة في الدين تدعوكم إلى التعاطف والتصالح ، وإلى تقوى الله وخشيته ، ومتى تصالحتم واتقيتم الله ـ تعالى ـ كنتم أهلا لرحمته ومثوبته.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم خص الاثنان بالذكر دون الجمع في قوله : فأصلحوا بين أخويكم ـ؟

قلت : لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان ، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر ألزم ، لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين (١).

هذا ، وقد أخذ العلماء من هاتين الآيتين جملة من الأحكام منها :

أن الأصل في العلاقة بين المؤمنين أن تقوم على التواصل والتراحم ، لا على التنازع والتخاصم ، وأنه إذا حدث نزاع بين طائفتين من المؤمنين ، فعلى بقية المؤمنين أن يقوموا بواجب الإصلاح بينهما حتى يرجعا إلى حكم الله ـ تعالى ..

قال الشوكاني : إذا تقاتل فريقان من المسلمين ، فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ، ويدعوهم إلى حكم الله فإن حصل بعد ذلك التعدي من إحدى الطائفتين على الأخرى ، ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه ، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه ، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها ، وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة ، حتى تخرج من الظلم ، وتؤدى ما يجب عليها نحو الأخرى (٢).

ثم وجه ـ سبحانه ـ إلى المؤمنين نداء رابعا ، نهاهم فيه عن أن يسخر بعضهم من بعض ، أو أن يعيب بعضهم بعضا فقال :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١)

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت في قوم من بنى تميم ، سخروا من بلال ، وسلمان ، وعمار ، وخباب .. لما رأوا من رثاثة حالهم ، وقلة ذات يدهم.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٦٦.

(٢) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٦٣ للشوكانى.

ومن المعروف بين العلماء ، أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب.

وقوله : ﴿يَسْخَرْ﴾ من السخرية ، وهي احتقار الشخص لغيره بالقول أو بالفعل ، يقال : سخر فلان من فلان ، إذا استهزأ به ، وجعله مثار الضحك ، ومنه قوله ـ تعالى ـ حكاية عن نوح مع قومه : ﴿.. قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ﴾ (١).

قال صاحب الكشاف : والقوم : الرجال خاصة ، لأنهم القوام بأمور النساء .. واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية ، وفي قول الشاعر : أقوم آل حصن أم نساء.

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد : هم الذكور والإناث ، فليس لفظ القوم بمتعاطف للفريقين ، ولكن قصد ذكر الذكور ، وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن (٢).

أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، لا يحتقر بعضكم بعضا ولا يستهزئ بعضكم من بعض.

وقوله : ﴿عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ﴾ تعليل للنهى عن السخرية. أى : عسى أن يكون المسخور منه خيرا عند الله ـ تعالى ـ من الساخر ، إذ أقدار الناس عنده ـ تعالى ـ ليست على حسب المظاهر والأحساب .. وإنما هي على حسب قوة الإيمان ، وحسن العمل.

وقوله : ﴿وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾. معطوف على النهى السابق ، وفي ذكر النساء بعد القوم قرينة على أن المراد بالقوم الرجال خاصة.

أى : عليكم يا معشر الرجال أن تبتعدوا عن احتقار غيركم من الرجال ، وعليكن يا جماعة النساء أن تقلعن إقلاعا تاما عن السخرية من غيركن.

ونكر ـ سبحانه ـ لفظ ﴿قَوْمٌ﴾ و ﴿نِساءٌ﴾ ، للإشعار بأن هذا النهى موجه إلى جميع الرجال والنساء ، لأن هذه السخرية منهى عنها بالنسبة للجميع.

وقد جاء النهى عن السخرية موجها إلى جماعة الرجال والنساء ، جريا على ما كان جاريا في الغالب ، من أن السخرية كانت تقع في المجامع والمحافل ، وكان الكثيرون يشتركون فيها على سبيل التلهي والتلذذ.

ثم قال ـ تعالى ـ ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أى : ولا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة سواء أكان على وجه يضحك أم لا ، وسواء كان بحضرة الملموز أم لا ، فهو أعم من السخرية

---

(١) سورة هود الآية ٣٨.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٦٧.

التي هي احتقار الغير بحضرته ، فالجملة الكريمة من باب عطف العام على الخاص.

يقال : لمز فلان فلانا ، إذا عابه وانتقصه ، وفعله من باب ضرب ونصر.

ومنهم من يرى أن اللمز ما كان سخرية ولكن على وجه الخفية ، وعليه يكون العطف من باب عطف الخاص على العام ، مبالغة في النهى عنه حتى لكأنه جنس آخر.

أى : ولا يعب بعضكم بعضا بأى وجه من وجوه العيب. سواء أكان ذلك في حضور الشخص أم في غير حضوره.

وقال ـ سبحانه ـ ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ مع أن اللامز يلمز غيره ، للإشارة إلى أن من عاب أخاه المسلم ، فكأنما عاب نفسه ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿... فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ ، تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً﴾ (١).

وقوله : ﴿وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ﴾ أى : ولا يخاطب أحدكم غيره بالألفاظ التي يكرهها ، بأن يقول له يا أحمق ، أو يا أعرج ، أو يا منافق .. أو ما يشبه ذلك من الألقاب السيئة التي يكرهها الشخص.

فالتنابز : التعاير والتداعي بالألقاب المكروهة ، يقال : نبزه ينبزه ـ كضربه يضربه ـ إذا ناداه بلقب يكرهه ، سواء أكان هذا اللقب للشخص أم لأبيه أم لأمه أم لغيرهما.

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ﴾ تعليل للنهى عن هذه الرذائل والمراد بالاسم : ما سبق ذكره من السخرية واللمز والتنابز بالألقاب ، والمخصوص بالذم محذوف. أى : بئس الفعل فعلكم أن تذكروا إخوانكم في العقيدة بما يكرهونه وبما يخرجهم عن صفات المؤمنين الصادقين ، بعد أن هداهم الله ـ تعالى ـ وهداكم إلى الإيمان.

وعلى هذا فالمراد من الآية نهى المؤمنين أن ينسبوا إخوانهم في الدين إلى الفسوق بعد اتصافهم بالإيمان.

قال صاحب الكشاف : الاسم هاهنا بمعنى الذّكر ، من قولهم : فلان طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته .. كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين .. أن يذكروا بالفسق (٢).

ويصح أن يكون المراد من الآية الكريمة نهى المؤمنين عن ارتكابهم لهذه الرذائل ، لأن

(١) سورة النور الآية ٦١.

(٢) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٧٠.

ارتكابهم لهذه الرذائل ، يؤدى بهم إلى الفسوق والخروج عن طاعة الله . تعالى . بعد أن اتصفوا بصفة الإيمان.

وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن جرير فقال ما ملخصه : وقوله ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ﴾. يقول . تعالى . : ومن فعل ما نهينا عنه ، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه ، فسخر من المؤمنين ، ولمز أخاه المؤمن ونبزه بالألقاب ، فهو فاسق ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، يقول : فلا تفعلوا فتستحقوا إن فعلتموه. أن تسموا فساقا . بعد أن وصفتهم بصفة الإيمان (١).

وقال الإمام الفخر الرازي ما ملخصه : هذا أى قوله . تعالى . ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ﴾ من تمام الزجر كأنه . تعالى . يقول : يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا فإن من يفعل ذلك يفسق بعد إيمانه ، والمؤمن يقبح منه أن يأتى بعد إيمانه بفسوق .. ويصير التقدير : بئس الفسوق بعد الإيمان (٢).

ويبدو لنا أن هذا الرأى أنسب للسياق ، إذ المقصود من الآية الكريمة نهى المؤمنين عن السخرية أو اللمز أو التنابز بالألقاب ، لأن تعودهم على ذلك يؤدى بهم إلى الفسوق عن طاعة الله . تعالى . والخروج عن آدابه ، وبئس الوصف وصفهم بذلك أى : بالفسق بعد الإيمان.

ثم ختم . سبحانه . الآية بقوله : ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى : ومن لم يتب عن ارتكاب هذه الرذائل ، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ، حيث وضعوا العصيان موضع الطاعة ، والفسوق في موضع الإيمان.

هذا ، ومن الإحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآية : وجوب الابتعاد عن أن يعيب المسلم أخاه المسلم ، أو يحتقره ، أو يناديه بلقب سيئ.

قال الآلوسى : اتفق العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره ، سواء كان صفة له أم لأبيه أم لأمه أم لغيرهما. (٣) ويستثنى من ذلك نداء الرجل بلقب قبيح في نفسه ، لا على قصد الاستخفاف به ، كما إذا دعت له الضرورة لتوقف معرفته ، كقول المحدثين : سليمان الأعمش ، وواصل الأحدب

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٢٦ ص ٨٥.

(٢) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٥٧٧.

(٣) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٥٤.

ثم وجه ـ سبحانه ـ إلى عباده المؤمنين نداء خامسا ، نهاهم فيه عن أن يظن بعضهم ببعض ظنا سيئا بدون مبرر ، كما نهاهم عن التجسس وعن الغيبة ، حتى تبقى للمسلم حرمته وكرامته .. فقال ـ تعالى ـ ..

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢)

وقوله ـ تعالى ـ ﴿اجْتَنِبُوا﴾ من الاجتناب يقال : اجتنب فلان فلانا إذا ابتعد عنه ، حتى لكأنه في جانب والآخر في جانب مقابل.

والمراد بالظن المنهي عنه هنا : الظن السيئ بأهل الخير والصلاح بدون دليل أو برهان.

قال بعض العلماء ما ملخصه : والظن أنواع : منه ما هو واجب ، ومنه ما هو محرم ، ومنه ما هو مباح.

فالمحرم : كسوء الظن بالمسلم المستور الحال ، الظاهر العدالة ، ففي الحديث الشريف : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ..» وفي حديث آخر : «إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء».

وقلنا : كسوء الظن بالمسلم المستور الحال ... لأن من يجاهر بارتكاب الخبائث .. لا يحرم سوء الظن به ، لأن من عرض نفسه للتهم كان أهلا لسوء الظن به.

والظن الواجب يكون فيما تعبدنا الله ـ تعالى ـ بعلمه ، ولم ينصب عليه دليلا قاطعا ، فهنا يجب الظن للوصول إلى المعرفة الصحيحة ، كقبول شهادة العدل ، وتحرى القبلة ..

والظن المباح مثلوا له بالشك في الصلاة حين استواء الطرفين ...

وحرمة سوء الظن بالناس ، إنما تكون إذا كان لسوء الظن أثر يتعدى إلى الغير ، وأما أن تظن شرا لتتقيه ، ولا يتعدى أثر ذلك إلى الغير فذلك محمود غير مذموم ، وهو محمل ما ورد

من أن «من الحزم سوء الظن ..» [1].

أى : يا من آمنتم بالله . تعالى . إيمانا حقا ، ابتعدوا ابتعادا تاما عن الظنون السيئة بأهل الخير من المؤمنين ، لأن هذه الظنون السيئة التي لا تستند إلى دليل أو أمارة صحيحة إنما هي مجرد تهم ، تؤدى إلى تولد الشكوك والمفاسد .. فيما بينكم ..

وجاء . سبحانه . بلفظ «كثيرا» منكرا لكي يحتاط المسلم في ظنونه ، فيبتعد عما هو محرم منها ، ولا يقدم إلا على ما هو واجب أو مباح منها . كما سبق أن أشرنا ..

وقوله . سبحانه . : ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تعليل للأمر باجتناب الظن. والإثم : الذنب الذي يستحق فاعله العقوبة عليه. يقال : أثم فلان . كعلم . يأثم إثما فهو آثم إذا ارتكب ذنبا. والمراد بهذا البعض المذموم من الظن ما عبر عنه . سبحانه . قبل ذلك بقوله : ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِ﴾.

أى : إن الكثير من الظنون يؤدى بكم إلى الوقوع في الذنوب والآثام فابتعدوا عنه.

قال ابن كثير : ينهى الله عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله ، لأن بعض ذلك يكون إثما محضا ، فليجتنب كثيرا منه احتياطا .. عن حارثة بن النعمان قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاث لازمات لأمتى : «الطيرة والحسد وسوء الظن» : فقال رجل : ما الذي يذهبن يا رسول الله من هن فيه؟ قال : «إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض» [2].

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى بعض إخوانى من أصحاب رسول الله ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه ، ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها في الخير محملا ، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه ... [3].

وقوله . سبحانه . : ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ أى : خذوا ما ظهر من أحوال الناس ولا تبحثوا عن بواطنهم أو أسرارهم. أو عوراتهم ومعايبهم ، فإن من تتبع عورات الناس فضحه الله . تعالى ..

---

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ٩٢ لفضيلة الشيخ محمد على السائس.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٥٧.

(٣) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٥٦.

فالتجسس مأخوذ من الجس ، وهو البحث عما خفى من أمور الناس ، وقرأ الحسن وأبو رجاء : ولا تحسسوا من الحس ، وهما بمعنى واحد. وقيل هما متغايران التجسس ـ بالجيم ـ معرفة الظاهر ، وأن التحسس ـ بالحاء ـ تتبع البواطن وقيل بالعكس ..

وعلى أية حال فالمراد هنا من التجسس والتحسس : النهى عن تتبع عورات المسلمين ، أخرج أبو داود وغيره عن أبى برزة الأسلمى قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه. لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين ، فضحه الله ـ تعالى ـ في قعر بيته».

وعن معاوية بن أبى سفيان قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» (١).

ثم نهى ـ سبحانه ـ بعد ذلك عن الغيبة فقال : (وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً) والغيبة ـ بكسر الغين ـ أن تذكر غيرك في غيابه بما يسوءه يقال : اغتاب فلان فلانا ، إذا ذكره بسوء في غيبته ، سواء أكان هذا الذكر بصريح اللفظ أم بالكناية ، أم بالإشارة ، أم بغير ذلك.

روى أبو داود وغيره عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : ذكرك أخاك بما يكره. قيل : أرأيت إن كان في أخى ما أقول؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه (٢).

ثم ساق ـ سبحانه ـ تشبيها ينفر من الغيبة أكمل تنفير فقال : (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ). والاستفهام للتقرير لأنه من الأمور المسلمة أن كل إنسان يكره أكل لحم أخيه حيا ، فضلا عن أكله ميتا.

والضمير في قوله : (فَكَرِهْتُمُوهُ) يعود على الأكل المفهوم من قوله (يَأْكُلَ) و (مَيْتاً) حال من اللحم أو من الأخ.

أى : اجتنبوا أن تذكروا غيركم بسوء في غيبته ، فإن مثل من يغتاب أخاه المسلم كمثل من يأكل لحمه وهو ميت ، ولا شك أن كل عاقل يكره ذلك وينفر منه أشد النفور.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة : قوله ـ تعالى ـ : (أَيُحِبُ

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٥٧.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٥٩.

﴿أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ ..﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض غيره على أفظع وجه وأفحشه.

وفيه مبالغات شتى : منها الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها : جعل ما هو الغاية في الكراهة موصولا بالمحبة ، ومنها : إسناد الفعل إلى أحدكم ، والإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها : أنه ـ سبحانه ـ لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، وإنما جعله أخا ، ومنها : أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ وإنما جعله ميتا ..

وانتصب «ميتا» على الحال من اللحم أو من الأخ ... وقوله : ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فيه معنى الشرط. أى : إن صح هذا فقد كرهتموه ـ فلا تفعلوه ـ وهي الفاء الفصيحة [1].

والحق أن المتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد نفرت من الغيبة بأبلغ أسلوب وأحكمه ، لأنها من الكبائر والقبائح التي تؤدى إلى تمزق شمل المسلمين ، وإيقاد نار الكراهية في الصدور.

قال الآلوسى ما ملخصه : وقد أخرج العلماء أشياء لا يكون لها حكم الغيبة ، وتنحصر في ستة أسباب :

الأول : التظلم ، إذ من حق المظلوم أن يشكو ظالمه إلى من تتوسم فيه إزالة هذا الظلم.

الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته.

الثالث : الاستفتاء ، إذ يجوز للمستفتى أن يقول للمفتي : ظلمني فلان بكذا ..

الرابع : تحذير المسلمين من الشر ، كتجريح الشهود والرواة والمتصدين للإفتاء بغير علم.

الخامس : المجاهرون بالمعاصي وبارتكاب المنكرات ، فإنه يجوز ذكرهم بما تجاهروا به ..

السادس : التعريف باللقب الذي لا يقصد به الإساءة كالأعمش والأعرج [2].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بدعوة المؤمنين إلى التوبة والإنابة فقال : ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾. أى : واتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما أمركم ـ سبحانه ـ باجتنابه ، إن الله ـ تعالى ـ كثير القبول لتوبة عباده ، الذين يتوبون من قريب ، ويرجعون إلى طاعته رجوعا مصحوبا بالندم على ما فرط منهم من ذنوب ، ومقرونا بالعزم على عدم العودة إلى تلك الذنوب لا في الحال ولا في الاستقبال ، ومستوفيا لكل ما تستلزمه التوبة الصادقة من شروط.

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٧٣.

(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٦١.

وهو ـ أيضا ـ واسع الرحمة لعباده المؤمنين ، المستقيمين على أمره.

وبذلك نرى هذه الآية الكريمة قد نهت المسلمين عن رذائل ، يؤدى تركها إلى سعادتهم ونجاحهم ، وفتحت لهم باب التوبة لكي يقلع عنها من وقع فيها ..

وبعد هذه النداءات الخمسة للمؤمنين ، التي اشتملت على الآداب النفسية والاجتماعية ..

وجه ـ سبحانه ـ نداء إلى الناس جميعا ، ذكرهم فيه بأصلهم وبميزان قبولهم عنده ، فقال ـ سبحانه ـ :

(يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (١٣)

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا امرأة منهم لأبى هند ـ وكان حجاما للنبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم فقالوا : يا رسول الله ، نزوج بناتنا ـ موالينا ـ أى : عبيدنا ، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية [١].

والمراد بالذكر والأنثى : آدم وحواء. أى : خلقناكم جميعا من أب واحد ومن أم واحدة ، فأنتم جميعا تنتسبون إلى أصل واحد ، ويجمعكم وعاء واحد ، وما دام الأمر كذلك فلا وجه للتفاخر بالأحساب والأنساب.

قال الآلوسى : أى خلقناكم من آدم وحواء ، فالكل سواء في ذلك ، فلا وجه للتفاخر بالنسب ، كما قال الشاعر :

الناس في عالم التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء

وجوز أن يكون المراد هنا : إنا خلقنا كل واحد منكم من أب وأم ، ويبعده عدم ظهور ترتب ذم التفاخر بالنسب عليه ، والكلام مساق له .. [٢].

وقوله : (وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا ....) بيان لما ترتب على خلقهم على تلك الصورة ، وللحكمة من ذلك.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٣٤٠.

(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٦١.

والشعوب : جمع شعب ، وهو العدد الكثير من الناس يجمعهم ـ في الغالب أصل واحد.

والقبائل : جمع قبيلة وتمثل جزءا من الشعب ، إذ أن الشعب مجموعة من القبائل.

قال صاحب الكشاف : والشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب.

وهي : الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة .. وسميت الشعوب بذلك ، لأن قبائل تشعبت منها .. [1].

والمعنى : خلقناكم ـ أيها الناس ـ من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل ﴿لِتَعارَفُوا﴾ أى : ليعرف بعضكم نسب بعض ، فينتسب كل فرد إلى آبائه ، ولتتواصلوا فيما بينكم وتتعاونوا على البر والتقوى ، لا ليتفاخر بعضكم على بعض بحسبه أو نسبه أو جاهه.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ تعليل لما يدل عليه الكلام من النهى عن التفاخر بالأنساب.

أى : إن أرفعكم منزلة عند الله ، وأعلاكم عنده ـ سبحانه ـ درجة .. هو أكثركم تقوى وخشية منه ـ تعالى ـ فإن أردتم الفخر ففاخروا بالتقوى وبالعمل الصالح.

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ بكل أحوالكم ﴿خَبِيرٌ﴾ بما ترونه وتعلنونه من أقوال وأفعال.

وقد ساق الإمام ابن كثير ـ رحمه‌الله ـ عند تفسيره لهذه الآية. جملة من الأحاديث التي تنهى عن التفاخر ، وتحض على التقوى ، فقال : فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهي طاعة الله ورسوله ..

روى البخاري ـ بسنده ـ عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم أى الناس أكرم؟ قال : «أكرمهم أتقاهم قالوا : ليس عن هذا نسألك قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن خليل الله ، قالوا : ليس عن هذا نسألك. قال : فعن معادن العرب تسألونى؟ قالوا : نعم. قال : فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

وروى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم خطب الناس يوم فتح مكة فقال : «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبيّة الجاهلية ـ أى تكبرها ، وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل يرتقى كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله. إن الله ـ تعالى ـ

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٧٤.

يقول : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى ..﴾ ثم قال : «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم» (١).

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بالرد على الأعراب الذين قالوا آمنا ، دون أن يدركوا حقيقة الإيمان ، وبين من هم المؤمنون الصادقون.

فقال ـ تعالى ـ :

﴿قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ (١٨)

والأعراب : اسم جنس لبدو العرب ، واحده أعرابى ، وهم الذين يسكنون البادية.

والمراد بهم هنا جماعة منهم لا كلهم ، لأن منهم ، ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ ، أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ (٢).

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٦٦.

(٢) سورة التوبة الآية ٩٩.

قال الآلوسي : قال مجاهد : نزلت هذه الآيات في بني أسد ، وهم قبيلة كانت تسكن بجوار المدينة ، أظهروا الإسلام ، وقلوبهم دغلة ، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا .. ويروى أنهم قدموا المدينة في سنة مجدبة ، فأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : جئناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان .. يمنون بذلك على النبي ﷺ [(١)].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ من الإيمان ، وهو التصديق القلبي ، والإذعان النفسي والعمل بما يقتضيه هذا الإيمان من طاعة لله ـ تعالى ـ ولرسوله ﷺ.

وقوله : ﴿أَسْلَمْنَا﴾ من الإسلام بمعنى الاستسلام والانقياد الظاهري بالجوارح ، دون أن يخالط الإيمان شغاف قلوبهم. أى : قالت الأعراب لك ـ أيها الرسول الكريم ـ آمنا وصدقنا بقلوبنا لكل ما جئت به ، وامتثلنا لما تأمرنا به وتنهانا عنه.

قل لهم ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ أى : لم تصدقوا تصديقا صحيحا عن اعتقاد قلب وخلوص نية .. ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أى : ولكن قولوا نطقنا بكلمة الإسلام ، واستسلمنا لما تدعونا إليه استسلاما ظاهريا طمعا في الغنائم ، أو خوفا من القتل.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه قوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال : قل لا تقولوا آمنا ، ولكن قولوا أسلمنا ...

قلت : أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولا ، ودفع ما انتحلوه ، فقيل : قل لم تؤمنوا ، وروعي في هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرح بلفظه ، حيث لم يقل : كذبتم ، ووضع ، «لم تؤمنوا» الذي هو نفى ما ادعوا إثباته موضعه ..

واستغنى بالجملة التي هي «لم تؤمنوا» عن أن يقال : لا تقولوا آمنا ، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهى عن القول بالإيمان .. [(٢)].

وقوله : ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ جملة حالية من ضمير ، «قولوا» و «لما» لفظ يفيد توقع حصول الشيء الذي لم يتم حصوله.

أى : قولوا أسلمنا والحال أنه لم يستقر الإيمان في قلوبكم بعد ، فإنه لو استقر في قلوبكم لما سلكتم هذا المسلك ، ولما مننتم على الرسول ﷺ بإسلامكم.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد استفيد من هذه الآية الكريمة : أن الإيمان أخص من

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٧٦.

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٧٦.

الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل ، حين سأل عن الإسلام. ثم عن الإيمان .. فترقى من الأعم إلى الأخص.

كما يدل على ذلك حديث الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص ، أن الرسول ﷺ أعطى رجلا ولم يعط آخر. فقال سعد : يا رسول الله ، مالك عن فلان إني لأراه مؤمنا ، فقال : «أو مسلما» ..

فقد فرق ﷺ بين المؤمن والمسلم. فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام.

كما دل هنا عن أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ، إنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم. فادعوا لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا إليه ، فأدبوا بذلك .. [1].

ثم أرشدهم ـ سبحانه ـ إلى ما يكمل إيمانهم فقال : ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ومعنى : «لا يلتكم» لا ينقصكم. يقال : لات فلان فلانا حقه ـ كباع ـ إذا نقصه.

أى : وإن تطيعوا الله ـ تعالى ـ ورسوله ، بأن تخلصوا العبادة ، وتتركوا المن والطمع ، لا ينقصكم ـ سبحانه ـ من أجور أعمالكم شيئا ، إن الله ـ تعالى ـ واسع المغفرة والرحمة لعباده التائبين توبة صادقة نصوحا.

ثم بين ـ سبحانه ـ صفات عباده المؤمنين الصادقين فقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

أى : إنما المؤمنون حق الإيمان وأكمله ، هم الذين آمنوا بالله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا﴾ أى : لم يدخل قلوبهم شيء من الريبة أو الشك فيما أخبرهم به نبيهم ﷺ.

وأتى ـ سبحانه ـ بثم التي للتراخي ، للتنبيه على أن نفى الريب عنهم ليس مقصورا على وقت إيمانهم فقط ، بل هو مستمر بعد ذلك إلى نهاية آجالهم ، فكأنه ـ سبحانه ـ يقول : إنهم آمنوا عن يقين ، واستمر معهم هذا اليقين إلى النهاية.

ثم أتبع ذلك ببيان الثمار الطيبة التي ترتبت على هذا الإيمان الصادق فقال : ﴿وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾.

أى : وبذلوا من أجل إعلاء كلمة الله ـ تعالى ـ ، ومن أجل دينه أموالهم وأنفسهم.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٦٨.

قال الآلوسى : وتقديم الأموال على الأنفس من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى. ويجوز بأن يقال : قدم الأموال لحرص الكثيرين عليها ، حتى إنهم يهلكون أنفسهم بسببها .. [1] ﴿أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أى : أولئك الذين فعلوا ذلك هم الصادقون في إيمانهم.

ثم أمر ـ سبحانه ـ رسوله ﷺ أن يخبرهم بأن الله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه شيء من أحوالهم فقال : ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ﴾.

وقوله : ﴿أَتُعَلِّمُونَ﴾ من الإعلام بمعنى الإخبار ، فلذا تعدى بالتضعيف لواحد بنفسه ، وإلى الثاني بحرف الجر. أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الأعراب على سبيل التوبيخ : أتخبرون الله ـ تعالى ـ بما أنتم عليه من دين وتصديق حيث قلتم آمنا ، على سبيل التفاخر والتباهي .. والحال أن الله ـ تعالى ـ ﴿يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ دون أن يخفى عليه شيء من أحوال المخلوقات الكائنة فيهما.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مقرر لما قبله ومؤكد له.

ثم أشار ـ تعالى ـ إلى نوع آخر من جفائهم وقلة إدراكهم فقال : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ...﴾.

والمن : تعداد النعم على الغير ، وهو مذموم من الخلق ، محمود من الله ـ تعالى ـ أى : هؤلاء الأعراب يعدون إيمانهم بك منة عليك ، ونعمة أسدوها إليك حيث قالوا لك : جئناك بالأموال والعيال. وقاتلك الناس ولم نقاتلك ..

وقوله : ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾ في موضع المفعول لقوله : ﴿يَمُنُّونَ﴾ لتضمينه معنى الاعتداد ، أو هو بتقدير حرف الجر فيكون المصدر منصوبا بنزع الخافض أو مجرورا بالحرف المقدر. أى : يمنون عليك بإسلامهم ..

ثم أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ أن يرد عليهم بما يدل على غفلتهم فقال : ﴿قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ ...﴾.

أى : قل لهم لا تتفاخروا عليّ بسبب إسلامكم ، لأن ثمرة هذا الإسلام يعود نفعها عليكم لا عليّ.

ثم بيّن ـ سبحانه ـ أن المنة له وحده فقال : ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ ...﴾.

---

(1) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٦٩.

أى : قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ ليس الأمر كما زعمتم من أن إسلامكم يعتبر منه عليّ ، بل الحق أن الله ـ تعالى ـ هو الذي يمن عليكم أن أرشدكم إلى الإيمان ، وهداكم إليه ، وبين لكم طريقه ، فادعيتم أنكم آمنتم مع أنكم لم تؤمنوا ولكنكم أسلمتم فقط.

قال صاحب الكشاف : وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة ، وذلك أن الكائن من الأعاريب قد سماه الله إسلاما ، ونفى أن يكون ـ كما زعموا ـ إيمانا فلما منّوا على الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم بما كان منهم ، قال الله ـ تعالى ـ لرسوله : إن هؤلاء يعتدون عليك بما ليس جديرا بالاعتداد به ..

ثم قال : بل الله يعتد عليكم أن أمدكم بتوفيقه ، حيث هداكم للإيمان ـ على ما زعمتم ـ وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ، ووفقتم له إن صح زعمكم ، وصدقت دعواكم .. وفي إضافة الإسلام عليهم ، وإيراد الإيمان غير مضاف ، ما لا يخفى على المتأمل ... [1].

وجواب الشرط في قوله : (إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) محذوف ، يدل عليه ما قبله. أى : إن كنتم صادقين في إيمانكم فاعتقدوا ، أن المنة إنما هي لله ـ تعالى ـ عليكم ، حيث أرشدكم إلى الطريق الموصل إلى الإيمان الحق.

وشبيه في المعنى بهذه الآية قول الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم للأنصار في إحدى خطبه : «يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟» وكان صلى‌الله‌عليه‌وسلم كلما قال شيئا ، قالوا : الله ورسوله أمنّ.

والحق أن هداية الله ـ تعالى ـ لعبده إلى الإيمان تعتبر منة منه ـ سبحانه ـ لا تدانيها منة ، ونعمة لا تقاربها نعمة ، وعطاء ساميا جليلا منه ـ تعالى ـ لا يساميه عطاء فله ـ عزوجل ـ الشكر الذي لا تحصيه عبارة على هذه النعمة ، ونسأله ـ تعالى ـ أن يديمها علينا حتى نلقاه.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بقوله : (إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ...) أى : إنه ـ تعالى ـ يعلم ما خفى وغاب عن عقول الناس من أحوال السموات والأرض (وَاللهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ) ـ أيها الناس ـ لا يعزب عنه شيء من أقوالكم أو أفعالكم.

وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة «الحجرات» تلك السورة التي رسمت للناس معالم عالم

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٧٨.

كريم ، تشع فيه الآداب السامية ، والأخلاق العالية ، والقيم الجليلة ، وتختفى فيه ما يتعارض مع هذه المعاني كالحقد والغيبة والتقاتل والتفاخر بالأحساب والأنساب.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل القرآن ربيع نفوسنا ، وأنس قلوبنا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير

سورة ق

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدمة وتمهيد

١ ـ سورة «ق» هي السورة الخمسون في ترتيب المصحف ، أما ترتيبها في النزول فكان بعد سورة «المرسلات».

ويبدو أن نزولها كان في أوائل العهد المكي ، إذ من يراجع ترتيب السور على حسب النزول يرى أنها لم يسبقها سوى اثنتين وثلاثين سورة ، ومعظم السور التي سبقتها كانت من الجزء الأخير من القرآن الكريم (١).

وهي من السور المكية الخالصة ، وعدد آياتها خمس وأربعون آية ، وتسمى ـ أيضا ـ بسورة «الباسقات».

٢ ـ وقد ذكر الإمام ابن كثير في مقدمة تفسيره لها جملة من الأحاديث في فضلها ، منها ما رواه مسلم وأهل السنن ، عن أبي واقد الليثي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيد بسورة «ق» وبسورة (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ...).

وروى الإمام أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت : ما أخذت (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) إلا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقرؤها كل يوم جمعة إذا خطب الناس.

ثم قال ابن كثير : والقصد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار ، كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور ، والمعاد والقيام ، والحساب ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والترغيب والترهيب .. (٢).

٣ ـ والحق ، أن المتأمل في هذه السورة الكريمة يراها قد اشتملت على ما ذكره الإمام ابن كثير ، بأسلوب بليغ بديع.

فهي تبدأ بالثناء على القرآن الكريم ، ثم تذكر دعاوى المشركين وترد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ثم توبخهم على عدم تفكرهم في أحوال هذا الكون الزاخر بالآيات والكائنات الدالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته.

---

(١) راجع الإتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ للإمام السيوطي.

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٧٠.

قال . تعالى . : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ ، كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها ، وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ. وَالْأَرْضَ مَدَدْناها ، وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ ، وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

٤ . ثم تذكرهم . أيضا . بسوء عاقبة المكذبين من قبلهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وقوم فرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة ..

ثم تتبع ذلك بتذكيرهم بعلم الله . تعالى . الشامل لكل شيء ، وبسكرات الموت وما يتبعها من بعث وحساب ، وثواب وعقاب ..

قال . تعالى . : ﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ، وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ. لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا ، فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ ، فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

٥ . ثم تختتم السورة الكريمة ، بتسلية الرسول ﷺ عما أصابه من قومه ، وترشده إلى العلاج الذي يعينه على مداومة الصبر ، كما تحكى له أحوالهم يوم القيامة ليزداد يقينا على يقينه ، وتأمره بالمواظبة على تبليغهم ، بما أمره الله . تعالى . بتبليغه.

لنستمع إلى قوله . تعالى . : ﴿فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ. وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ ، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ، ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ. إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ. يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ. نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾.

وهكذا تطوف بنا السورة الكريمة في أعماق هذا الكون ، وفي أعماق النفس الإنسانية ، منذ ولادتها ، إلى بعثها ، إلى حسابها ، إلى جزائها .. وذلك كله بأسلوب مؤثر بديع ، يشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

القاهرة . مدينة نصر

٦ من جمادى الأولى ١٤٠٦ ه‍ . ١٧ / ١ / ١٩٨٦ م

د. محمد سيد طنطاوى

قال الله ـ تعالى ـ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (١١)

سورة «ق» من السور القرآنية ، التي افتتحت ببعض حروف التهجي ، وأقرب الأقوال إلى الصواب في معنى هذه الحروف ، أنها جيء بها على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن. فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لهؤلاء المعارضين في أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي

من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم.

فإن كنتم في شك في كونه منزلا من عند الله ـ تعالى ـ فهاتوا مثله ، أو عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله.

فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله ـ سبحانه ..

وهذا الرأى وهو كون «ق» من الحروف الهجائية ، هو الذي نطمئن إليه ، وهناك أقوال أخرى في معنى هذا الحرف ، تركناها لضعفها كقول بعضهم إن «ق» اسم جبل محيط بجميع الأرض .. وهي أقوال لم يقم دليل نقلي أو عقلي على صحتها.

قال ابن كثير : وقد روى عن بعض السلف ، أنهم قالوا «ق» جبل محيط بالأرض ، يقال له جبل «ق» وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس .. [1].

والواو في قوله ـ تعالى ـ : (وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) للقسم ، والمقسم به القرآن الكريم ، وجواب القسم محذوف لدلالة ما بعده عليه ، وهو استبعادهم لبعثة الرسول ﷺ وتكذيبهم للبعث والحساب ..

وقوله : (الْمَجِيدِ) صفة للقرآن. أى : ذي المجد والشرف وكثرة الخير.

ولفظ المجيد مأخوذ من المجد ، بمعنى السعة والكرم ، وأصله من مجدت الإبل وأمجدت ، إذا وقعت في مرعى مخصب ، واسع ، الجنبات ، كثير الأعشاب.

والمعنى : أقسم بالقرآن ذي المجد والشرف ، وذي الخير الوفير الذي يجد فيه كل طالب مقصوده ، إنك ـ أيها الرسول الكريم ـ لصادق فيما تبلغه عن ربك من أن البعث حق والحساب حق ، والجزاء حق ... ولكن الجاحدين لم يؤمنوا بذلك.

(بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ) وهو أنت يا محمد ، فلم يؤمنوا بك ، بل قابلوا دعوتك بالإنكار والتعجب.

(فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ) أى : هذا البعث الذي تخبرنا عنه يا محمد شيء يتعجب منه ، وتقف دونه أفهامنا حائرة.

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ...) بل للإضراب عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف ، فكأنه قيل إنا أنزلنا هذا القرآن لتنذر به

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٧٢.

الناس ، فلم يؤمنوا به ، بل جعلوا كلا من المنذر والمنذر به عرضة للتكبر والتعجب ، مع كونهما أوفق شيء لقضية العقول ، وأقربه إلى التلقي بالقبول ..

وقوله : ﴿أَنْ جاءَهُمْ﴾ بتقدير لأن جاءهم ، ومعنى «منهم» أى : من جنسهم ، وضمير الجمع يعود إلى الكفار ..

وقوله : ﴿فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ تفسير لتعجبهم .. وإضمارهم أولا ، للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم ، وإظهارهم ثانيا ، لتسجيل الكفر عليهم .. [1].

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ تقرير للتعجب ، وتأكيد للإنكار الصادر عنهم ، والعامل في «إذا» مضمر لدلالة ما بعده عليه ..

أى : أحين نموت ونصير ترابا وعظاما نرجع إلى الحياة مرة أخرى ، كما يقول محمد ﷺ ، وكما يقول القرآن الذي نزل عليه.

لا ، إننا لن نبعث ولن نعود إلى الحياة مرة أخرى ، وما يخبرنا به محمد ﷺ من أن الرجوع إلى الحياة مرة أخرى حق ، كلام بعيد عن عقولنا وأفهامنا.

فاسم الإشارة «ذلك» يعود إلى محل النزاع وهو الرجوع إلى الحياة مرة أخرى ، والبعث بعد الموت. والرجع بمعنى الرجوع. يقال : رجعته أرجعه رجعا ورجوعا ، بمعنى أعدته .. ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾.

أى : ذلك الرجوع إلى الحياة مرة أخرى بعيد عن الأفهام ، وعن العادة ، وعن الإمكان.

وبعد هذا التصوير الأمين لحججهم وأقوالهم ، ساق ـ سبحانه ـ الرد الذي يدفع تلك الحجج والأقوال فقال : ﴿قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.

أى : قد علمنا علما تاما دقيقا ما تأكله الأرض من أجسادهم بعد موتهم ، ومن علم ذلك لا يعجزه أن يعيدهم إلى الحياة مرة أخرى.

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ﴾ تأكيد وتقرير لما قبله.

أى : وعندنا بجانب علمنا الشامل الدقيق. كتاب حافظ لجميع أحوال العباد ، ومسجلة فيه أقوالهم وأفعالهم ، والمراد بهذا الكتاب : اللوح المحفوظ.

ثم كشف ـ سبحانه ـ عن حقيقة أحوالهم ، وعن الأسباب التي دفعتهم إلى إيثار الباطل على الحق فقال : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ ، فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾. أى : إن هؤلاء

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٧٢.

الكافرين لم يكتفوا بإنكارهم للبعث .. بل جاءوا بما هو أشنع وأفظع منه ، وهو تكذيبهم لنبوتك . أيها الرسول الكريم . تلك النبوة الثابتة بالمعجزات الناصعة ، ومن مظاهر هذا التكذيب أنهم تارة يقولون عنك ساحر ، وتارة يقولون عنك كاهن وتارة يصفونك بالجنون.

فهم في أمر مريج ، أى : مضطرب مختلط. بحيث لا يستقرون على حال. يقال : مرج الأمر . بزنة طرب . إذا اختلط وتزعزع ، وفقد الثبات والاستقرار والصلاح .. ومنه قولهم : مرجت أمانات الناس ، إذا فسدت وعمتهم الخيانة ، ومرج الخاتم في إصبع فلان ، إذا تخلخل واضطرب لشدة هزال صاحبه.

وفي هذا الرد عليهم تصوير بديع معجز ، حيث بين . سبحانه . بأنه عليم بما تأكله الأرض من أجسادهم المغيبة فيها ، وبتناقص هذه الأجساد رويدا رويدا ، وأن كل أحوالهم مسجلة في كتاب حفيظ ، وأنهم عند ما فارقوا الحق الثابت وكذبوه ، مادت الأرض من تحتهم واضطربت ، واختلطت عليهم الأمور والتبست ، فصاروا يلقون التهم جزافا دون أن يستقروا على رأى ، أو يجتمعوا على كلمة ..

ثم شرعت السورة الكريمة في بيان الأدلة على قدرة الله . تعالى . وعلى أن البعث حق ، وعلى أن استبعادهم له إنما هو لون من جهالاتهم وانطماس بصائرهم ، فقال . تعالى . :

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ﴾.

والاستفهام للإنكار والتعجيب من جهلهم ، والهمزة متعلقة بمحذوف ، والفاء عاطفة عليه أى : أأعرضوا عن آيات الله في هذا الكون ، فلم ينظروا إلى السماء فوقهم. كيف بنيناها هذا البناء العجيب ، بأن رفعناها بدون عمد ، وزيناها بالكواكب ، وحفظناها من أى تصدع أو تشقق أو تفتق. فقوله : ﴿فُرُوجٍ﴾ جمع فرج ، وهو الشق بين الشيئين. والمراد سلامتها من كل عيب وخلل.

ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله . تعالى . : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ، ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ ، فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (١).

ثم بين . سبحانه . مظاهر قدرته في بسط الأرض ، بعد بيان مظاهر قدرته في رفع السماء فقال : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْناها﴾ أى : والأرض بسطناها ومددناها بقدرتنا ، وجعلناها مترامية الأطراف والمناكب ، كما تشاهدون ذلك بأعينكم.

---

(١) سورة تبارك الآيتان ٣ ، ٤.

قالوا : وامتدادها واتساعها لا ينافي كرويتها ، لأن عظم سطحها يجعل الناظر إليها يراها كأنها مسطحة ممدودة.

﴿وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ﴾ أى : وألقينا فيه جبالا ثوابت تمنعها من الاضطراب ..

فقوله ﴿رَواسِيَ﴾ جمع راسية بمعنى ثابتة وهو صفة لموصوف محذوف.

﴿وَأَنْبَتْنا فِيها﴾ أى : في الأرض ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى : وأنبتنا فيها من كل صنف حسن يبهج ويسر الناظرين إليه ، مأخوذ من البهجة بمعنى الحسن يقال : بهج الشيء ـ كظرف ـ فهو بهيج أى : حسن جميل.

وقوله : ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرى ..﴾ علتان لما تقدم من الكلام ، وهما منصوبتان بفعل مقدر.

أى : فعلنا ما فعلنا من مد الأرض ، ومن تثبيتها بالجبال ، ومن إنبات كل صنف حسن من النبات فيها ، لأجل أن نبصر عبادنا بدلائل وحدانيتنا وقدرتنا ، ونذكرهم بما يجب عليهم نحو خالقهم من شكر وطاعة.

وقوله : ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ متعلق بكل من المصدرين السابقين وهما : التبصرة والذكرى. أى : هذه التبصرة والذكرى كائنة لكل عبد منيب ، أى : كثير الرجوع إلى ربه بالتدبر في بدائع صنعته ، ودلائل قدرته.

ثم انتقلت الآيات إلى بيان مظاهر قدرته في إنزال المطر ، بعد بيان مظاهر قدرته في خلق السموات والأرض وما اشتملتا عليه من كائنات ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً﴾ أى : ماء كثير المنافع والخيرات للناس والدواب والزروع.

﴿فَأَنْبَتْنا بِهِ﴾ أى : بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أى : بساتين كثيرة زاخرة بالثمار ..

﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أى : وحب النبات الذي من شأنه أن يحصد عند استوائه كالقمح والشعير وما يشبههما من الزروع.

فالحصيد بمعنى المحصود ، وهو صفة لموصوف محذوف أى : وحب الزرع الحصيد. فهذا التركيب من باب حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه للعلم به.

وخص الحب بالذكر ، لاحتياج الناس إليه أكثر من غيره ، فصار كأنه المقصود بالبيان.

وقوله : ﴿وَالنَّخْلَ ...﴾ معطوف على ﴿جَنَّاتٍ﴾ ، و ﴿باسِقاتٍ﴾ حال من النخل. ومعنى «باسقات» مرتفعات ، من البسوق بمعنى الارتفاع والعلو. يقال : بسق فلان على أصحابه ـ من باب دخل ـ إذا فاقهم وزاد عليهم في الفضل.

والنخل: اسم جنس يذكر ويؤنث ويجمع. وخص بالذكر مع أنه من جملة ما اشتملت عليه الجنات، لمزيد فضله وكثرة منافعه.

وجملة ﴿لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ في محل نصب على الحال من النخل.

والطلع: أول ما يخرج من ثمر النخل. ويسمى الكفرّى. يقال: طلع الطلع طلوعا. إذا كان في أول ظهوره.

والنضيد: بمعنى المنضود، أى: المتراكب بعضه فوق بعض مأخوذ من نضد فلان المتاع ينضده، إذا رتبه ترتيبا حسنا.

أى: وأنبتنا ـ أيضا ـ في الأرض بعد إنزالنا الماء عليها من السحاب، النخل الطوال، الزاخر بالثمار الكثيرة التي ترتب بعضها على بعض بطريقة جميلة..

وقوله: ﴿رِزْقاً لِلْعِبادِ﴾ بيان للحكمة من إنزال المطر وإنبات الزرع..

أى: أنبتنا ما أنبتنا من الجنات ومن النخل الباسقات.. ليكون ذلك رزقا نافعا للعباد..

﴿وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ أى: وأحيينا بذلك الماء الذي أنزلناه بلدة كانت مجدبة، وأرضا كانت خالية من النبات والزروع، وتذكير ﴿مَيْتاً﴾ لكون البلدة بمعنى المكان.

وقوله: ﴿كَذلِكَ الْخُرُوجُ﴾ جملة مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث، مثله كمثل هذا الإحياء للأرض التي كانت جدباء ميتة، بأن أنبتت من كل زوج بهيج بعد أن كانت خالية من ذلك.

فوجه الشبه بين إحياء الأرض بالنبات بعد جدبها، وبين إحياء الإنسان بالبعث بعد موته، استواء الجميع في أنه جاء بعد عدم.

قال ابن كثير: قوله: ﴿وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً...﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. وذلك بعد أن كانت لا نبات فيها، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيى الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس، أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث..

كقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1] وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٣٣.

الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت ألوانا من الأدلة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وقدرته ، وعلى أن البعث حق ، وأنه آت لا ريب فيه.

وبعد هذا العرض البديع لمظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ في هذا الكون ، ولمظاهر نعمه على خلقه ، ساقت السورة الكريمة جانبا من أحوال المكذبين للرسل السابقين. تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من قومه ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٥)

أى : لا تحزن ـ أيها الرسول الكريم ـ لما أصابك من أذى من هؤلاء المشركين الجاحدين المكذبين فقد سبقهم إلى هذا التكذيب والكفر والجحود «قوم نوح» ـ عليه‌السلام ـ ، فإنهم قد قالوا في حقه إنه مجنون ، كما حكى عنهم ذلك في قوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾. وقوله : ﴿وَأَصْحابُ الرَّسِ﴾ معطوف على ما قبله ، والرس في لغة العرب : البئر التي لم تبن بعد بالحجارة ، وقيل : هي البئر مطلقا.

وللمفسرين في حقيقة أصحاب الرس أقوال : فمنهم من قال إنهم من بقايا قبيلة ثمود ، بعث الله إليهم واحدا من أنبيائه ، فكذبوه ورسوه في تلك البئر ، أى : ألقوا به فيها فأهلكهم ـ سبحانه ـ بسبب ذلك.

وقيل : هم الذين قتلوا حبيبا النجار عند ما جاء يدعوهم إلى الدين الحق ، وكانت تلك البئر بأنطاكية ، وبعد قتلهم له ألقوه فيها. وقيل : هم قوم شعيب ـ عليه‌السلام ـ ...

واختار ابن جرير ـ رحمه‌الله ـ أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين جاء الحديث عنهم في سورة البروج.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٧٥.

والمراد بثمود : قوم صالح ـ عليه السلام ـ الذين كذبوه فأهلكهم الله ـ تعالى ..

والمراد بعاد : قوم هود ـ عليه السلام ـ الذين اغتروا بقوتهم ، وكذبوا نبيهم ، فأخذهم ـ سبحانه ـ أخذ عزيز مقتدر.

﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ هو الذي أرسل الله إليه موسى ـ عليه السلام ـ فكذبه وقال لقومه ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى. فَأَخَذَهُ اللهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى﴾.

﴿وَإِخْوانُ لُوطٍ﴾ هم قومه الذين أتوا بفاحشة لم يسبقوا إليها. قالوا : ووصفهم الله ـ تعالى ـ بأنهم إخوانه ، لأنه كانت تربطه بهم رابطة المصاهرة حيث إن امرأته ـ عليه السلام ـ كانت منهم.

﴿وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب ـ عليه السلام ـ كما قال ـ تعالى ـ : ﴿كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (١).

والأيكة : اسم لمنطقة كانت مليئة بالأشجار ، ومكانها ـ في الغالب ـ بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، ولعلها المنطقة التي تسمى بعمان.

وكان قوم شعيب يعبدون الأوثان ، ويطففون في المكيال فنهاهم شعيب عن ذلك ، ولكنهم كذبوه فأهلكهم الله ـ تعالى ..

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو تبع الحميرى اليماني ، وكان مؤمنا وقومه كفار ، قالوا : وكان اسمه سعد أبو كرب ، وقد أشار القرآن إلى قصتهم في آيات أخرى منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ..﴾ (٢).

والتنوين في قوله ـ تعالى ـ : ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ...﴾ عوض عن المضاف إليه.

أى : كل قوم من هؤلاء الأقوام السابقين كذبوا رسولهم الذي جاء لهدايتهم.

وقوله : ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ بيان لما حل بهم بسبب تكذيبهم لرسلهم. أى : كل واحد من هؤلاء الأقوام كذبوا رسولهم ، فكانت نتيجة ذلك أن وجب ونزل بهم وعيدي ، وهو العذاب الذي توعدتهم به ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً. وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا ، وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣).

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٧٦ وما بعدها.

(٢) سورة الدخان الآية ٣٧.

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٠.

قال ابن كثير : قوله : ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ...﴾ أى : كل من هذه الأمم ، وهؤلاء القرون كذب رسوله ، ومن كذب رسولا فكأنما كذب جميع الرسل.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أى : فحق عليهم ما أوعدهم الله ـ تعالى ـ على التكذيب من العذاب والنكال ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم ، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك [1].

وبعد هذا العرض لمصارع المكذبين ، عادت السورة إلى تقرير الحقيقة التي كفر بها الجاهلون والجاحدون ، وهي أن البعث حق ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والاستفهام للإنكار والنفي ، وقوله ﴿فَعَيِينَا﴾ من العي بمعنى العجز. يقال : عيي فلان بهذا الشيء ، إذا عجز عنه ، وانقطعت حيلته فيه ، ولم يهتد إلى طريقة توصله إلى مقصوده منه.

واللبس : الخلط. يقال : لبس على فلان الأمر ـ من باب ضرب ـ إذا اشتبه واختلط عليه ، ولم يستطع التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ.

أى : أفعجزت قدرتنا عن خلق هؤلاء الكافرين وإيجادهم من العدم ، حتى يتوهموا أننا عاجزون عن إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم؟.

كلا إننا لم نعجز عن شيء من ذلك لأن قدرتنا لا يعجزها شيء ، ولكن هؤلاء الكافرين لانطماس بصائرهم ، واستيلاء الشيطان عليهم ، قد صاروا في لبس وخلط من أمرهم ، بدليل أنهم يقرون بأننا نحن الذين خلقناهم ولم يكونوا شيئا مذكورا ، ومع ذلك فهم ينكرون قدرتنا على الخلق الجديد أى : على إعادتهم إلى الحياة الدنيا مرة أخرى بعد موتهم.

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى : بل إن هؤلاء الكافرين في خلط وشك وحيرة من أن يكون هناك خلق جديد أى خلق مستأنف لهم بعد موتهم ، مع أنهم ـ لو كانوا يعقلون ـ لعلموا أن القادر على الخلق من العدم ، قادر على إعادة هذا المخلوق من باب أولى ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..﴾ [2].

قال الآلوسى : وقوله : ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ عطف على مقدر يدل عليه

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٧٥.

(٢) سورة الروم الآية ٢٧.

ما قبله ، كأن قيل : إنهم معترفون بالأول غير منكرين قدرتنا عليه ، فلا وجه لإنكارهم الثاني ، بل هم في خلط وشبهة في خلق مستأنف .. [1].

وقال بعض العلماء ما ملخصه : في الآية أسئلة ثلاثة : لم عرف الخلق الأول؟ ولم نكر اللبس؟ ولم نكر الخلق الجديد؟.

وللإجابة على ذلك نقول : عرف الخلق الأول للتعميم والتهويل والتفخيم ومنه تعريف الذكور في قوله ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ﴾.

وأما التنكير فأمره منقسم ، فأحيانا يقصد به التفخيم ، من حيث ما فيه من الإبهام .. وهو المقصود هنا من تنكير لفظ ﴿لَبْسٍ﴾. كأنه قيل : بل هم في لبس أى لبس.

وأحيانا يقصد به التقليل والتهوين لأمره ، وهو المقصود هنا بقوله من ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى : أن هذا الخلق الجديد شيء هين بالنسبة إلى الخلق الأول ، وإن كان كل شيء هين بالنسبة إلى قدرة الله ـ تعالى ـ [2].

ثم صورت السورة الكريمة بعد ذلك علم الله ـ تعالى ـ الشامل لكل شيء تصويرا يأخذ بالألباب ، وبينت سكرات الموت وغمراته ، وأحوال الإنسان عند البعث .. بيانا رهيبا مؤثرا ، قال ـ تعالى ـ :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (١٧) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٢)

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٧٨.

(٢) راجع حاشية تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٨٢.

والمراد بالإنسان في قوله . تعالى . : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ..﴾ جنسه. وقوله : ﴿تُوَسْوِسُ﴾ من الوسوسة وهو الصوت الخفى ، والمراد به حديث الإنسان مع نفسه. قال الشاعر :

وأكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يزرى بالأمل

و ﴿ما﴾ موصولة ، والضمير عائد عليها والباء صلة ، أى : ونعلم الأمر الذي تحدثه نفسه به. ويصح أن تكون مصدرية ، والضمير للإنسان ، والباء للتعدية ، أى ونعلم وسوسة نفسه إياه.

والمتدبر في هذه الآية يرى أن افتتاحها يشير إلى مضمونها ، لأن التعبير بخلقنا ، يشعر بالعلم التام بأحوال المخلوق ، إذ خالق الشيء وصانعه أدرى بتركيب جزئياته. أى : والله لقد خلقنا بقدرتنا هذا الإنسان. ونعلم علما تاما شاملا ما تحدثه به نفسه من أفكار وخواطر ..

وقوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ تقرير وتوكيد لما قبله.

وحبل الوريد : عرق في باطن العنق يسرى فيه الدم ، والإضافة بيانية. أى : حبل هو الوريد. أى : ونحن بسبب علمنا التام بأحواله كلها ، أقرب إليه من أقرب شيء لديه ، وهو عرق الوريد الذي في باطن عنقه ، أو أقرب إليه من دمائه التي تسرى في عروقه.

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن علم الله . تعالى . بأحوال الإنسان ، أقرب إلى هذا الإنسان ، من أعضائه ومن دمائه التي تسرى في تلك الأعضاء.

والمقصود من القرب : القرب عن طريق العلم ، لا القرب في المكان لاستحالة ذلك عليه . تعالى ..

قال القرطبي : قوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾ يعنى الناس. ﴿وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أى : ما يختلج في سره وقلبه وضميره ، وفي هذا زجر عن المعاصي التي استخفى بها .. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هو حبل العاتق ، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان عن يمين وشمال .. والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين .. وهذا تمثيل لشدة القرب. أى : ونحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو من نفسه .. وهذا القرب ، هو قرب العلم والقدرة ، وأبعاض الإنسان يحجب البعض البعض ، ولا يحجب علم الله . تعالى . شيء [1].

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٩.

وقال القشيري : في هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم ، وروح وأنس وسكون قلب لقوم (١).

وعلى هذا التفسير الذي سرنا عليه. وسار عليه من قبلنا جمهور المفسرين يكون الضمير ﴿نَحْنُ﴾ يعود إلى الله ـ تعالى ـ ، وجيء بهذا الضمير بلفظ ﴿نَحْنُ﴾ على سبيل التعظيم.

ويرى الإمام ابن كثير أن الضمير هنا يعود إلى الملائكة ، فقد قال ـ ﷺ ـ وقوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعنى ملائكته ـ تعالى ـ أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ـ تعالى الله وتقدس ـ ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحتضر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ يعنى ملائكته.

وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، بإقدار الله لهم على ذلك (٢).

وهذا الذي ذهب إليه ابن كثير وإن كان مقبولا ـ لأن قرب الملائكة من العبد بإقدار الله لهم على ذلك ـ إلا أن ما ذهب إليه الجمهور من أن الضمير ﴿نَحْنُ﴾ لله ـ تعالى ـ أدل على قرب الله ـ سبحانه ـ لأحوال عباده ، وأظهر في معنى الآية ، وأزجر للإنسان عن ارتكاب المعاصي.

و ﴿إِذْ﴾ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ ...﴾ ظرف منصوب بقوله ﴿أَقْرَبُ﴾. أى : ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، في الوقت الذي يتلقى فيه ﴿الْمُتَلَقِّيانِ﴾ وهما الملكان جميع ما يصدر عن هذا الإنسان.

وهو ـ سبحانه ـ وإن كان في غير حاجة إلى كتابة هذين الملكين لما يصدر عن الإنسان ، إلا أنه ـ تعالى ـ قضى بذلك لحكم متعددة ، منها إقامة الحجة على العبد يوم القيامة ، كما أشار ـ سبحانه ـ إلى ذلك في قوله : ﴿... وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (٣).

ومفعول التلقي في الفعل الذي هو يتلقى ، وفي الوصف الذي هو المتلقيان ، محذوف ، والتقدير إذ يتلقى المتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان فيكتبانه عليه.

---

(١) حاشية الجمل ج ٤ ص ١٩٢.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٧٦.

(٣) سورة الإسراء الآيتان ١٣ ، ١٤.

وقوله : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ﴾ بيان ليقظة الملكين وحرصهما على تسجيل كل ما يصدر عن الإنسان.

و ﴿قَعِيدٌ﴾ بمعنى المقاعد ، أى الملازم للإنسان ، كالجليس بمعنى المجالس.

والمعنى : عن يمين الإنسان ملك ملازم له لكتابة الحسنات ، وعن الشمال كذلك ملك آخر ملازم له لكتابة السيئات وحذف لفظ قعيد من الأول لدلالة الثاني عليه ، كما في قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

أى : نحن راضون بما عندنا وأنت راض بما عندك ..

ثم أكد ـ سبحانه ـ كل هذه المعاني بقوله : ﴿ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أى : ما يتكلم هذا الإنسان من كلام ، وما يفعل من فعل ، إلا ولديه ملك «رقيب» أى : حفيظ يكتب أقواله «عتيد» أى : مهيأ لذلك ، حاضر عنده لا يفارقه.

يقال : عتد الشيء ـ ككرم ـ عتادة وعتادا ، أى : حضر ، فهو عتد وعتيد ، ويتعدى بالهمزة وبالتضعيف ، فيقال : أعتده صاحبه وعتّده ، إذا هيأه وأعده.

والمراد أن الملكين اللذين أحدهما عن يمينه والثاني عن شماله ، كلاهما مراقب لأعمال الإنسان ، حاضر لكتابتها.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ. كِراماً كاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾ وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ وقوله ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال بعض العلماء ما ملخصه : وبعض العلماء يرى أن الملكين يكتبان كل شيء حتى الأنين في المرض .. لأن قوله ـ تعالى ـ ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم كل قول ..

وبعضهم يرى أن الملكين لا يكتبان من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب ، وقالوا : إن في الآية نعتا محذوفا ، سوغ حذفه العلم به ، لأن كل الناس يعلمون أن الجائز لا ثواب فيه ولا عقاب ، وتقدير النعت المحذوف : ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء إلا ولديه رقيب عتيد .. [1].

ثم بين ـ سبحانه ـ حالة الإنسان عند الاحتضار فقال : ﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ

(١) راجع أضواء البيان للشيخ الشنقيطى ج ٧ ص ٦٥١.

﴿ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾. أى : وجاءت لكل إنسان سكرة الموت وشدته وغمرته وكربته ، ملتبسة بالحق الذي لا شك فيه ولا باطل معه ﴿ذلِكَ﴾ أى : الموت الذي هو نهاية كل حي ﴿ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أى : تميل وتهرب وتفر منه في حياتك. يقال : حاد فلان عن الشيء يحيد حيدة .. إذا تنحى عنه وابتعد.

أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن عبد الله مولى الزبير بن العوام قال : لما حضر أبو بكر الموت ، بكت ابنته عائشة ، وتمثلت بقول الشاعر :

لعمرك ما يغنى الحذار عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال لها أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : لا تقولي ذلك يا بنتي ، ولكن قولي : ﴿وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

ثم بين ـ سبحانه ـ نهاية هذه الدنيا فقال : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أى : النفخة الأخيرة .. ﴿ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أى : ذلك الوقت الذي يكون فيه النفخ الأخير في الصور ، هو الوقت الذي توعد الله ـ تعالى ـ فيه كل كافر بسوء المصير ، كما وعد كل مؤمن بحسن الجزاء.

وخص الوعيد بالذكر ، لتهويل هذا اليوم ، وتحذير العصاة مما سيكون فيه.

﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس المؤمنة والكافرة والمطيعة والعاصية ﴿مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أى : معها ملك يسوقها إلى المحشر ، ومعها ملك آخر يشهد عليها .. ثم يقال للكافر في هذا اليوم العصيب : ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ﴾ تامة ﴿مِنْ هذا﴾ الذي تعانيه اليوم وتشاهده ﴿فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ﴾ أى : فأزلنا عنك في هذا اليوم تلك الغفلة التي كانت تحجبك عن الاستعداد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح.

﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أى : فبصرك ونظرك في هذا اليوم نافذ قوى ، تستطيع أن تبصر به ما كنت تنكره في الدنيا ، من البعث والحساب والثواب والعقاب.

يقال : فلان حديد البصر ، إذا كان شديد الإبصار بحيث يرى أكثر مما يراه غيره.

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد بينت بأسلوب بليغ مؤثر ، شمول علم الله ـ تعالى ـ لكل شيء ، كما بينت حالة الإنسان يوم القيامة ، يوم تأتى كل نفس ومعها سائق وشهيد ..

ثم يحكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما يقوله قرين الإنسان يوم القيامة فيقول :

﴿وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وما أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ (٣٥)

والمراد بقرينه في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالَ قَرِينُهُ ...﴾ الملك الموكل بكتابة ما يصدر عن الإنسان في حياته ، وجاء به مفردا مع أن لكل إنسان قرينين لأن المراد به الجنس.

ويصح أن يكون المراد بقرينه هنا ، شيطانه الذي أضله وأغواه ..

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿وَقالَ قَرِينُهُ ...﴾ أى : شيطانه المقيض له في الدنيا ، ففي الحديث : «ما من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن» قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : «ولا أنا ، إلا أن الله ـ تعالى ـ أعانني عليه ، فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير».

وقوله : ﴿هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ إشارة إلى الشخص الكافر نفسه ، أى : هذا ما عندي قد هيأته لجهنم ..

وقال قتادة : قرينه : الملك الموكل بسوقه وبكتابة سيئاته ، يقول مشيرا إلى ما في صحيفته وما فيها من سيئات : هذا الذي في صحيفته من سيئات مكتوب عندي ، وحاضر للعرض. و «ما» نكرة موصوفة بالظرف وبعتيد ، أو موصولة والظرف صلتها ، و «عتيد» خبر بعد

خبر لاسم الإشارة ، أو خبر لمبتدأ محذوف .. [1].

ثم يقال بعد ذلك للملكين الموكلين به ، أو للسائق والشهيد : ﴿أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى : اقذفا في جنهم باحتقار وغضب كل «كفار» أى : كل مبالغ في الجحود والكفر «عنيد» أى : معاند للحق مع علمه بأنه حق ..

يقال : عند فلان عن الحق ـ من باب ـ قعد فهو عاند وعنيد وعنود ، إذا ركب الخلاف والعصيان وأبى أن ينقاد للحق مع علمه بأنه حق ، مأخوذ من العند وهو عظم يعرض في الحلق فيحول بين الطعام وبين دخوله إلى الجسم.

وقوله ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ﴾ صفات أخرى لذلك الكافر الملقى في جهنم.

أى : مبالغ في المنع لكل خير يجب فعله. وهو بعد ذلك كثير الاعتداء ، وكثير الشك فيما هو حق وبر.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾ في العبادة والطاعة ﴿فَأَلْقِياهُ﴾ أيها الملكان ﴿فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ﴾ الذي يذله ويهينه.

والاسم الموصول مبتدأ يشبه الشرط في العموم ، ولذا دخلت الفاء في خبره وهو قوله : ﴿فَأَلْقِياهُ ...﴾.

﴿قالَ قَرِينُهُ﴾ أى : شيطانه الذي كان يزين له السوء في الدنيا. والجملة مستأنفة لأنها جواب عما يزعمه الكافر يوم القيامة من أن قرينه هو الذي أغواه وحمله على الكفر ..

أى : قال الشيطان في رده على الكافر : يا ربنا إننى ما أطغيته ، ولا أجبرته على الكفر والعصيان ﴿وَلكِنْ﴾ هو الذي ﴿كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ دون أن أكرهه أنا على هذا الضلال أو الكفر.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ، إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ﴾ [2].

﴿قالَ﴾ أى : ـ الخالق ـ عزّ وجلّ ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَ﴾ أى : لا تتنازعوا عندي في هذا الموقف ، فإن التنازع لا فائدة فيه.

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ٢٨٥.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٢٢.

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ أى : والحال أنى قد حذرتكم على ألسنة رسلي من سوء عاقبة الكفر ، والآن لا مجال لهذا الاعتذار أو التخاصم.

﴿ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَ﴾ أى : لا خلف لوعدى ، ولا معقب لحكمي ، بل هو كائن لا محالة ، وهو أنى : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أى : وما أنا من شأنى أن أعذب أحدا بدون ذنب جناه. وإنما أنا من شأنى أن أجازى الذين أساؤوا بما عملوا ، وأجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، وأعفو عن كثير من ذنوب عبادي سوى الشرك بي.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أى : اذكر ـ أيها العاقل ـ لتتعظ وتعتبر ـ يوم نقول لجهنم هل امتلأت من كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب ، واكتفيت من كل من جعل معى إلها آخر ..؟

فترد جهنم وتقول : يا إلهى ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أى : يا إلهى هل بقي شيء منى لم يمتلئ من هؤلاء الكافرين؟ أنت تعلم يا خالقي أنى قد امتلأت ، ولم يبق منى موضع لقدم.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يخبر الله ـ تعالى ـ أنه يقول لجهنم يوم القيامة : هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أنه سيملؤها من الجنّة والناس أجمعين ، فهو ـ سبحانه ـ يأمر بمن يأمر به إليها ، ويلقى فيها وهي تقول : ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أى : هل بقي شيء تزيدونى؟ ..

هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث ، فقد أخرج البخاري عن أنس بن مالك. عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم قال : «يلقى في النار ـ الكفرة ـ وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع ـ سبحانه ـ فيها قدمه فتقول : قط قط ـ أى : حسبي حسبي ـ ..» وعن ابن عباس قوله : ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أى : وهل فيّ من مكان يزاد فيّ.

وعن عكرمة قوله : وتقول : ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ وهل فيّ مدخل واحد؟ قد امتلأت [1].

وقال الشوكانى : وهذا الكلام على طريقة التخييل والتمثيل ولا سؤال ولا جواب. كذا قيل. والأولى أنه على طريقة التحقيق ، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع.

قال الواحدي : أراها الله تصديق قوله : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ، فلما امتلأت قال لها : ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أى : قد امتلأت ولم يبق في موضع

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٨١.

لم يمتلئ. وقيل : إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة. أى : إنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها .. والمزيد : إما مصدر كالمحيد. أو اسم مفعول كالمنيع ، فالأول بمعنى : هل من زيادة. والثاني بمعنى هل من شيء تزيدونيه .. [1].

وكعادة القرآن في المقارنة بين عاقبة الأشرار والأخيار ، جاء بعد ذلك الحديث عن المتقين وحسن عاقبتهم فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

وقوله : ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ من الإزلاف بمعنى القرب ، يقال : أزلفه إذا قربه ، ومنه الزلفة والزلفى بمعنى القربة والمنزلة .. وهو معطوف على قوله ـ سبحانه ـ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾.

وقوله : ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ صفة لموصوف مذكر محذوف ، ولذا قال غير بعيد ولم يقل غير بعيدة. أى : وأدنيت وقربت الجنة للمتقين في مكان غير بعيد منهم ، فصاروا يرونها ويشاهدون ما فيها من خيرات لا يحيط بها الوصف.

وفائدة قوله : ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ بعد قوله ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ للتأكيد والتقرير ، كقولك : فلان قريب غير بعيد ، وعزيز غير ذليل ..

قال الجمل ما ملخصه : فإن قيل : ما وجه التقريب مع أن الجنة مكان ، والأمكنة يقرب منها وهي لا تقرب؟.

فالجواب : أن الجنة لا تنقل .. لكن الله ـ تعالى ـ يطوى المسافة التي بين المؤمن والجنة ـ حتى لكأنها حاضرة أمامه ـ وذلك من باب التكريم والتشريف للمؤمن [2].

واسم الإشارة في قوله : ﴿هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ يعود إلى الجنة التي قربت لهم .. والجملة على تقدير القول ، أى : قربت الجنة ممن هم أهلها ، ويقال لهم عند دخولها : هذا الذي ترونه من نعيم ، هو ما سبق أن وعد الله ـ تعالى ـ به كل ﴿أَوَّابٍ﴾ أى رجاع إليه بالتوبة ﴿حَفِيظٍ﴾ أى : حافظ لحدوده وأوامره ونواهيه بحيث لا يتجاوزها ، وإنما ينفذها ، ويقف عندها.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ ..﴾ أى : من خاف مقام ربه دون أن يراه أو يطلع عليه ، والجملة بدل أو عطف بيان من قوله : ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ وقوله : ﴿بِالْغَيْبِ﴾ متعلق بمحذوف حال من الرحمن ، أى : خشيه وهو غائب عنه لا يراه ولا يشاهده.

---

(١) تفسير فتح القدير ج ٥ ص ٧٧ للشوكاني.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ١٩٧.

﴿وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أى : وجاء ربه يوم القيامة بقلب راجع إليه ، مخلص في طاعته ، مقبل على عبادته ..

هؤلاء الذين يفعلون ذلك في دنياهم ، يقال لهم يوم الحساب على سبيل التبشير والتكريم :

﴿ادْخُلُوها بِسَلامٍ﴾ أى ادخلوا الجنة التي وعدكم الله إياها بسلام وأمان واطمئنان.

﴿ذلِكَ﴾ اليوم وهو يوم الثواب والعطاء الجزيل من الله ـ تعالى ـ ﴿يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ الذي لا انتهاء له ، ولا موت بعده ..

﴿لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها﴾ أى : لهؤلاء المتقين ما يشاءون ويشتهون .. في الجنة.

﴿وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ أى : وعندنا ـ فضلا عن كل هذا النعيم الذي يرفلون فيه ـ المزيد منه ، مما لم يخطر لهم على بال ، ولم تره أعينهم قبل ذلك.

قال ابن كثير : وقوله : ﴿وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ كقوله ـ تعالى ـ : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ﴾ ، وقد تقدم في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان ، أنها النظر إلى وجه الله الكريم (١).

ثم تحدثت السورة الكريمة في أواخرها عن مصارع المكذبين السابقين ، وعن مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ وعن الدواء الذي يزيل عن القلوب همومها ، وعن أهوال يوم القيامة ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٨٤.

وَأَدْبارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾ (٤٥)

و ﴿كَمْ﴾ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ....﴾ خبرية بمعنى كثير ، وهي منصوبة بما بعدها ، والقرن يطلق على جماعة من الناس تعيش في زمن واحد ، ومقداره مائة سنة ـ على الراجح ..

وقوله : ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ تمييز لكم ، وجملة ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً﴾ صفة ، والبطش : السطوة والأخذ بشدة. أى : واعلم ـ أيها الرسول الكريم ـ أننا أهلكنا كثيرا من القرون الماضية التي كذبت رسلها ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وقد كانوا أشد من قومك قوة وأكثر جمعا ، ومادام الأمر كما ذكرنا لك ، فلا تحزن ولا تبتئس لما يصيبك من الكافرين المعاصرين لك ، فنحن في قدرتنا أن ندمرهم تدميرا.

والضمير في قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ﴾ يعود إلى أهل تلك القرون المهلكة الماضية. والتنقيب : السير في الأرض ، والطواف فيها. والبحث بين أرجائها ، يقال : نقب فلان في الأرض ، إذا ذهب فيها وأصل النّقب : الخرق والدخول في الشيء ، ومنه قولهم : نقب فلان الجدار ، إذا أحدث فيه خرقا.

والمراد به هنا : السير في الأرض ، والتفتيش فيها ..

قال الآلوسى : ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ﴾ أى : ساروا في الأرض وطوفوا فيها حذر الموت ..

قال الشاعر :

نقبوا في البلاد حذر الموت   وجالوا في الأرض كل مجال

وشاع التنقيب في العرف بمعنى التنقير عن الشيء والبحث عن أحواله ..

والفاء على تفسير التنقيب بالسير ونحوه ، لمجرد التعقيب ، وعلى تفسيره بالتصرف

للسببية ، لأن تصرفهم في البلاد مسبب عن اشتداد بطشهم ، وهي على الوجهين عاطفة على معنى ما قبلها ، كأنه قيل : اشتد بطشهم فنقبوا في البلاد .. [1].

والاستفهام في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ للإنكار والنفي ، والمحيص : المعدل والمهرب ، يقال : حاص فلان عن الشيء يحيص حيصا ، ومحيصا ، إذا عدل وحاد عنه ، وحاول الهروب منه. أى : أن هؤلاء المكذبين السابقين ، كانوا أشد من مشركي قريش قوة وأكثر جميعا ، وكانوا أكثر ضربا في الأرض وسيرا فيها فلما نزل بهم بأسنا حاولوا الهرب والفرار ، فلم يجدوا مكانا يهربون فيه ، بل نزل بهم عذابنا فدمرناهم تدميرا.

فعليكم ـ أيها المشركون ـ أن تعتبروا بهم ، حتى لا يصيبكم ما أصابهم.

فالمقصود بالآية الكريمة ، تسلية الرسول ﷺ وتحذير أعدائه من سوء عاقبة الكفر والعناد.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ الإهلاك للأمم المكذبة السابقة ﴿لَذِكْرى﴾ أى : لتذكرة وعبرة ﴿لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أى : لمن كان له قلب يعي ما يسمع ، ويعقل ما يوجه إليه ، ويعمل بمقتضى هذا التوجيه الحكيم. ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أى : فيما سقناه عبرة وعظة لمن كان له قلب يعي الحقائق ، ولمن أصغى إلى ما يلقى إليه من إرشادات ، وهو حاضر الذهن صادق العزم لتنفيذ ما جاءه من الحق ..

قال صاحب الكشاف : ﴿لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أى : قلب واع ، لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له ، وإلقاء السمع : الإصغاء. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أى : حاضر بفطنته ، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب .. أو هو مؤمن شاهد على صحته ، وأنه وحى الله .. [2].

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر قدرته ووحدانيته فقال : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ﴾. واللغوب : التعب والنصب والإعياء ، مصدر لغب ـ كدخل ـ يقال : لغب فلان لغوبا ، إذا اشتد تعبه وضعفه.

أى : والله لقد خلقنا بقدرتنا السموات والأرض وما بينهما من كائنات لا يعلمها إلا الله ، في ستة أوقات وما مسنا بسبب هذا الخلق العظيم نصب أو تعب أو إعياء.

فالمراد بالأيام مطلق الأوقات التي لا يعلم مقدارها إلا الله ـ تعالى ـ وقيل : هذه الأيام من أيام الدنيا ، وقيل : من أيام الآخرة ..

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٦ ص ١٩١.

(٢) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٩٢.

وقال سعيد بن جبير : الله ـ تعالى ـ قادر على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما في لمحة ولحظة ، ولكنه ـ سبحانه ـ خلقهن في ستة أيام ليعلم عباده التثبت في الأمور والتأنى فيها.

والمقصود بالآية الكريمة بيان كمال قدرة الله ـ تعالى .. والرد على من أنكر البعث والنشور. وعلى اليهود الذين زعموا أن الله ـ تعالى ـ خلق العالم في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت.

والفاء في قوله : ﴿فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ﴾ فصيحة. أى : إذا كان الحال كما بينا لك يا محمد ، فاصبر على ما يقوله هؤلاء الضالون المكذبون من أقوال لا يؤيدها عقل أو نقل.

وقوله : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ إرشاد له ﷺ إلى ما يعينه على الصبر.

أى : اصبر ـ أيها الرسول الكريم ـ على أقوال هؤلاء الكافرين ، ونزه ربك ـ تعالى ـ عن كل ما لا يليق به ، وتقرب إليه بالعبادات والطاعات ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وهما وقتا الفجر والعصر.

وخصهما ـ سبحانه ـ بالذكر لفضلهما وشرفهما.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ ـ أيضا ـ ونزهه عن كل ما لا يليق به ، ﴿وَأَدْبارَ السُّجُودِ﴾ أى : وفي أدبار وأعقاب الصلوات فأكثر من تسبيحه ـ عزّ وجلّ ـ وتقديسه.

ومن الأحاديث التي وردت في فضل التسبيح بعد الصلوات المكتوبة ، ما ثبت في الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال : «جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال : «وما ذاك»؟ قالوا : يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق. فقال ﷺ : «أفلا أعلمكم شيئا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين».

قال : فقالوا : يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلناه ففعلوا مثله.

فقال ﷺ : «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» (١).

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها ، وَمِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى﴾ (٢).

---

(١) صحيح البخاري : «كتاب الأذان» باب «الذكر بعد الصلاة» ج ١ ص ٢١٣.

(٢) سورة طه الآية ١٣٠.

ثم أمر ـ سبحانه ـ رسوله ﷺ أن يلقى سمعه لما يخبره به ـ تعالى ـ من أهوال يوم القيامة فقال : ﴿وَاسْتَمِعْ ....﴾ والمستمع إليه محذوف للتهويل والتعظيم .. أى : واستمع ـ أيها الرسول الكريم ـ أو ـ أيها العاقل ـ لما سأخبرك به من أهوال يوم القيامة.

ثم بين ـ سبحانه ـ ذلك فقال : ﴿يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ﴾.

أى : استمع استماع تنبه وتيقظ يوم يناد المناد وهو إسرافيل ـ عليه‌السلام ـ من مكان قريب بحيث يسمع نداءه الناس جميعا ..

قال ابن كثير : قال قتادة : قال كعب الأحبار : يأمر الله ملكا أن ينادى على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء [١].

وفي ورود الأمر بالاستماع مطلقا ، ثم توضيحه بما بعده ، تهويل وتعظيم للمخبر به ، لما في الإبهام ، ثم التفسير ، من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه.

وقوله : ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِ﴾ بدل من قوله : ﴿يَوْمَ يُنادِ﴾.

أى : يوم يسمعون صيحة البعث من القبور. والحشر للجزاء ، سماعا ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل ، والمراد بهذه الصيحة : النفخة الثانية ﴿ذلِكَ﴾ اليوم هو ﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من الأجداث كأنهم جراد منتشر.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ. قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ، هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يدل على كمال قدرته فقال : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾. أى : إنا بقدرتنا وإرادتنا نحيي ونميت من نشاء إحياءه أو إماتته ، وإلينا وحدنا مرجع العباد ومصيرهم ، لا يشاركنا في ذلك مشارك.

اذكر ـ أيضا ـ أيها العاقل ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ..﴾ أى يوم تتشقق الأرض عمن في باطنها من مخلوقات ، فيخرجون إلينا سراعا. كما قال ـ تعالى ـ : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ، وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [٢].

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٨٨.

(٢) سورة الإسراء الآية ٥٢.

وقوله : ﴿ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ﴾ أى : ذلك التشقق للأرض وما يترتب عليه من بعث وجمع وحشر ، يسير وهين علينا ، لأن قدرتنا لا يعجزها شيء.

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بهذه الآية التي فيها من التسلية للرسول ﷺ ومن التحديد الدقيق لوظيفته ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾. أى : نحن ـ أيها الرسول الكريم ـ أعلم بما يقوله هؤلاء المشركون في شأنك وفي شأن دعوتك ، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقونه من عقاب ، فاصبر على أقوالهم ، وبلغ رسالة ربك دون أن تخشى أحدا سواه.

وأنت لست بمسلط عليهم لتجبرهم على اتباعك ، وتقهرهم على الدخول في الإسلام ، وإنما وظيفتك التذكير بهذا القرآن لمن يخشى عذابي ، ويخاف وعيدي.

كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾.

وكما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ، فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ﴾.

وبعد فهذا تفسير محرر لسورة «ق» التي حفظها بعض الصحابة من فم النبي ﷺ خلال تكراره لها في خطب الجمعة.

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المجلد الثالث عشر

الجزء الخامس والعشرون . والسادس والعشرون

من سورة «الشورى» الى سورة «ق»

١ . تفسير سورة «الشورى» ٥

٢ . تفسير سورة «الزخرف» ٥٣

٣ . تفسير سورة «الدخان».. ١١١

٤ . تفسير سورة «الجاثية».. ١٣٧

٥ . تفسير سورة «الأحقاف».. ١٧١

٦ . تفسير سورة «محمد».. ٢١١

٧ . تفسير سورة «الفتح».. ٢٥١

٨ . تفسير سورة «الحجرات» ٢٩٣

٩ . تفسير سورة «ق» ٣٢٧